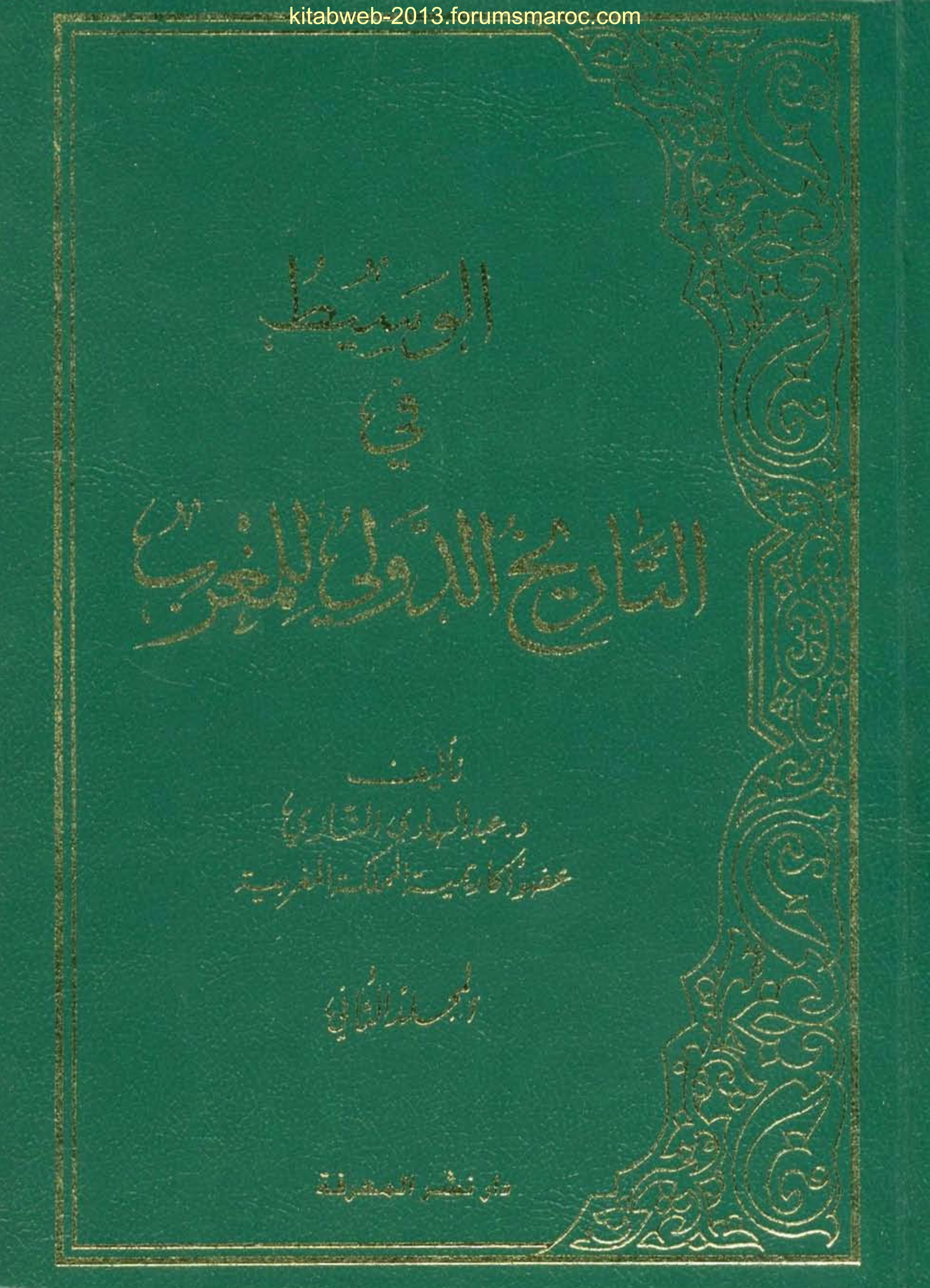

الوسيط
في
التاريخ الدولي للمغرب
تأليف
د. عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية
المجلد الثاني
دار نشر المعرفة

الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب

تأليف
د. عبد الهادي التازي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

المجلد الثاني



الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب - الجزء الثاني

- تأليف : الدكتور عبد الهادي التازي
- نشر وتوزيع : دار نشر المعرفة - رقم 10. شارع الفضيلة - الحي الصناعي

الهاتف : 02 57 79 037-14 69 79 037 الفاكس : 43 03 79 037 - الرباط - المغرب

- الإيداع القانوني : 2001/1174
- ردمك : 9981-808-78-4
- السحب : مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - المغرب
- الطبعة الأولى : 1422هـ / 2001م

بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة الميثاق في الإسلام

«وإن استنصروكم في الدّين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق»

الأنفال، الآية 72

الباب الرابع

عهد الموحدين

- موقف الموحدين من المغرب الكبير وباقي إفريقيا
- علاقات الموحدين بالأندلس
- مشروع جبل طارق كنقطة لقاء بين القارتين
- معركة الأرك أيام المنصور
- الوضع في الأندلس بعد معركة العقاب
- علاقات المغرب بمملكة أراغون
- علاقات الموحدين بأروبا - الكرسيّ البابوي - فرنسا - بيزة - جنوة صقلية - البندقية - انجلترا - النمسا - اليونان
- علاقة المغرب بالمشرق

الفصل الأول

- بداية الموحدين
- موقف عبد المؤمن من قضايا المغرب الكبير وباقي إفريقيا
- موقف عبد المؤمن من قضايا الأندلس
- تلقي البيعات لا يعني إقصاء السفارات
- عبد المومن ينشئ جبل طارق كنقطة لقاء بين القارتين
- استفادة الموحدين من اختلاف المناوئين للموحدين
- الجواز الأول للخليفة يوسف بن عبد المومن 567=1172
- الجواز الثاني للخليفة يوسف ومصرعه بالبرتغال !

دولة الموحدين

524-668 هـ = 1129-1269 م

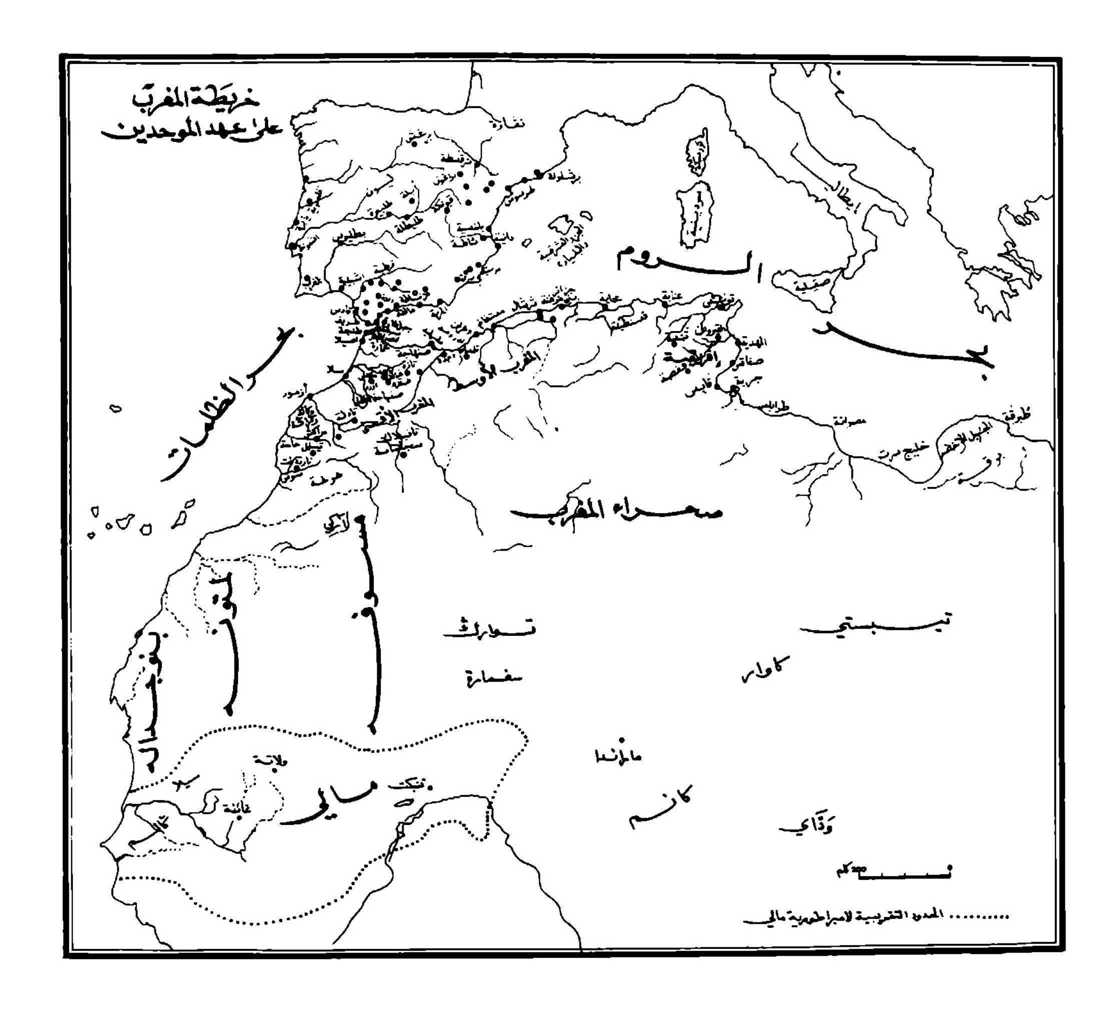
بداية الموحدين

إذا كان المرابطون قد استطاعوا أن يوسعوا نطاق نفوذهم شرقا إلى قلب المغرب الأوسط، فإن دولة الموحدين تجاوزت ذلك إلى حدود مصر، وهكذا امتدت جنوبا فشملت تخوم إفريقيا السوداء، وظلّت سيدةً على معظم الساحل الغربي للمحيط الأطلسي..

أما في الأندلس فقد حافظت على ما كان بيد أسلافها بل وحاولت أن تتوغل في أعماق المواقع التي كانت تغير على البلاد الإسلامية.

وقد كانوا، بالمقارنة مع أسلافهم المرابطين، أكثر تنظيما واستعدادا فقد فرضوا الأتاوات ليَتمّ الاسهام في النهوض بالبلاد بطرق محسوبة مضبوطة، وقد استطاعوا أن يكونوا جهازا محكما لإدارتهم يعتمد على "الهيرارشية" كما أن الأسطول الموحدي غدا مضرب المثل لدى العدو والصديق على السواء ...

وقد عمد الموحدون - منذ بداية تأليف الدولة - إلى اتخاذ موقفهم الجريئ إزاء التبعية للخلافة في بغداد فلم يعودوا - كما كان أسلافهم المرابطون - يدعون للخلفاء العباسيين على المنابر، ولم يعودوا ينقشون أسماء أولئك الخلفاء على العملة المغربية، بل عمد أول ملوك الموحدين إلى انتزاع لقب أمير المؤمنين


خريطة المغرب
على عهد الموحدين
الروم
بحر
بحر الظلمات
صحراء المغرب
تبستي
كاوار
كانم
مالي
ودّاي
الحدود التقريبية لامبراطورية مالي

وبالرغم من المتاعب والمصاعب التي خلفها ذلك الاختيار من الموحدين حيث حُركت ضدهم عناصر الشغب في كل من الأندلس والمغربين الأدنى والأوسط قصد استنزاف الموحدين والقضاء عليهم، فإن الموحدين–مع ذلك – ظلوا متحركين عبر البحر والبر يواجهون الاستفزاز والتحدي – في معظم الأحيان – بروح ملئها الإيمان والجلد والصبر، يهدف جمع العالم الاسلامي في وحدة متراصة.

الموقف مع باقي أقطار المغرب

استجابة لاستصراخ ملح ورد من المغرب الأدنى استمزج الخليفة عبد المومن 524-558 هـ = 1129-1162 رأي العلماء الذي أفتوه بضرره تلبية النداء ...

وهكذا خرج أمير المؤمنين من مراكش في اتجاه الشرق لتحرير المهدية في أول شوال من عام 553=1158.

ولم يلبث أن نازل المهدية وأقام عليها ... وانهزم من كان عليها من النورمانديين ومن هنا حررت الخطابات إلى مختلف جهات الامبراطورية ببشرى الفتح وقد كان أول هذه الخطابات مؤرخا في الثاني من ذي الحجة عام 554=15 دجنبر 1159 بظاهر المهدية على ما نقرأه في مصادر التاريخ الموحدي[1].

وكان الكتاب الثاني مبشرا بتمام فتح مدينة المهدية في يوم عاشوراء من عام 555=21 يناير 1160 وهو التاريخ الذي تذكره المصادر الصقلية كذلك.

وكان من الرسائل التي وجهها الخليفة عبد المومن بمناسبة هذا النصر الخطاب الذي بعثه من محلته على مقربة من قسنطينة بتاريخ ربيع الأول من عام 555=مارس 1160، وهو يحمل هذه الكلمة: (**والحمد لله وحده**) التي أصبحت شعارا للدولة الموحدية يرسمه الخليفة بخطه على رأس خطاباته.

لم يكن أمر توحيد المغرب الكبير من السهولة بالدرجة التي قد يتصورها بعض الناس! وهكذا فبعد حركات الخليفة عبد المومن سنرى أن خلفاءه من بعده سيكون هدفاً للمضايقات سواء من حكام صقلية أو حتى من حكام المشرق !!

1- تاريخ المن بالامامة، تحقيق عبد الهادي التازي، طبعة ثالثة، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1987 ص 70 - 71



علامة الموحّدين : توقيعاتهم عرفت من عهد الخليفة عبد المؤمن

الخلافة الموحدية وباقي ممالك إفريقيا

حرص الموحدون في البداية على الاحتفاظ بصلاتهم مع إمارات إفريقيا الغربية، وظلوا مقتفين لنفس السياسة التي اتبعها المرابطون ولو أن جانباً من الولاة الذين كانوا تابعين للمرابطين استقلوا عن الحكم الموحدي ببعض الأقاليم.

ويلاحظ أن الموحدين كانوا أثناء التنافس الذي يحتدم بين أولئك الولاة الأفارقة لا يتدخلون لفائدة هذا الطرف أو ذاك، الأمر الذي تعبر عنه ظاهرة المهادنة بين الأمراء الأفارقة وبين القادة الموحدين. وقد كان هذا الموقف من الموحدّين إزاء إفريقيا موقفا ليس لهم فيه إختيار فقد كانوا يعيشون فترات جد صعبة في المناطق الحساسة التي كان عليهم أن يضبطوها ...

وقد ضمن الملوك الموحدون كل وسائل والأمن لسالكي الثغور المغربية المؤدية إلى الإمارات الافريقية بما كانوا يحفرونه من أبار، وما يتعهدون به تلك المسالك التي كانت طريقا مأمونا عبره عدد من رجال إفريقيا بمن فيهم التجار ورجال السياسة والعلماء والأدباء وقد كان من هؤلاء إبراهيم بن محمد الذكواني (تـ 609 هـ)

وهو أديب من الصحراويين المتاخمين للسودان. سكن مراكش وأقرأ عددا من الفنون قبل أن يدخل إلى لأندلس ...

كما كان من عيون أولئك الأدباء شاعر آخر ينتسب لكانم من مملكة بورنو (Bornou)، وهو إبراهيم بن يعقوب الكانمي الذي أنشد يعقوب المنصور من شعره [1].

ولعل من المهم والمفيد معاأن يرجع الباحث إلى فقرة هامة أوردها المقري في نفخ الطيب[2] تتعلق بالوضع التجاري في المنطقة على ذلك العهد وبخاصة غانة وإيولاتن (IWALATEN)

وقد كان من نتيجة التنافسات بين زعماء تلك الأقاليم أن تعرضت مصالح الموحدين ومصالح رعاياهم إلى الخطر في بعض المناطق واستهدفت حركة التجارة لبعض المضايقات.

وبهذا نفسر رسالة الاحتجاج التي بعث بها السيد أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، وكان واليا على المدينة العظيمة سلجماسة وأعمالها، [3] تلك الرسالة التي كانت فيما يظهر، جوابا على رسالة وردت على الأمير الموحدي من إحدى ولايات المغرب التي أصبحت في حالة حرب مع بعض الإمارات الغانية ... وقد كانت الرسالة من إنشاء أبي الربيع نفسه على ما يحدثنا به تاج الدين بن حمويه آتى الذكر الذي وقف عليها عندما اجتمع بالسيد أبي الربيع حين قدم إلى مراكش بعد وفاة يعقوب المنصور ومبايعة ولده أبي عبد الله محمد الناصر عام 1198=595

ولقد ألقت تلك الرسالة - على اختصارها - أضواء على العلاقات الموحدية مع بعض جهات إفريقيا الغربية سيما إذا أضفناها إلى الإفادة الدالة التي أوردها الإدريسي عند حديثه عن غانة وموكب ملكها ...

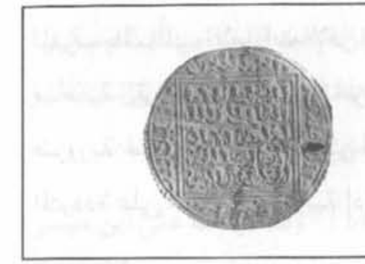
1) التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6،ص 55

2) نفح الطيب ج 5، ص 204 .

3) كان أبو الربيع هذا (ت 604) ولي بجاية في بعض الأعمال الحربية ضد ابن غانية بتونس، وقال الشقندي : إنه من مفاخر بني عبد المؤمن، كان مدربا على النظم حافظا للأدب ... وله ديوان شعر...

د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص157 .

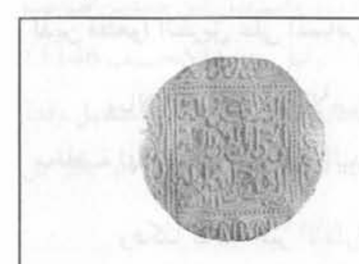
نماذج من العملة المغربية على عهد الموحّدين




من عملة الموحدين

الوجه وسطا : بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله والحمد لله وحده لا إله إلا الله محمد رسول الله.
وفي المحيط : أمير المؤمنين الواثق بالله المرتضى أبو حفص ابن الأمير الطاهر أبي إبراهيم الخليفة.
ونقش في الخلف وسطا : المهدي إمام الإمامة القائم بأمر الله الخليفة الإمام أبو محمد بن عبد المؤمن ابن علي أمير المؤمنين.
وفي المحيط : أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن الخليفة.

عن كتاب المسكوكات الإسلامية البنك العربي المحدود




من عملة بني حفص (الموحدين)

الوجه وسطا :الشكر له والحول والقوة بالله المهدي خليفة الله طرابلس
وفي المحيط :بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد، لا إله إلا الله محمد رسول الله
و في الخلف وسطا : أبو العباس الفضل بن أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر.
وفي المحيط :المتوكل على الله المؤيد بنصر الله أمير المؤمنين.

عن كتاب المسكوكات الإسلامية البنك العربي المحدود 1980





نماذج من العملة المركّنة عن متحف MAFRA بالبرتغال

كما أن الرسالة تكشف عن القوافل التجارية التابعة للخلافة الموحدية التي كانت تربط المغرب بالممالك والإمارات الإفريقية المتناثرة هنا وهناك ... كما تكشف عن تصميم المغرب على مناهضة القرصنة البرية على نحو مناهضته للقرصنة البحرية وحماية تردد تلك القوافل باعتبارها ضرورية لحياة السكان وللتمكن من الاستيطان ... وتهدد في الأخير بحجز القوافل الإفريقية المترددة على الأراضي المغربية إذا لم يجعل حد لتلك المضايقات.

وأخيرا فإن الرسالة الموحدية تؤدي فكرة واضحة عمن تمكن اللغة العربية، في تخوم السودان، الأمر الذي يفصح عنه أسلوب تلك الرسالة الموجهة إلى ملك غانة [1]

وإلى جانب تلك التدخلات السياسية من طرف الموحدين نجد المطاردات العسكرية تلاحق بعض ألئك الذين كانوا يحاولون« تعويق التجار » فتلحق بهم العقاب الرادع، وقد شاهد أبو عبد الله محمد القسطلاني بقصر سلجماسة بمحضر السيد أبي الربيع أنطاعا عليها رؤوس «الخوارج» لذين قطعوا الطريق على المسافرين بين سلجماسة وغانة ...

وبالإضافة إلى هذه الأخبار والإفادات نجد عددا من الطوائف الإفريقية تتجه إلى الموحدين مخلصة لهم الود باسطة لهم اليد ...

وهكذا فكما عبر الأفارقة السود البحر المتوسط بلأمس -مع المرابطين - إلى الأندلس للمشاركة في الحملات العسكرية نراهم اليوم يتهافتون كذلك على ساحات الجهاد دفاعا عن إخوتهم الذين يستنجدون ويستغيثون ... كانت هناك ألاف من الحرس الخلافي السوداني كان أمير المؤمنين يعتمد عليهم بصفة خاصة لحماية (القبة الحمراء) التي هي القصر المتنقل له، وللالتفاف من حوله عندما يبرز هو نفسه إلى ساحة المعركة. وقد شاهدناهم يتساقطون في موقعة العقاب آلافا مؤلفة فداء للخليفة ... بعد أن أسهموا قبلها في المعركة الظافرة بالأرك ...

---

1) د. التازي : اللغة العربية في التعامل الدولي، ندوة علال الفاسي أبريل 1987

موقف الموحدين من الأندلس ...

لم تكن مهمة الموحدين أيضا سهلة بالأندلس سواء على الصعيد السياسي أو العسكري، وقد شهدت الاتصالات نتيجة لذلك - نشاطا كبيرا تجلى في هذا العدد الكبير من الرسل الذين ترددوا على هذا الطرف أو ذاك، كما تجلى في تلك اللقاءات التي تمت بين ممثلي الجانبين.

وهكذا استقبل الخليفة عبد المؤمن سنة 540=1145-1146 وفدا برئاسة علي ابن عيسى ابن ميمون قائد الأسطول الأندلسي المرابط في منطقة قادس الذي قدم طاعته في ضواحي فاس والخليفة يحاصر المدينة، واستقبل كذلك خلال مسيرته إلى سلا رسل أهل سبتة الذين حملوا إليه بيعة أهل المدينة [1] ... استقبل عدداً من زعماء الأندلس الثائرين على سلطان المرابطين من أمثال ابن قسي زعيم المريدين [2] الذي عبر إلى المغرب ولقى عبد المؤمن بعد أن كان مهّد بإرسال بسفيره أبي بكر بن حبيس من ذي قبل، وكان سيد رأي [3] بن وزير صاحب غرب الأندلس (البرتغال) قد تغلب على ا بن قسي المذكور وغلبه على (مرتلة) (Mertola) ... واستقبل ابن حمدين صاحب قرطبة الذي لقي عبد المؤمن تحت أسوار مراكش أثناء حصاره لها (أوائل سنة 541=صيف 1146) واستقبل ابن عزون صاحب شريش الذي ورد في نفس التاريخ لتقديم طاعته ... كما استقبل وفدا ورد عليه في هذه الأثناء من أهل إشبيلية يتألف من شخصيات هامة منها القاضي أبو بكر بن العربي والكاتب أبو بكر ابن الجد وغير هؤلاء من وجوه إشبيلية في ذلك العهد ...

---

1 - البيان المعرب، القسم الثالث تطوان 1960 ص 21 - ابن خلدون، طبعة بيروت ص 485، عنان : عصر المرابطين والموحدين، القسم الأول 259 - 261 .

2 - لقي ابن قسي هذا مصرعه بعد، بسبب استنجاده بملك البرتغال، وقد ألف ابن صاحب الصلاة مؤلفا عن ثورة المريدين. راجع تارخ المن بالامامة لابن صاحب الصلاة سالف الذكر، ص 68 - العبر 6، ص 485 أعمال الاعلام ص 251 .

1) عثرت في يابرة (البرتغال) على عدد من النقائش، وعدد من الآثار التي تردد صدى هذا القائد المغربي الكبير سيدراي (Sidoray) الذي ذكر كثيراً في المصادر الموحدية وخاصة كتاب المن بالامامة لابن صاحب الصلاة وقد ضربت نقود تحمل إسمه،.

لقد أذن لهؤلاء في السلام عليه بالمصلى يوم عيد الأضحى 542=(أول مايه 1148) ثم دعاهم لقصره فدخلوا وتقدم القاضي أبو بكر بن العربي وخطب خطبة بليغة استحسنها الخليفة عبد المؤمن، ثم تلاه الفقيه أبو بكر ابن الجد بخطبة ثانية فأحسن وأجاد، وقدموا إليه بيعة أهل إشبيلية مختومة بتوقيعاتهم فقبلها منهم واستحسن مبادرتهم، ثم أخذ يتجاذب معهم أطراف الحديث فاتجه إلى ابن العربي الذي كان زار بغداد صحبة والده في مهمة سياسية، على ما عرفنا أيام المرابطين، فسأله : هل ما إذا كان اجتمع بالمهدي بن تومرت في مجلس أبي حامد الغزالي ببغداد..

ولابد أن نلاحظ هنا أن تقديم البيعة من هذه الجهة أو تلك لا يعني أن الحديث لم يعد مناسبا عن العلاقات السياسية بين المغرب والأندلس طالما أن الدولة واحدة ... لأن ولاة تلك الأقاليم التي يفصلنا عنها البحر - وهم بتاحمون البلاد النصرانية كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال يسوغ ايفاد الرسل إلى الجهة العليا التي كانت بدورها ترى من واجبها أن تشعر أولئك الولاة -وهم من أعيان البلاد وقاذتها بما يستحقونه من تكريم وعناية تشجيعاً لهم ورفعاً لمعنويتهم.

ولدى سنة 545=1150 وردت على أمير المؤمنين عبد المؤمن - وهو يشيد قصبة رباط الفتح - وفود عديدة من الأندلس بلغت زهاء خمسمائة من الفقهاء والقضاة والزعماء والقادة فأُخذوا لمقابلة الخليفة حيث اجتمع بهم في غرَّة شهر محرم من سنة 446=20 أبريل 1151، وكان أول من تقدم بين يديه وفد قرطبة فشرح قاضيها أبو القاسم ابن الحاج للخليفة ما تعانيه قرطبة من تهديد النصارى وضغطهم، ثم تعاقبت الوفود في السلام والتهنئة فشمل الخليفة الجميع بعطفه وأجزل لهم الصلات ...

ولقد كان لمقدم كل تلك الوفود المتوالية أثرها في إذكاء العزم نحو شؤون الأندلس ومبادرته للتدخل الفعلي لانقاذ الموقف ومساندة أنصار الموحدين الذين أخذ عددهم يتكاثر هناك يوما عن يوم.

وفي أبرز التدخلات السياسية الأولى التي كانت للخليفة في هذا الصدد الرسالة التي بعث بها إلى محمد بن سعد بن مردنيش [1] الذي بسط سيادته على بلنسية ... وكانت الرسالة مؤرخة ب 16 جمادى الثانية 548= (1153) وصادرة عن مراكش،ويظهر منها أن الخليفة عبد المومن يدعو ابن مردنيش إلى الدخول في الدعوة الموحدية [2] ...

وقد وردت من قرطبة سفارة على عبد المؤمن أواخر سنة 552=1158 ليست من نوع السفارات السياسية التي تحمل الرسائل الرسمية ولكنها كانت تحمل هدية سنية ما كان أعزها وأغلاها على الخليفة، ويتعلق الأمر بمصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه. لقد كان يوما مشهودا بمراكش، في ذلك اليوم تسلم الخليفة المصحف الذي صنعت له كلة حمراء وطرز "بالياقوت الأحمر والأصفر والأخضر والزمرد الثمين العجيب" وكان من ضمن الجواهر النفيسة التي تكلله جوهرة تشبه حافر الفرس ذكر أحد الناظمين له أنها - كما في تاريخ ابن صاحب الصلاة - الجوهرة التي كانت عند أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون صاحب مصر والشام [3].

ولقد أمسى عبد المؤمن - بعد استكمال سيادة الموحدين على سائر أقطار المغرب الكبير وبعد إجلاء الروم عن سائر الثغور الإفريقية ... وبعد هذا العدد العديد من السفارات التي وردت عليه من الأندلس - أمسى يشعر بأن هذه الناحية تتطلب المزيد من اهتماماته وعنايته وكانت خطته للأخذ بناصية الأندلس تتضمن، إضافة إلى الحشود العسكرية، وإعداد الأساطيل البحرية إنشاءَ مدينةٍ كبرى بجبل طارق تشرف على القارتين : افريقيا وأوربا ...

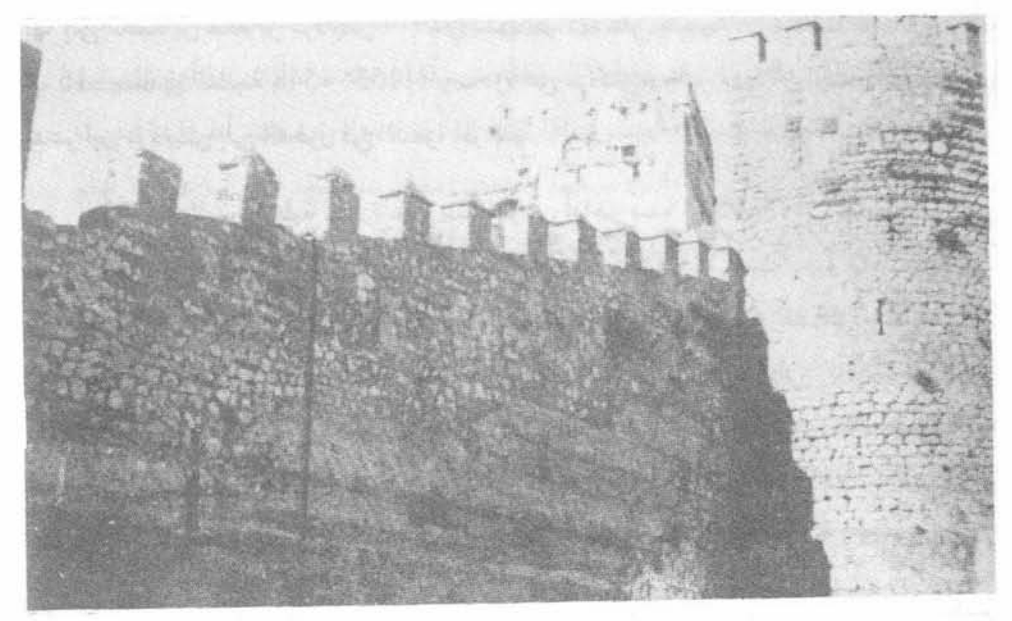
---

1) ترجم ابن الخطيب لابن مردنيش في الإحاطة ترجمة واسعة وكان مما ذكره عنه أنه اتخذ جملة من الجواري فصار يراقد منهن جملة تحت لحاف واحد !! وكان يؤثر في لباسه زي النصارى من الملابس، ويتكلّم بلسانهم، وكان يفرض الضرائب على الأعراس والملاهي، كما يفرضها على الذين يرثون عن متوفى ! وقد استخلص الموحدون معظم ما بيده واضطر ابنه هلال للتسليم.

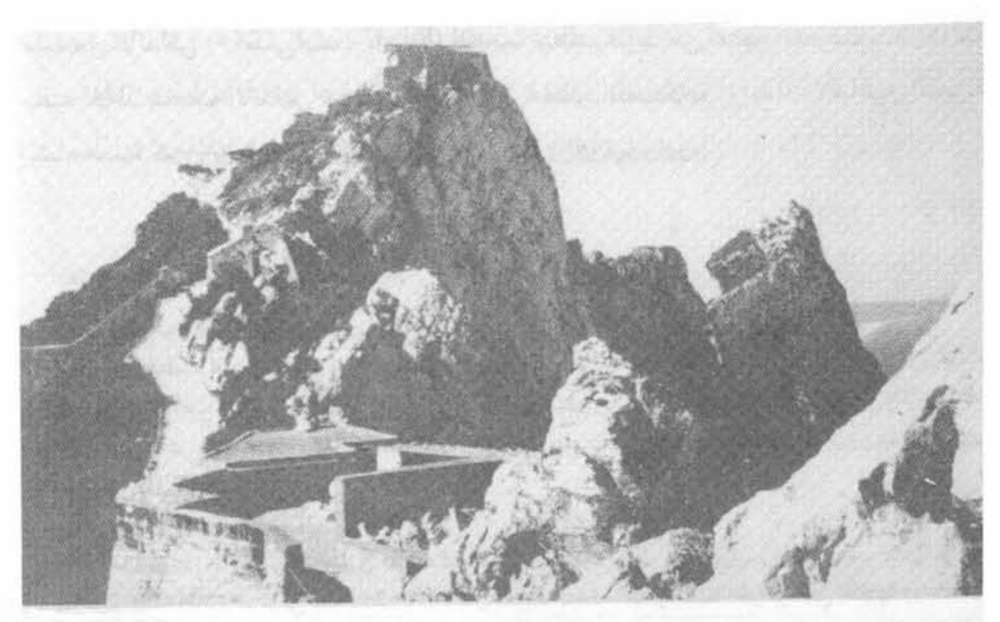
2)رسائل موحدية نشر بروفينصال، ص 35 .

3) الأمير خمارويه أحد أبناء ابن طولون كان ملكا لمصر والشام بعد موت أبيه، بمبايعة الجند له يوم عاشر من ذي القعدة سنة 250=864 وقد توفي سنة 282=895، كان معروفا بتحفه النادرة سيما الجواهر التي خلفتها زوجته ... د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6 ص 32 تعليق 11

آثار الموحدين بجبل طارق



من أقدم المباني الإسلامية بجبل طارق



المباني الإسلامية الأولى في جبل طارق

وهكذا - يقول ابن صاحب الصلاة - "ابتدءوا البناء في الموضع الذي وقع الاتفاق عليه ... وأحكموا فيه بناء القصور المشيدة والديار ...

وقد عبر الخليفة عبد المومن إلى الأندلس فور انتهاء بناء مدينة جبل طارق حيث نزل به في شهر ذي القعدة 555= يناير 1161م، وهناك وجد في استقباله والي إشبيلية ولده أبا يعقوب مع وفد كبير من رؤساء الأندلس وقادتها ... كما وجد في استقباله كذلك والي غرناطة ولده السيد أبا سعيد مصحوبا بأكابر غرناطة وعلمائها إضافة إلى أعيان مالقة ورندة، وقد عهد الخليفة لولده ووزيره السيد أبي حفص بأن يتولى أمر الوفود وينظم تقديمها إلى مجلسه حيث تعاقب الخطباء والشعراء...

وبعد وفاة عبد المؤمن ...

وقد استمر مخطط الموحدين بعد وفاة عبد المؤمن 558=1162 وتولّي ابنه أبي يعقوب يوسف 558-580هـ = 1163-1184م حيث وجدنا أن الخليفة يبعث أخاه السيد أبا حفص الذي عبر قصر المجاز إلى طريف في عشرين ألفا ... ووجدنا أن السيد أبا سعيد يتوجه إلى بطليوس ويعقد اتفاقية صلح مع الفونس ... الذي كان يومئذ أعظم ملوك فرنج الجزيرة [1].

1) الناصري : الاستقصا ج 2، ص 133، طبعة الدار البيضاء 1954.

استفادة الموحدين من خلافات المناوئين لهم

وعلاوة على التصدي للجيوش النظامية التي كانت تناوئ الوجود الموحدي من ملوك النصرانية أو من يسير في ركبهم من الأمراء المسلمين، فقد ظهرت في الأفق الأندلسي عصابات إرهابية مرتزقة من الذين كانوا يعملون لحساب هذه الجهة أو تلك فيتنقّلون من موقع إلى موقع يضربون وينسفون ويحرقون ... وكان في أشهر بعض الأقاليم هؤلاء الارهابيين : الشقي المعروف : جيرالده الجليقي (Giraldo) [1] الذي كان يعيث - صحبة عصابته - في بعض الأقاليم رندة ... وهو ما استدعى تحرك الشيخ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم الذي استطاع أن يلحق هزيمة كبرى بالعصابة، وهو الأمر الذي أخبر به حضرة أمير المؤمنين الذي أجابه برسالة تحمل تاريخ 3 رمضان 563 يونيه 1168 [2]

وقد تميز عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف بحادث طريف يدل على ما وصل إليه الموحدون لدى الممالك المسيحية، فلقد ورد الزعيم القشتالي فيرناندو رودريكيز دوكاسترو (De .F.R Castro) [3] صهر فرناندو الثاني ملك ليون (Léon) الملقّب بالببوج (El BABOSO)، ورد صحبة أخويه إلى إشبيلية في رمضان 563 = يونيه 1168 للاعراب للوالي الموحدي عن رغبته في أن يعقد حلفا عن صهره فيرناندو مع أمير المؤمنين، ويصبح صديقا وحليفا للمسلمين.

وقد بعث الوالي برقاص إلى الخليفة لإحاطته علما بالرغبة المذكورة حيث أصدر الخليفة أمره إلى السفير دوكاسترو بالقدوم إلى مراكش فعبر إليها واستقبله الخليفة بترحاب بالغ وأنزله ومن معه في دار الكرامة وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر محل تكريم وإعزاز "حتى كاد أن يسلم" على حد تعبير ابن صاحب الصلاة، وقد عاهد الخليفة على أن يكون حليف المسلمين المخلص[1].

---

1) أعطى إسم (جيرالدو (Giraldo Sem Pavor) هذا للساحة الرئيسية في مدينة يابرة، ليسمع الناس عن هذا الرجل الذي قدر أن يكون مصرعه في الجنوب المغربي الذي نقل إليه وحاول أن يتآمر منه على المغرب !!

2) ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة، الطبعة الثالثة، ص 275/277

3) المن بالامامة لابن صاحب الصلاة ص 182 - المعجب : ص 182

عنان : عصر المرابطين والموحدين ص 31 ...

4) Juan Vernet, Abd Almalik B, Sahib Al SAlah, par Abdlhadi Al-Tazi Annirio de estudio medicvale, BARCELONA 1967, 4 p .449

فعلا تم عقد الصلح والتحالف بين فرناندو وبين الموحدين وكانت الخصومة تضطرم بين فرناندو المذكور، وبين ملك البرتغال أنفونسو هنريكيز (A.HENRIQUEZ) بالرغم مما كان بينهما من أواصر المصاهرة ... وكان فرناندو أنشأ عدة حصون على حدود البرتغال استعدادا لخوض الصراع الحاسم مع منافسه.

وكانت أولى ثمرات محالفة فرناندو للموحدين أنهم أمدوه بعسكر لمعاونته على قتال الكونت نونيو بيريز دي لارا (P. N. DE LARA) أمير طليطلة والمسيطر على ابن أخيه الملك الصبي الفونسو الثامن ملك قشتالة، وهكذا دخل الموحدون مع قوات فرناندو أراضي قشتالة في حشد بقيادة ابن عزون وابن تيمصيلت، وحاربوا معه ضد خصومه، ثم صاروا معه إلى حدود أسترياس (ASTURIAS) وأقاموا في هذه الغزوة خمسة أشهر ... وقد اغتبط فرناندو ملك ليون بمؤازرة الموحدين ونجدتهم، وقطع على نفسه العهد الوثيق بأن يبادر إلى القتال مع أمير المؤمنين ضد النصارى الذين يعتدون على أراضيه ولا يتوانى أبدا في ذلك وأقسم على ذلك في كنيسة بلده !!

وفي مقابلة ذلك العون الذي أسداه عاهل المغرب لملك ليون - تنفيذا للحلف الذي يوجد بين الطرفين - نجد ملك ليون يسير بقواته في إثر ملك البرتغال عندما خطط هذا لغزو بطليوس القاعدة الإسلامية ...

وهكذا هب لانجاد الموحدين المحاصَرين في المدينة من طرف جيوش الفونسو هنريكيز ... ولما اقترب من المدينة بعث سرا رسوله إلى ابن تيمصيلت والي المدينة المحاصرة يحمل إليه بشرى تخبره بأن ملك ليون في طريقه إلى إنجاد بطليوس، وتطلب إليه أن يدل الرسول على الطريق الذي يمكن أن يسلكه لاقتحام المدينة ... وقد بعث ابن تيمصيلت فعلا بعض رجاله إلى مكان خفي من بعض أسوار القصبة لم يفطن إليه البرتغاليون، وهكذا تضافرت جنود الموحدين وجنود ليون على مقاتلة القوات البرتغالية داخل المدينة، وانتهى الصدام إلى تمزيق صفوف البرتغاليين واضطر ملكهم الفونسو هزيكيز إلى الفرار، لكنه عندما أراد أن يقتحم باب المدينة وهو في منتهى الارتباط والذعر اسطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب بشدة فقط من فرسه وقد كسرت ساقه وأغمى عليه، وأسر الملك الجريح !لكنه عومل بمنتهى الكرم والشهامة حيث عهد إلى الأطباء بمعالجته وأطلق سراحه [1].

1) ابن صاحب الصلاة، ص 314-315 .

وفي أعقاب خلاف بين ابين مردنيش وصهره ابن همشك Hamusco رأينا أن هذا يجنح إلى قرار ثويته باستسلامه وعرض خدماته على الموحدين ! وكان ذلك في رمضان سنة 564 (يونيه 1169) .

ولم يلبث أن عبر ابن همشك بنفسه البحر إلى العدوة قاصدا الخليفة بمراكش سنة 565=1170 حيث تشرف بالاجتماع إليه مؤكدا طاعته ومكررا صريخه ضد خصمه ابن مردنيش ! فأحسن الخليفة قبوله وأوعز بقضاء أغراضه، وهكذا اتصلت جيان وبقية القواعد التي كانت بيد ابن همشك بأراضي الموحدين في أواسط الأندلس [1].

وقد استدعى تمرد سكان لورقة على ابن مردنيش وتعلقهم بالموحدين اتصالات وتوسطات قبل أن تستسلم حاميتها أمام جيوش الموحدين كما استدعى قيام ألمرية وصول وفود إلى الأمير الموحّدي وإنجاد القائمين ضد خصوم الموحدين هناك. ولم ينس البرتغاليون هزيمتهم في بطليوس فأخذوا يعدون العدة لإرهاقها والاستيلاء عليها ... ولما كان الموحدون يتوفرون على جهاز قوي للاستخبارات، فقد وصلتهم أصداء تحشدات البرتغاليين للسيطرة على بطليوس. وهكذا جمع الموحّدون قوتهم واتجهوا نحو المدينة، واتفق أن سمع بتلك التحركات حليفهم فرناندو الثاني ملك ليون فقصد المدينة بدوره للاستيلاء عليها ....

وهنا بعث الموحدين سفيرين إثنين إلى ملك ليون : أبو محمد سيدراي بن وزير وأبو العلاء عزون، وكان القصد من السفارة الموحدية التعرف على تيات فرناندو الذي أكّد أنه إنما خرج لحماية بطليوس "وإمساكها لأمير المؤمنين" وقد أكد هذا عندما تم اللقاء مع الأمير الموحدي وتكلم أبو محمد سيدراي ابن وزير وأبو العلاء عزون مع ترجمان فرناندو بما يدعم الصلح وكان هذا في ربيع الأول من عام 565=نونبر 1171[2].

1) ترجم ابن الخطيب في الإحاطة لابن همشك فذكر أنه من أصل رومي وأن جده أسلم على يد أحد ملوك بني هود ، وقد كان من أمر ابن همشك أن طلب اللجوء إلى المغرب عام 571=1175 حيث سكن مدينة مكناس إلى أن أدركه أجله بها ...

2) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة، ص 315 .

الجواز الأول للخليفة أبي يعقوب يوسف إلى الأندلس

كل الأخبار التي كانت تصل إلى مراكش كانت تحمل الخليفة على أن يفكر في العبور إلى بلاد الأندلس حيث وجدناه ينهض إليها في مائة ألف من الموحدين ومن العرب الذين استقدمهم... فاحتل قرطبة سنة 567=1172 ، ثم ارتحل بعدها إلى إشبيلية حيث شهدت المدينة استقبالات على أعلى مستوى.

وفي هذه الأثناء أدرك أبناء محمد بن سعد بن مردنيش، أن لا أمل مع الموحدين في المزيد من المقاومة، فبادر ولده الأكبر هلال بإعلان طاعته وبالتخلي عن مرسية، وقد تقبل الخليفة هذه البادرة فورا ووجه أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية لتسلم مفاتيح المدينة ... ثم سار هلال بنفسه إلى إشبيلية عقب شهر شعبان ومعه أكابر إمارة الشرق الأندلسي حيث خصص لهم الخليفة نفسه أجمل استقبال بالقصبة العتيقة،وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بمحضر السادة وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر.

ثم أنزلت الوفود بقصر ابن عباد والدور المتصلة به، وفي اليوم التالي قدم قادة الشرق وأجناده، بيعتَهم وطاعتهم وأبدوا رغبتهم إلى الخليفة في أن يقوم بغزو من جاورهم من بلاد النصارى وعينوا مدينة (وبذة) كهدف أول للغزو[1].

وعندما كانت الجيوش الموحدية تضرب حصارها على (وبذة) شمال شرقي طليطلة وتصنع السلالم والأبراج الخشبية استعدادا للهجوم، ورد مبعوث من النصارى المحاصَرين يعلن عن الرغبة في الأمان في مقابلة تسليم المدينة، فرفضت مطالبه !

---

1) ابن صاحب صلاة ص 381 .



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين وسلم تسليما

تعليمات إلى رئيس الأسطول الموحدي عبد الله بن سليمان
تلاحظ علامة الموحدين في رأس الظهير (المرسوم الملكي)

لهذا فقد اكتفوا بالحصار وأمروا بحرق البرج والآلات المصنوعة للقتال، كما أمروا بشحن النواقيس التسعة التي اقتلعت من الكنائس هناك استعدادا لأخذ طريق العودة !!

وقد أدرك النصارى أن موجة الغزو الموحدي قد تشتد فقرروا العدول عن المقاومة، وكان أول من سعى منهم إلى الصلح الكونت نونيودي لارا (Nuno de Lara) حاكم طليطلة، ثم تلاه ألفونسو الثامن ملك قشتالة فبعث بسفرائه إلى الخليفة أبي يعقوب، وحدا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حدو ملك قشتالة فبعث برسله كذلك في طلب المهادنة والصلح، واستمرت المفاوضة نحو الشهرين، وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصارى، وكان ذلك في شهر ذي الحجة من عام 568=يوليه 1173 وقد كان مما حمل الخليفة على إيثار الصلح رغبته لأعمال الإنشاء وتعزيز المواقع ...

الجواز الثاني للخليفة ابى يعقوب

وكان الجواز الثاني للخليفة لهدف غزو البرتغال، وهكذا نزل بجبل طارق قبل أن يقصد إشبيلية التي نهض منها إلى غزو مدينة شنترين حيث حاصرها إلى ليلة 22 ربيع الأول 580هـ=3 يوليه 1184 . وفي هذه الأثناء أصدر أمره لولده السيد أبي إسحاق صاحب إشبيلية بغزو لشبونة، ففهم أبو إسحاق أن الأمر عاجل، فرحل بالجيش ... وبقي الخليفة مكشوفا فنعرض للهجوم بشنترين وأصيب بجراح أدت إلى وفاته يوم العاشر من ربيع الثاني 580=1184 حيث تولى الحكم ولده أبو يوسف يعقوب المنصور.

الفصل الثاني

- الجواز الأول للخليفة أبي يوسف يعقوب للأندلس
- معركة الأرك 591=1194
- حديث المؤرخين والشعراء عن المعركة
- المعالم الثلاثة : الكتبية بمراكش - الخيرالدا باشبيلية - حسان بالرباط
- افتتاح الجزر الشرقية (الباليار) 599=1203
- قمة بين الخليفة الناصر وملك ليون
- نكسة العقاب المشؤومة 609=1212

الجواز الأول لأبي يوسف للأندلس

وانتقاما لوالده اتجه أبو يوسف يعقوب المنصور أواخر المحرم سنة 586=أوائل مارس 1190 نحو الأندلس ... ووصل إلى قرطبة في حشود كثيرة من العرب والموحدين.

واستمر الموحدون على مسيرهم إلى قرطبة ... فأخذوا منها أزوادهم ثم نهضوا منها إلى أن أجازوا وادي تاجو ... وقصدوا شنترين وتناولوا بالإحراق والتخريب منازلها وربوعها ...

ولقد ظهرت براعة الخليفة يعقوب المنصور في أنه إستطاع أن يتجنب لقاء خصومه مجتمعين، وأنه تمكن من الانفراد بهم واحداً بعد الآخر، وهكذا وجدناه يحالف ملك قشتالة وملك أراغون كي يتفرغ لمحاربة ملك البرتغال ! ثم رأى بعد ذلك أن يتحالف مع ملوك ليون ونافارا وأراغون كي ينفرد بملك قشتالة في ميدان المعركة ..!

وقد شرح المنصور نفسه هذه السياسة مع خصومه في خطاباته الرسمية التي وجهها إلى سائر رعاياه شارحا فيها هذه المواقف من الممالك المسيحية ...[1].

وقد تحدث ابن عذاري في (البيان المغرب) عن استرجاع مدينة (شلب) من حوزة البرتغال سنة 587=1191...[2].

معركة الأرك 591=1194

وبينما كان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور يتأهب لأخذ طريق إفريقية وصلته الأخبار من ولاة الأندلس تؤكد أن اتفاقية الهدنة التي عقدت مع ملك قشتالة عام 586=1190 قد انتهى أجلها، وأن ملك قشتالة قد بعث إلى جميع الثغور الإسلامية الواقعة على حدود مملكته ينذرها بذلك، وأنه بعث أقماطه وقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يغيرون عليها ويثخنون فيها حتى بلغت غاراتهم أحواز إشبيلية ..!

---

1) ليفي بروفينصال : رسائل موحدية ص 218 - 222 .

2) - البيان المغرب القسم الثالث .

وهنا تقرر الاتجاه إلى الأندلس بدل إفريقية ... الأمر الذي تناهت أخباره إلى ملك قشتالة الفونسو الثامن فأخذ يستعد على أوسع نطاق وبعث إلى زميليه ملكي ليون ونافارا يطلب العون والمساعدة.

وكانت موقعة الارك (ALARCOS) الشهيرة في 9 شعبان 591=18 يوليه 1194، تلك الوقعة التي انتصر فيها المنصور الموحدي انتصارا ساحقا على الملوك الذين واجهوه وخاصة خصومه القشتاليين الذين لاذوا بأذيال الفرار إلى طليطلة، ولقد سلى هذا النصر المبين الخليفة أبا يوسف يعقوب الذي شعر بالاعتزاز والفخر وهو يضيف هذه المأثرة إلي مآثر جده عبد المؤمن ووالده الشهيد يوسف ... لقد بلغ من غرور الفونسو الثامن أنه - كما يقول الضبي - صحب معه عدداً كبيرا من تجار اليهود لاشتراء أسرى المسلمين ...[1].

حديث المؤرخين والشعراء عن المعركة

عودنا ابن عذارى على النقل من ابن صاحب الصلاة فيما يتصل بالعهد الموحدي، ولو أنه كان شحيح الذكر له بالنسبة للآخرين !! وهكذا وبعد أن يأتي بمقارنة بين وقعة الزلاقة في يوم الجمعة 12 رجب 479= وبين وقعة الأرك يوم الأربعاء 9 شعبان 591= يذكر أن هذه الوقعة جاءت كأكلة جائع أو شربة عاطش، فأنست كل فتح بالأندلس تقدمها وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها..!

ولما وصل الخليفة المنصور إشبيلية بعد تحقيق النصر وصلت وفود من سائر بلاده ومنتهى طاعته بالتهاني من النظم والنثر فقال المنصور : الفتح أعظم من الإطناب في وصفه !!

ولم يحفظ عن الشعراء حول هذا النصر مقال إلا ما كان للشاعر أبي العباس الجراوي الذي قال شعرا يبتدئ هكذا :

---

1) ابن عذاري : البيان المغرب ج 4، ص 39 .

هو الفتح أعْيَى وصفُه النظم والنثرا
وعمت جميعَ المسلمين به البشرى!

وانبسط المنصور انبساط من بلغ اماله فأكد العزم في بناء الجامع الكبير وتتميم مناره[1]... وسرح الجموع والقبائل والأجناد، ونبههم على أن يكونوا على أهبة واستعداد لمعاودة الجهاد.

وقد قصد سفراء الفونسو الثامن بعد ذلك، إلى الخليفة عندما وصل إلى مملكة قشتالة، يطلبون المهادنة وعقد السلم، ولكنه صرفهم من غير جواب [2].

وقبيل مغادرة المنصور لاشبيلية وفدت مرة أخرى عليه رسل من ملك قشتالة في طلب المهادنة والسلم فرأى الخليفة - على ضوء التطورات المستجدة - أن يجيبهم سنة 594=1198 إلى رغبتهم. ويقول المراكشي في المعجب :إن أمير المؤمنين وصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط ورجع إلى إشبيلية فأرسل الأذفونش إليه يسأله المهادنة فهادنه إلى عشر سنين[3].

وتحكي بعض كتب التاريخ أن أهل طليطلة لما شعروا بأن المنصور عازم على استرجاع المدينة، اجتمعوا بوالدة الأذفونش وعهدوا إليها بمهمة الخروج بنفسها صحبة بنات الأذفونش ونسائه للتطارح أمام الخليفة المنصور والبكاء بين يديه والتوسل إليه ... وقد نجحت هذه "السفارة الباكية" في استدرار عطف الخليفة المنصور، فرق لحالهن، وتكرم عليهن بترك طليطلة بل ووهبهن من الأموال والجواهر ما جل، وردهن مكرمات "وعفا بعد المقدرة" على حد قول المؤرخين [4].

1) هو ما يسمى اليوم الخيرالدا بعد أن قطع رأس المنار ...
2) البيان المغرب، القسم الثالث، ص 202- 203 .
3) المراكشي : المعجب، الطبعة السابعة 1978، ص 406 - 407 .
4) نفح الطيب :الاستقصا 2، 172 - 173 .

وفي خلال حملة المنصور الموحدي ضد أراضي قشتالة بعث ملك ليون وهو الفونسو التاسع سفارة إلى الخليفة المذكور، ترجوه - على لسان الملك - أن يعاونه ببعض قواته على غزو قشتالة، فاستجاب الخليفة لرغبة السفارة لما كان من سالف موقف الملك أثناء معركة الأرك ... وفي نفس الوقت أغار سانشو السابع ملك نافارا من جانبه على أراضي قشتالة المتاخمة له !

وهناك رسالة موفوعة من إشبيلية من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى الطلبة الموحدين بفاس وعملها بتاريخ تاسع رمضان 592=6 أبريل 1196 يتحدث فيها عن الانتصارات التي حققها الموحدون.. [1].

المعالم الثلاثة !

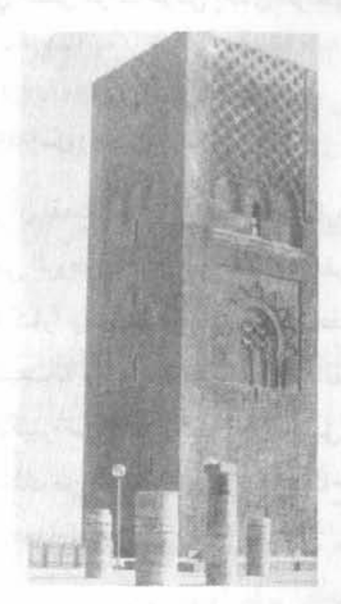
الكتبية بمراكش

كل الزوار الذين يتقاطرون على الغَرب الإسلامي من مختلف جهات العالم يرفعون بأبصارهم ليشهدوا شموخ منارة الكتبية في مدينة مراكش والخيرالدا في إشبيلية! وحسان في مدينة الرباط، ومعظمهم ينتبه إلى وحدة التصميم في المنارات الثلاث وإلى ما تعرب عنه تلك "الوحدة"، سواء أكانت في القارة الأوربية أو القارة الإفريقية من طموح وما تدل عليه من بعد نظر ...

لقد كان تشييدها جميعا بمثابة أداء الشكر لله من لدن الموحدين على ما أنعم عليهم من نصر عندما تمكنوا من مراكش عاصمة المرابطين خصومهم السابقين (553=1158)، وعندما أخذ الأمراء والملوك يتطارحون عليهم في إشبيلية عام 567=1172 طالبين الأمن والسلام، أو عندما كانوا في طريقهم عام 590=1194 إلى غزوة الأرك الظافرة ...

1) رسائل موحدية ص 228 - 229 .

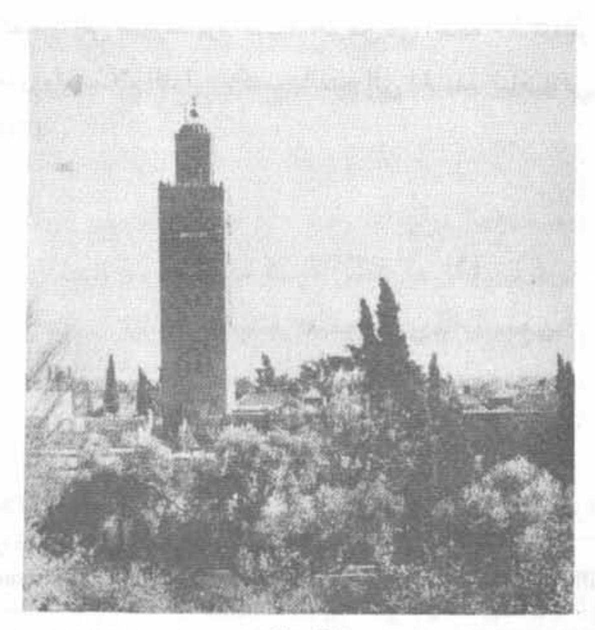
المعالم المغربية الثلاثة كانت تخليداً للنصر في موقعة الأرك



حسّان



الخيرالدا



الكتبية

ومن السهولة أن نعرف عن علو هذه المنارات إذا ما عرفنا أن الهندسة الموحدية كانت تعتمد على أن علو الصومعة - بما فيها قمتها - يساوي خمس مرات عرض إحدى الواجهات الأربعة للصومعة ...[1]

مع الأندلس أيام الخليفة الناصر ... 595-610=1198-1213

لقد كان في صدر اهتمامات الخليفة الناصر أن يقصد الجزر الشرقية (الباليار) وهكذا فقد أعد أسطولا ضخما يتألف على ما يقول الحميري في الروض المعطار من ثلاثمائة جفن : (سفينة) منها سبعون غرابا وثلاثون طريدة وخمسون مركبا كبارا وسائرها قوارب منوعة، هذا إلى القوى البرية التي كانت تتألف من ألفي ومائتي فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألفا من الرجالة غير غزاة القطع البحرية، تضاف إلى هذا الكميات الكبيرة من العدد والسلاح والمجانيق والسلالم... ومختلف الأدوات من الفؤوس والمعاول والحبال وكذلك من الدروع والسيوف والرماح ... وكانت الحملة بالأخص مزودة بكميات وافرة من الطعام استعدادا لاحتمال طول الحصار [2].

وأقلعت الحملة من ثغر دانية أواخر سنة 599=1203 فوصلت إلى جزيرة يابسة إحدى الجزر الشرقية ... ثم قصدوا إلى ميورقة يوم السبت 24 من ذي الحجة = 3 شتنبر 1203، وكان مصرع عبد الله بن إسحاق واستسلام الثوار، وكتب بالفتح إلى الخليفة الناصر في شهر ربيع الأول سنة 600 = دجنبر 1203 .

1) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة، تحقيق عبد الهادي التازي، طبعة ثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987 ص 390 المراكشي : المعجب، طبعة سابعة 1978 ص 384 .
Jacques Cailé : La ville de Rabat V. 1, P. 153-174 Gaston Deverdum : Marrakech 1959, P. 172-181.

2) الروض المعطار في خير الأقطار للحميري، تحقيق إحسان عباس، بيروت 1975، مادة ميورقة.

ولقد كان لهذا الفتح وقع عميق لدى الممالك النصرانية القريبة، كما كان أثره على جمهورية جنوة وجمهورية بيزة وما جاورهما من البلاد التي كانت تربطها علاقات بميورقة. إن أصداء فتح ميورقة زعزعت قشتالة كذلك، الأمر الذي قد يفسره وصول السفير القشتالي إبراهيم ابن الفخار اليهودي إلى مدينة مراكش سنة 600=1204 يحمل تحايا الفونسو التاسع ملك قشتالة ويطلب تجديد المهادنة !

وتحتفظ المصادر التاريخية بنص الرسالة التي أمر بكتابتها الخليفة الناصر حول الجزر الشرقية [1].

وهكذا انتهى تشغيب بني غانية في المغرب الأدنى أيضا بعد سنوات من المتابعة التي كانت تسبب الخراب والدمار ... وعادت المنابر هنا وهناك تردد إسم الخليفة الموحدي وليس الخليفة العباسي أو أي إسم آخر[2].

ومعلوم أن مسلمي صقلية تلقوا بشائر انتصارات الأسطول الموحدي بقلوب مغمورة بالأمل، فقرروا أن يبعثوا بوفد تهنئة عنهم سنة 607=1210 إلى تونس حيث استقبلهم الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص وكان المسلمون في صقلية يخطبون باسم الخلفاء الموحدين [3].

وفي إطار تلك الاستعدادات لعبور جديد إلى الأندلس وجدنا الخليفة الناصر يقوم بحركة تعيينات جديدة.

وهكذا وجدناه يهتم بجهاز وزارة الخارجية - إذ صح هذا التعبير - الأمر الذي نراه يتمثل في تعيين أبي الجيش محارب، لكل ما يتصل بأرسال ملوك الروم والاشتغال بإنزالهم وتضييفهم والترجمة عنهم عوض ابن عوبيل الذي كان مكلفا بذلك من ذي قبل ...

1) مجموع رسائل موحدية نشر بروفينصال ص 241 - 248 .

2) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 82 - 83 .

3) الحميري : الروض المعمار؟؟ التازي : الموجز في تاريخ العلاقات 50 ابن عذارى : أحداث 607

كما وجدناه يعهد إلى عمه السيد أبي العلاء (الكبير) قائد أساطيل البرين بالتحرك إلى بلاد برشلونة بجميع قطع أسطول العدوة والأندلس ... بيد أن هذا التحرك الخاطف لم يؤت ثمرته في التنبيه والتأديب حيث وجدنا أن الخصم يقوم بالاستيلاء على حصون بلنسية [1] عندها وصلت إفادات من عيون هذا الإقليم الشرقي في الأندلس تستصرخ بالخليفة لما لحقها من عيث المغيرين البرشلونيين في بلادهم ...

وقد رأى الخليفة أن من الواجب عليه أن يقصد إلى الأندلس ليخفف عن المضطهدين هناك، وهكذا انطلق الجيش الموحدي هذه المرة من قصر المجاز إلى ساحل طريف يوم الإثنين أول من ذي الحجة 607=16 مايه 1211. وباستهلال سنة 608=1211 أخذ الخليفة في استنفار الحشود وصنع الآلات الحربية.

وقد خلفت هذه التحركات أصداء مدوية في المنطقة "واهتزت جميع بلاد الروم، ووقع خوفه في قلوب ملوكهم"، حيث وجدنا الناصر يستقبل عددا من الوفادات، ويتلقى عددا من الرسائل من معظم أمراء الروم يسألونه السلام.

مؤتمر قمة بين ملك المغرب وملك ليون

وإذا كانت المصادر تخذلنا لإعطاء تفصيلات عن تلك الحركات الدبلوماسية المكثفة التي شهدها قصر إشبيلية في مطلع هذه السنة، فقد احتفظ لنا ابن أبي زرع بلقطات جميلة المنظر للاستقبال الضخم الذي خصصه الخليفة الناصر لأحد أمراء الأندلس، ويتعلق الأمر بملك بيونة (Bayonne) أو على الصحيح صاحب ليون كما يقول ابن خلدون [2].

1) البيان المغرب ص 234 .

2) لفظ بيونه قريب من ليون، ابن خلدون : المجلد 6 طبعة بيروت، ص 522 .

لقد أرسل ملك ليون بمبعوث له يستأذن الخليفة في القدوم إليه بكل حاشيته، الأمر الذي رحب به الناصر الذي نراه يأمر بتحرير خطابات إلى سائر ولاته من الذين تقع ولاياتهم على طريق مرور ملك ليون...

كانت تعليمات العاهل المغربي تتلخص في الأمر باستضافة ملك ليون ثلاثة أيام في كل ولاية، وعندما يعزم على مغادرة الولاية يترك من جيشه الذي صحبه ألفاً في تلك الولاية، وهكذا تمت الاستقبالات على أحسن وجه ... ولم يزل جيش ليون ينقص بمروره على الأقاليم حتى وصل إلى قرمونة (Carmona) حيث كان عليه أن يترك الألف الباقية ! وهنا تساءل : كيف أسير إلى الخليفة بدون حرس ؟ فأجابوه : إنك في ذمة أمير المؤمنين وتحت ظلال سيوفه ...

وخرج من قرمونة في خاصته ومعه زوجته وخدامه وهديته التي كان في أبرز موادها نص خطاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم ...

لقد كان وصف الاحتفال رائعا ومثيرا على ما نقرأه في (الأنيس المطرب). وقبل أن يتم اللقاء استمزج العاهل المغربي رأي الترجمان حول الطريقة التي يستقبل بها الخليفة ملك ليون والتي لا تخل بمقام أي منهما ...

وبعد أن تم وضع البروتوكول لهذا الاستقبال تم اجتماع القمة في خيمة حمراء نصبت في العراء ...

وبعد هذا اللقاء تحرك الموكب إلى مدينة إشبيلية ... حيث تبودلت الهدايا وأبرم الصلح بين الطرفين لفترة بقاء الموحدين ... [1]

1) البيان المغرب ص 238 - 239 - 240 .

نكسة العقاب المشئومة !

لكن الأحوال لم تلبث أن تطورت إلى وقعة العقاب [1] المشؤومة التي قصمت ظهر المسلمين في الأندلس "وكانت أول وهن دخل على الموحدين فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة"! على حد تعبير صاحب الروض المعطار ... لقد وقعت بتاريخ الإثنين 15 صفر 609 = 17 يوليه 1212 .

لقد خرج أمير المؤمنين - يقول المراكشي وهو مؤرخ معاصر - فالتقى هو والأدفونش بموضع يعرف بالعقاب بالقرب من حصن يدعى حصن سالم فعبأ الأدفونش جيوشه ودهم المسلمين وهم على غير أهبة، فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير فيهم عدد من العلماء والمحدثين ممن وقعت الإشارة إلى بعضهم في كتب التراجم[2].

وأكبر أسباب الهزيمة - يقول المراكشي - تغيّر قلوب المجاهدين، وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن يأخذون العطاء ... فخرجوا وهم كارهون فبلغني عن جماعة فيهم أنهم لم يسلوا سيفاً ولاشرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الأفرنج عليهم قاصدين لذلك !

فعلا لقد وردت على قشتالة حشود عظيمة من المحاربين الصليبيين هرعوا من جميع أنحاء أوربا ... زهاء سبعين ألف مقاتل تتألف من جيوش قشتالة وأراغون وناڤارا ومن جليقية، والبرتغال، وقد تلقى ملك قشتالة فوق ذلك، مقادير عظيمة من الأموال والسلاح والمؤن أرسلت إليه من عدة أنحاء، ولم يأت شهر يوليه 1212=ذي الحجة 608 حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس ومائة ألف من الرجالة !وقد أمر البابا إينوصانت الثالث بالصوم ثلاثة أيام وأقيمت الصلوات العامة التماساً للنصر ... [3].

---

1) يختلف الناس في طريقة شكل العين، فإن نسخة القرطاس المطبوعة على الحجر تشكل العين بالضم، والمعنى بهذا على نحو المعنى في تسمية حصن النسر، وفي الروض المعطار ضبط العين بالسكر على اعتبار أن العقاب جمع عقبة، والمكان فعلا كثيرا العقبات وهو يحمل هذا الإسم بالاسبانية navasالذي يضاف إلى إسم الموقع : تولوز TOLOSAوفي الناس من يشكله بالكسر على اعتبار أنه من العقاب والجزاء.

2) د. التازي : الطب النبوي بين المشرق والمغرب، مطبعة دار المعارف الجديدة 1420=2000 ص 63.

3) أشباخ تاريخ الأندلس، ترجمة عنان ص 360 - 361

لقد كان الموحدون لا يواجهون فقط ملك قشتالة ولكنهم كانوا يواجهون عددا من الملوك وطائفة من الدول، وانضاف إلى هؤلاء وأولئك راهب رومة كما قلنا، وهكذا تألبت السياسة النصرانية الدولية، وكذلك عناصر الغدر والخديعة، لضرب الخلافة الموحدية الأمر الذي تفسره الرسالة الرسمية التي بعث بها الناصر - قبل أن يتوفاه الله بسبب ورم خبيث في دماغه - إلى مختلف قواعد المغرب والأندلس أواخر صفر 609=31 يوليه 1212 - تلك الرسالة التي يروي فيها الخليفة قصة استعدادات الفونسو الثامن وبثه القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر ... فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق [1]... وهي الحروب التي قضى الله أن تكون سجالا، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالا ... ثم يقول في ختام رسالته : "وإذا كانت - وفقكم الله - الجيوش موفورة، والرايات منشورة، والعزائم باقية وكفايات الله وافية فلا تَهِنُوا فإنا لانهن وانتظروا الكرة على الكفار، والإمداد عليهم بجند الله الذين هم خير الأنصار، فما كان الله ليترك المؤمنين..."

وإذا كانت سجية الشعراء والكتاب قد انطلقت في وقعة : الزلاقة، ووقعة : الأرك، فإن اللسان قد احتبس في وقعة العِقاب، وهكذا فبالإضافة إلى الحديث المحزن الذي قرأناه عنها في مختلف المصادر العربية التي لم يتردد بعضها كالروض المعطار في نعت خطاب الناصر بأنه من "الزخرف الكاذب"! بالإضافة إلى ذلك قرأنا للشعراء من يشير إلى أن الانهزام هو عقاب من الله للراعي لإخلاله بواجبه نحو الرعية.!!

1) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب 1406 = 1985، قسم الموحدين، ص 265
د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6 ص 93/94 .
ويسى ميراندا : المعارك الكبرى لحرب الاسترداد (بالاسبانية) مدريد 1956، ص 219 - 227 .

الفصل الثالث

علاقة الموحدين بالأندلس بعد وقعة العِقاب

- العلاقات أيام المستنصر ومحاولات لارجاع الثقة بين المغرب وقشتالة
- العلاقات أيام العادل والعودة إلى المناوشات
- العلاقات أيام المامون : والاحتماء بقشتالة لحكم البلاد !
- التذمُّر من صنيع المامون وبداية الانهيار
- سقوط الجزر الشرقية 627=1230
- العلاقات أيام الرشيد وسقوط قرطبة وبلنسية
- العلاقات أيام السعيد وسقوط مرسية
- العلاقات أيام المرتضى وسقوط اشبيلية الانفصالية وتوالي الحركات
- العلاقات بين المغرب وبين أراغون

علاقة المغرب بالأندلس بعد وقعة العقاب

العلاقات أيام المستنصر 610-620=1213-1223

قد كان أول إتصال لأمير المؤمنين الموحدي يوسف (الثاني)/المستنصر) هو الذي حدث سنة 612 = 1215 حينما وصله إلى حضرة مراكش سفير من الوصية على عرش قشتالة، الدونا بيرينكويلا Beranguela، وكان السفبر هو الوزير إبراهيم بن الفخار الإسلامي، وقد ورد برسم عقد مهادنة وسلام مع الخليفة الجديد الذي رحب بهذه الرغبة، حيث نجده يوجه كتابين إلى الأندلس: أحدهما إلى السيد أبي الربيع والي جيان، والثاني إلى الشيخ أبي العباس بن أبي حفص والي قرطبة، يأذن لهما في عقد التهادن والسلم مع ملك قشتالة وفقا للشروط التي اتفق عليها بين الخليفة وبين ابن الفخار، والتزم السفير القشتالي بذلك عن مليكه [1]. وكان عقد السلم مع قشتالة على هذا النحو خطوة طيبة حققت فترة من الهدوء والسلام وأعطت نفسا جديدا للموحدين لتنظيم شؤونهم.

ولكن هذه الهدنة لم تشمل سائر الممالك الاسبانية النصرانية، ومن ثمَّ فقد جرت سلسلة من الاعتداءات كان من نتائجها أن فقد المسلمون طائفةً جديدة من الحصون والمواقع ...

---

1) ابن عذاري : البيان المغرب، القسم الثالث ص 244 .

وفي الوقت الذي رأينا فيه المستنصر يقوم بتوعية لأبناء الأمة ويبعث سنة 617 = 1219 رسائل إلى القواعد المغربية والأندلسية على نهج ما فعل جده عبد المؤمن في رسالته «المشهورة» وفعله خليفته «يوسف الأول»[1] وجدنا الطرف الآخر يقوم بالتدخلات لدى الملوك المسيحيين ليذكرهم بتعهداتهم والتزاماتهم على نحوما كان يأمر به نوابه الذين تحدثهم نفسهم بنقض المواثيق!

وفي هذه الأثناء حدث أيضا أن قدم 618 = 1220 سفير قشتالة إلى مراكش مرة أخرى مُلحاً في تجديد المهادنة والسلم ... حيث كتب وزير المستنصر، إلى ملكة قشتالة وطليطلة [2] خطابا بما أبرم بينه وبين رسولها من عقد السلم وكان مؤرخا يوم 6 رمضان 618 = 24 أكتوبر 1221...[3]

وقد وجدنا رسالة من - السيد أبي زيد عبد الرحمن والي بلنسية إلى أمير المؤمنين المستنصر الموحدي حوالي سنة 620 = 1223 من إنشاء ابن عَميرة وقد كان موضوعها إخبار الخليفة بقدوم أحد زعماء أراغون واسمه بْلاَسْكو [4](Plasco de Aragon) إلى بلنسية مغاضبا لأهل مملكته ومستأذنا في الوفود على الخليفة بمراكش، مع الإشارة إلى أن هذا الزعيم كان وصيا على خايمي ملك أراغون ...[5]

---

1) كانت الأولى من إنشاء أبي جعفر بن عطية سنة 543 هـ والثانية من إنشاء أبي الحسن بن عياش سنة 561 وقد جاء في هذه الرسالة الثالثة «إذا أصلح المرء جُوانيَّه أصلح الله برانيَه ...»!

2) هي الملكة بيرينْگويلا سالفة الذكر مطلقة ألفونسو التاسع، وكانت تتولى الوصاية على ابنها الصبي فيرناندو الذي رزقته من الفونسو.

3) البيان المغرب، القسم الثالث ص 246 .

4) تردد مصحح (الصبح) في قراتها ... بينما أضاف آخرون كلمة (وطال) إلى إسمه الشخصي

5) القلقشندي ج 6، ص 534 - أبو المطرف، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي عام 1961 .

لقد كان (بلاصكو) هذا من نبلاء أراغون، وقد أشارت الروايات المسيحية إلى قصة خلافه مع الملك خايمي ملك أراغون والتجائه إلى بلنسية حيث قضى سَنَتَيْن بين المسلمين في ظل واليها السيد أبي زيد، أما المصادر العربية فلم تشر إلى الحادثة بأي شيء، ومن هنا تأتي قيمة تلك الرسالة التي تؤكد ما ورد في المصادر المسيحية[1].

وقد تميز عهد هذا الخليفة بما صدر عنه من رسائل إلى بعض نوابه عندما نقضوا العهد المبرم بينهم وبين المعاهدين من النصارى، كانت رسائل نموذجية في ضرورة الحفاظ علي العهد واحترام الميثاق، وليس هذا فحسب، ولكن الرسالة تندد «بالنصر الذي يعقبه الهوان والذل، والشهوة التي تغلب العقل[2]»

العلاقات أيام العادل 621-624=1224-1226

لم تمر على هزيمة العِقاب بضع سنوات حتي أخذنا نشاهد ردود الفعل الأولى بين القادة الموحدين أنفسهم حيث رأينا خلافاتهم الشخصية تتصاعد وطموحاتهم الفردية تتوالى !

وهكذا فقد واجه الخليفة الجديد أبو محمد عبد الله العادل بعد بيعته في مرسية إثر الخليفة المستنصر سلسلةً من الفواجع المؤلمة أصبحت فيها مدن الأندلس تتداعى الواحدة تلو الأخرى نتيجة للتخاذل والغدر والخيانة ! فقد تمرد (621=1224) والي جيان – وهو «الأمير» عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالبياسي – على الخليفة، وجرؤ على الاستنصار بفيرناندو الثالث ملك قشتالة لتحقيق مطامحه ونزواته، وتمكن القشتاليون من هذه الفرصة الثمينة التي أتاحها لهم هذا الخائن فانهالوا على القواعد والمواقع.

وقد كان من الاصطدامات التي سجلتها الساحة الأندلسية ما حدث عام 623 = 1226 عندما تصدى السيد أبو العلاء إدريس أخو العادل وواليه على إشبيلية، نصدى لفك الحصار

1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 6، 101 - 102 .

2) يوجدنص الرسالة عند القلقشندي في صبح الأعشى ج 6، ص 446 وهي من إنشاء أبي ميمون المستنصر بالله وقد أتينا بنصها في المجلد 6 من كتابنا التاريخ الدبلوماسي للمغرب ص 102 - 103 .

المضروب على العاصمة الأندلسية بتواطؤ بين «البياسي» وبين حلفائه من المسيحيين! وهكذا رأينا أن والي إشبيلية بعد أن أمكنه الله من النصر على المتمردين والمعتدين يبعث إلى أخيه بمراكش يخبره بهزيمة البياسي، في الخطاب المؤرخ في أول ربيع الأول عام 623 = مارس 1226

كما كتب هذا الوالي أبو العلاء أيضا إلى أخيه العادل يخبره برجوع بلد طلياطة(TEJADA) إليه وانتزاعها من أيدي "البياسي" المذكور الذي لم يلبث أهل قرطبة أن ثاروا عليه وبعثوا برأسه إلى أبي العلاء الذي قام بإرساله بدوره إلى مراكش !

ولما شعر السيد أبو العلاء إدريس بوطأة القشتاليين سنة 624=1227 سعى إلى عقد الهدنة معهم وبعث سفيره أبا القاسم من أجل المفاوضة، وتم الاتفاق أخيرا على أن تعقد الهدنة بين الفريقين لمدة عام واحد في مقابلة أن يدفع الموحدون مبلغ ثلاثمائة ألف قطعة من الدنانير المرابطية.

العلاقات أيام المامون 624-629=1226-1231

لقد جاء دور الخليفة أبي العلاء إدريس بن يعقوب المنصور الملقَّب بالمأمون، الذي بويع - وهو بقرطبة سنة 624=1226 وقد بلغته وهو بالأندلس أصداء عن الناكثين لبيعته في المغرب، ،هنا رأى أن من « الاحتياط » أن لا يغامر بالعودة للمغرب دون أن يتوفر على قوة عسكرية تكفل له النجاح التام لإسكات المخالفين!ومن ثمت فقد إتجه نحو ملك قشتالة وبعث بسفارة تعرض على العاهل القشتالي تجديد الهدنة السابقة إلى عام آخر وبنفس الشروط أعني مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة مرابطية (MARAVEDI) وبطلب إليه في نفس الوقت عقد حلف يحصل بمقتضاه على «مِيلِيشيَا» عسكرية تعبر معه البوغاز إلى المغرب لحمايته!

ويقدم لنا صاحب روض القرطاس خلاصة لتلك الشروط التي قدمها ملك قشتالة لعقد هذا الحلف والتي قبلها المأمون، وهي أن يسلمه هذا أي المأمون عشرة من الحصون الإسلامية في منطقة الحدود يختارها بنفسه، وأن تبنى بقلب مدينة مراكش كنيسة للنصارى يضربون عليها نواقيسهم وأنه إذا أسلم أحد من أحد أفراد الميليشيا فلا يقبل إسلامه، ويرد إلى إخوانه وبالعكس إن تنصر أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل [1]!

---

1) روض القرطاس، طبعة فاس الحجرية ص 180 - 181 .

وقد بعث ملك قشتالة للمأمون في مقابل هذا بجمع من فرسان الروم بلغ عند بن عذارى خمسمائة فارس وأوصله صاحب روض القرطاس إلى إثني عشر ألف فارس، برسم الخدمة مع الخليفة والجواز إلى العدوة. وقد وصل الجيش للمأمون في شهر رمضان 626 = غشت 1229 وأخذ طريقه نحو المغرب في ذي القعدة الموالي ...

وهكذا أذن أبو العلاء المأمون فور وصوله إلى مراكش لحلفائه القشتاليين القادمين معه برئاسة (فرانسيل) في بناء كنيسة كاثوليكية بمراكش حيث أخذت النواقيس، منذ إتمامها، تدق لأول مرة في العاصمة الموحدية...

ولم يكن غريبا على الذين يعرفون تصلب أشياخ الموحدين أن يروا ردود الفعل العنيفة التي خلفها إستنجاد الخليفة المأمون بالملوك «النصارى» وسماحه بقرع الناقوس في عاصمته !

وهكذا اصطدم الخليفة المأمون، أكثر من سابقه بحركة إنفصالات أخرى لا تقل خطورة عن إنشقاق "البياسي" مثلا، فقد ظهر في الأفق زعيم جديد هو ابن هود الذي أصبح منذ أول رمضان 625 = 4 غشت 1228 يدعو للخليفة العباسي في بغداد [1]

وقد بعثت حركة "البياسي" و"ابن هود" روح الانفصال في الرئيس أبي جميل زيان ... الذي كان وزيرا لوالي بلنسية يوم 26 صفر 626 = يناير 1229 وعقد البيعة لنفسه داعيا للخليفة المستنصر العباسي !

ولم يكن من السهل على والي السيد أبي زيد عبد الرحمان أن يستسلم أمام وزيره بالأمس أبي جميل .. ! فحدثته نفسه بالالتجاء إلى ملك أراغون خايمي الأول (JAIME I) والاستنجاد به وكان الذي يصحبه في الحركة كاتبه الشهير بابن الأبار ...

1) دعا للخليفة المستنصر بالله قبل أن يبعث إلى بغداد بسفارة أجابه عنها الخليفة العباسي بالمرسوم المؤرخ في العشر الوسط من ذي القعدة 629 = غشت 1232، وقد قرئ هذا المرسوم على الناس في غرناطة بمصلى العيد وابن هود يرتدي السواد ... وقد نقل ابن الخطيب في كتابه إعمال الاعلام نص هذا المرسوم ... التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 6، ص 111 تعليق 20-21 .

وقد إجتمع السيد أبو زيد بملك أراغون في قلعة أيوب (Calatayud) حيث كان بلاطه يومئذ، وذلك يوم 20 أبريل 1229 = 23 جمادى الأولى 626، وحضر الاجتماع أبو محمد ولد السيد أبي زيد كما حضره ألفونسو ولد خايمي ... وعقدت بين الطرفين معاهدة نص فيها على أن يُعطي السيد أبو زيد من سائر الأراضي والأماكن التي يغتنمها ربع المساحة إلى الملك خايمي وعلى أن يحتفظ الملك خايمي لنفسه بكل ما يقوم هو بافتتاحه أو ما يقع تسليمه إليه ! وأن يقدم السيد أبو زيد كفالة بتنفيذ هذا الاتفاق : عبارة عن حصون بأسمائها على شكل رهينة، وأن يقوم الملك خايمي – تأكيداً لعهوده بحماية السيد والدفاع عنه وعن ولده ضد أعدائه – بتسليم حصنين للسيد أبي زيد[1]!

وبينما كان الخليفة المأمون يعيش مع هذه الأحداث إذا بمدينة سبتة تعتبر نفسها حلا من سلطته، حيث قام بها سنة 629 =1232 أخوه السيد أبو موسى بن يعقوب المنصور، وتلقب بالمؤيد بالله مادا يده إلى ابن هود الذي بلغ ذروة سلطانه بالأندلس ...والذي - كما علمنا - أصبح مستظلا براية بغداد !

ولقد نقل ابن هود السيد أبا موسى من سبتة إلى ولاية ألمرية بينما بعث لسبتة بقائد له جديد لم يلبث أن طرد من طرف أهلها الذين بايعوا أبا العباس أحمد بن محمد البانشتي[2] الملقب بالموفّق بالله سنة 630 = 1233 !

1) أصبح إسم أبي زيد في الرواية النصرانية هكذا : (ZEIT) وتذكر هذه المصادر أنه اعتنق النصرانية، الأمر الذي غير الناس عليه وفي صدرهم كاتبه ابن الابار الذي عاد إلى بلنسية ليخدم أميرها الجديد أبا جميل ...
2) البيان المغرب ص 138 .

وبينما كان المأمون - معززاً بحماية الروم - في محاولته لتأديب «الناكثين عليه» كما يسميهم ابن عذاري، بلغته الأخبار وهو يحاصر سبتة عام 629=1232 عن تمكن ابن أخيه ومنافسه الشديد يحيى بن الناصر [1] من العاصمة مراكش نفسها ! حيث قام بإحراق الكنيسة القشتالية والاجهاز على من كان يوجد بها من القسيسين والرهبان!

بالإضافة إلى كل هذه الزعامات الانفصالية أخذ إسم آخر في الظهور بأواسط الأندلس وكان ذلك هو محمد بن يوسف أمير جيان المعروف بابن الأحمر... الذي فكر في البداية أن يستظل بلواء الأمير أبي زكرياء الحفصي صاحب إفريقية !قبل أن يعدل عنه إلى الدّعوة للخليفة المستنصر بالله العباسي على نحو مايفعله ابن هود الذي أمسى، في سبيل أن يبقى يؤدي اتاوة قدرها مائة ألف وثلاثون ألف دينار، ويتناول عن ثلاثين حصنا .[2]

سقوط الجزر الشرقية 627=1230

وكان من نتائج هذا التمزق أن تقوى جانب خايمي الأول الذي قصد الجزر الشرقية (الباليار) للاستيلاء عليها في حشود عظيمة شارك فيها أهل جنوة وبروڤانص وغيرهم ... وكان والي ميورقة آنئذ هو أبو يحيى بن أبي عمران التينملّي الذي دافع دفاع المستميت قبل أن يلجأ للمفاوضة حول شروط التسليم ...!

لقد بعث أبو يحيى إلى الملك خايمي على يد دون نونيو سانشير [3] أحد أقطاب الحملة، يعاونه يهودي من سرقسطة يسمى (شاوول) كان يعرف العربية، يعرض أن يدفع ثمنا لانسحاب ملك أراغون، وذلك بأن يؤدي إليه سائر نفقات الحملة من وقت خروجها من ثغر طركونة (TARAGONA) إلى يوم انسحابها، على أن لا تترك في الجزيرة حامية نصرانية، ولكنه لما علم

1) كان يحيى هذا يعتبر نفسه أولى بالخلافة من عمه لاسيما مع ما أخذ على العم من «اتخاذ أعداء الله أولياء»! وقد بويع يحيى هذا سنة 624 = 1226 وظل إلى عام 633=1235 بين خلع وولاية ... لكنا لم نسجل عنه من وجهة العلاقات الدولية إلا أنه كان يرفع شعارا معادياً النصارى !

2) ابن عذارى : البيان المغرب، ص 279- ابن خلدون ج 4، ص 368 -
د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 111/112 .

3) ابن عذاري : البيان المغرب، القسم الثالث، ص 271/275 وما بعدها.

أن ملك إراغون يصر كل الإصرار على أخذ الجزر الشرقية، بعث إليه يعرض تسليم المدينة على أن يسمح له بالخروج إلى بلاد المغرب مع أهله وحشمه وأمواله، وأن تترك له السفن التي تحمله إلى الساحل المغربي، وأن يبقى في الجزيرة من شاء من أهلها المسلمين، ولكن الملك خايمي رفض هذا العرض أيضا تحت ضغط الزعماء القطلان لانهم كانوا يريدون الاستيلاء على غنائم المدينة وثرواتها

وعندئذ كانت الكلمة للصدام بين الطرفين، وكانت معارك عنيفة في الشوارع بالسلاح الأبيض ... لقد كانت مذبحة مروعة قدر عدد الشهداء فيها بأربعة وعشرين ألفا حيث دخل خايمي وأتى بالوالي أبي يحيى التينملي وأمر بتعذيبه بين الزعماء الفاتحين على يد هيئة من الأحبار، وحرر صك التسليم باللغات اللاتينية والقطلانية والعربية ...!

ولقد أورد الكونط دوماص لا تري (DE MA LATRIE) في كتابه سالف الذكر النص الكامل اللاتفاقية المحزنة التي وقعت في أعقاب سقوط ميورقة (يوم الإثنين 14 صفر 627 = أول يناير 1230).

وبمقتضاها فإن عرب ميورقة يعلنون عن استسلامهم لهيمنة الملك جاك الأول ملك إراغون وكونط برشلونة وسيد مونبوليي ...!

الرشيد 630 = 1232

لقد إهتم الخليفة الرشيد الذي بويع عام 630 = 1232 في صدر ما إهتم به أولاً العمل على توحيد صف الموحدين بغية بعث الدولة من سباتها وإنقاذها من محنتها، وهكذا عاد إلى ذكر إسم الإمام المهدي وإلى إقامة الصلاة على نحو ما كانت عليه، ثانيا أن يهتم بمحاولة إيجاد وسيلة لدعم علاقته مع الزعماء المسيحيين في الأندلس أملا في الإبقاء على ما يمكن الإبقاء عليه في تلك الجهات ...

وإذا كانت الأيام الأولى للخليفة الرشيد عرفت بعملية القرصنة التي تمثلت في هجوم الزعيم كونزالو أخي شانصو على جزيرة قادس وأسر أهلها واستياقهم إلى رباط آسفي حيث تم افتداؤهم من لدن المغاربة [1] فإن هذه السنة كذلك عرفت حركات دبلوماسية بالغة الأهمية شاهدتها العاصمة:

1) البيان المغرب ص 292 - 293 - 294

مراكش ، ويتعلق الأمر بوكيل صانشو زعيم النصارى الذي مهد للقائه مع الخليفة باجتماعه – في ناحية جدميوة – مع أحد الزعماء الموحدين المرموقين : أبي عثمان سعيد بن زكرياء الذي كان له دور يذكر سواء على الصعيد الداخلي أم الخارجي.[1]

سقوط قرطبة 633 = 1236

ولم يلبث القشتاليون أن اتجهوا صوب قرطبة ! وعبثا كان إستنجاد أهلها بابن هود الذي كان يرتبط مع قشتالة بمعاهدة سلام إنتهى مفعولها ...

وقد أحكم الحصار على قرطبة ... واضطر أهل المدينة في البداية إلى مفاوضة ملك قشتالة في التسليم على أن يؤمنوا في أنفسهم وفيما يستطيعون حمله من متاعهم ... ! وعندما وافق الملك على هذا الشرط عادوا فنكلوا عن التوقيع أملا في فرج مرتقب !وأمسى بعض الغلاة من الأحبار ينصحون باقتحام المدينة وقتل كل أهلها !وتفرق أهل قرطبة في أنحاء الأندلس الأخرى ! وفي يوم الأحد 23 شوال 633 = 29 دخل الجنود القشتاليون المدينة ... وحولوا الجامع الأعظم الشهير إلى كنيسة !

وقد كان من أشهر الأيام وأجملها في عهد الخليفة الرشيد هي الأيام التي وافقت شهر شوال من عام 635 = مايه – يونيه 1238 عندما عاد أهل إشبيلية إلى مبايعة أمير المؤمنين بعدما قدموا على أنفسهم واليا : أبا عبد الله بن السيد أبي عمران ... حيث نرى في مراكش وفدا منهم يعلن عن ولائه للخليفة الرشيد.

وقد تحرك في نفوس أهل (سبتة) هاجس الصحوة لما أحسوا بعودة أهل إشبيلية إلى الرشيد فاتفقوا بدورهم على تجديد بيعتهم له في هذه السنة وقد كان لقدوم وفد إشبيلية على حضرة مراكش شأن عظيم، وشاع الخبر بما كان في سبتة أيضا ، وقرئت البيعة الإشبيلية [2]

---

1) البيان المغرب 293 - 294

2) البيان المغرب ص 343 - 344

وقد شهدت سنة 636 = 1238 كذلك وصولَ بيعة أبي عبد الله محمد ابن يوسف بن نصر ابن الأحمر الذي أخذ يذكر إسم الخليفة الرشيد ويدعو له في خطبه [1]

وبهذه المناسبة تجددت االبيعة للرشيد عن أهل غرناطة ومالقة وجيان وسائر البلاد التي كانت تحت طاعة ابن الأحمر[2] ... وهنا تحركت وفادة من الخليفة الرشيد لتقديم الشكر لابن الاحمر على مبادراته.

سقوط بلنسيه ! 636 = 1238

ما كاد ملك أراغون ينتهي من إفتتاح الجزر الشرقية حتى أخذ يضع خطته لاكتساح بلنيسة المقابلة لجزيرة ميورقة، وقد سعى لدى البابا لإضفاء الصفة الشرعية الصليبية على هذه الحركة ليضمن نجاحها، وقد استجاب البابا كريكوار التاسع فعلا لمسعى ملك أراغون ... وهكذا أخذت الاستعدادات الضخمة للزحف الذي كان ضمن رجاله "السيد" أبو زيد سالف الذكر !

وبدأ حصار المدينة في 5 رمضان 635=أبريل 1238 وحينما أخذوا في رميها بالالات المخربة... دافع البلنسيون عن المدينة بقيادة أميرهم أبي جميل، وإلى جانب هذا القتال الضاري حاول أبو جميل زيان أن يكتسب سندا أكثر من قادة القواعد الإسلامية المجاورة ... وهنا كانت فكرة إرسال سفارة عاجلة إلى مرسية برئاسة الفقيه محمد بن خلف بن قاسم الأنصاري.

---

1) نفس المرجع ص 343

2) أورد القلقشندي في صبحه ج 9 ص 298، نص بيعه أهل دانيه للرشيد ابن المامون ...

ولم يقف أبو جميل زيان عند هذا الحد الإقليمي ولكنه تجاوزه إلى إخوانه المسلمين في الضفة الأخرى من البحر المتوسط ... ولما كان يعلم عن ظروف القادة الموحدين بمراكش في ذلك الوقت، فقد توجه إلى الإمارة الحفصية بتونس، تلك الإمارة الفتية التي استقل بها أبو زكرياء الحفصي الهنتاني، على مانعرف ... وهكذا بعث أبو جميل زيان إلى إفريقية بسفارة هامة كان على رأسها وزيره ابن الأبار الذي حمل صريخ أبي جميل... وقد استقبَل السفير ابن الابار من طرف الأمير أبي زكرياء في حفل مشهود حضره كبار الدولة من رجال السياسة والفكر. واستمع الجميع إلى القصيدة التي تعتبر بمثابة أوراق اعتماد تحمل في طياتها كل أسرار المأساة التي كانت تلف بلنسية ... !

قصيدة مبكية حاولنا أن نقتطف بعضاً من أبياتها السبعة والستين لكنها كانت جميعها من الروعة بحيث تستدعي العودة إلى نصها كاملا في نفخ الطيب ونقتصر هنا على البيت الأول منها : [1]

أدركْ بخيلك خيلِ الله أندلسَا * إن السبيل إلى منجاتها درسا !

ولقد كان لهذه القصيدة أثرها في نفس أبي زكرياء الذي بادر [2] بتجهيز أسطول، يتألف من اثني عشرة سفينة كبيرة وست صغيرة، بيد أن الاسطول لم يتمكن من إفراغ شحنته في ثغر بلسنية لأن الوقت فات !! ولقد رأى أعيان المدينة بأنه لا مفرّ من التسليم، وهكذا بعث الأمير أبو جميل بابن أخيه أبي الحملات للتفاوض مع ملك أراغون في شروط التسليم وتولى كتابة العقد عن أبي جميل الكاتب ابن الأبار ...

ودخل ملك أراغون المدينة بلنسية يوم 7 صفر636=29 1238 صحبة زوجته الملكة كيولانتي وأكابر الاحبار والفرسان الأراغونيين والقطلان ...!

---

1) المقري : نفح الطيب، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت 1968 ج 2 ص 589 -590 - ج 4 ص457 - 458 - 459 - 460

2) يذكر ابن عذارى أن هذه القصيدة رفعت يوم الثلاثاء منسلخ رجب من سنة 636 ... أي بعد سقوط بلنسية ... البيان المغرب ص 345/346 .

وبعد ضياع بلسنية توجه الامير أبو جميل إلى مرسية التي كانت مقر رئاسته فيما قبل، وهناك دعا أيضا لأبي زكرياء الموحدي صاحب تونس وأرسل إليه بوفادة تحمل البيعة التي كانت تحمل تاريخ رمضان سنة 636= أبريل 1239 وقد حملها إلى تونس أبو عبد الله بن الرئيس أبي الحارث[1]

وقد عادت البعثة من تونس تحمل معها "التقليد" وتحمل معها كذلك المساعدات المادية...

ومما كتب به ابن عميرة عن أبي جميل زيان في هذه الفترة رسالة طويلة موجهة إلى أبي زكرياء أيضا وهي أشبه بتقرير عن الأحوال في إمارة مرسية، وهذه الرسالة مهمة من حيث إنها تحدد رقعة هذه الإمارة وتقدم لنا جردا بالمدن والحصون التي كان يَتألف منها إقليم مرسية[2].

ومع هذه الاتصالات وجدنا الأمير أبا جميل زيان أخذ يحاول التفاهم مع فيرناندو الثالث ملك قشتالة، حسبما تدل عليه رسالة موجهة منه إلى الملك المذكور محررة بقلم أبي المطرف بن عميرة يذكر فيها أنه رأى مفاوضته في عقد السلم، وأن يكون ذلك على يد سفير أوفده إليه، وأنه على استعداد للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض[3].

لكن كل هذه المحاولات لم تكن مجدية أمام الوضع الذي أصبحت عليه المنطقة، والأمر الذي تفسره الهجرات المتوالية للأندلسيين إلى العدوة المغربية ...

وقد قبَّض الله الخليفة الرشيد حفيد يعقوب المنصور لإعمار رباط الفتح بعد أن كان ذلك الجد ندم – حسبما يقال – على بناء الرباط وإنفاق المال عليه، بل إن الخليفة الرشيد ظل يتتبع نشأة المدينة وتطورها إلى أن استشهد وهو يقوم بنزهة على زورق في بحيرة أكدال بمراكش[4]

---

1) رسائل ابن عميرة المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط رقم 232ك 233د

2) مخطوطة رسائل إبن عميرة بالخزانة العامة رقم 233/ ك صفحة 254 - 255 - 256 .

3) صبح الأعشى ج 7، ص 116

4) توفي الرشيد أثناء قيامه بنزهة على زورق صحبة بعض جواريه في بحيرة أكدال، مراكش يوم 9 جمادى الأخيرة 640=4 دجنبر 1242 د. التازي : عرصة النيل بأكدال مراكش، مجلة المناهل المغربية، العدد 28 ربيع الأول 1404=دجنبر 1993 .

أيام السعيد وسقوط مرسية 641=1243

لقد كانت الأحوال في عهد الخليفة أبي الحسن علي بن المأمون الملقب بالسعيد، تزداد تدهوراً وانهياراً بالرغم من توجيه إهتمامه للعناية بالمليشيات المسيحية والمرتزقة من الروم وغيرهم ممن كان والده "المأمون" يعتمد عليهم ...[1]

فلقد سقطت مرسية عام 641=1243 في أيدي أراغون وتوالى سقوط الحصون في الأندلس، وتوالت حركات الانشقاق والتصدع في البلاد بالرغم من كل المحاولات التي تستهدف الإبقاء على الواجهة الخارجية للدولة ...

وأكثر من هذا فقد ظهرت طلائع حركة جديدة في قلب البلاد هي حركة **بني مرين** التي كانت تهدف لانتزاع الحكم من يد الموحدين !

ولما أن هذه "الحركة" كانت تقصد إلى سائر الجهات المتبقية لدى بني عبد المؤمن بما في ذلك المغرب الأوسط، فقد رأينا الأمير أبا يحيى يغمراسن بن زيان يقوم عام 640=1242 بمبادرة مجاملة لدى الخليفة السعيد تمهيدا للتحالف بين الجهتين لكتم أنفاس الظاهرين الجدد من بني مرين، وهكذا بعث يغمراسن بجملة من الفرسان إلى الخليفة السعيد، كان هؤلاء الفرسان يحملون جملة من الهدايا : الخيول العتاق كما يصحبون معهم طائفة من الدرق، وأكثر من هذا يعرضون على الخليفة مساعدته للوقوف بجانبه في مقاتلة الزعماء الجدد بني مرين ... [2]

لكن هذه المبادرة من يغمراسن لم تكن لترضى، في تونس، الأمير أبا زكرياء الذي وجدناه يتوجه نحو تلمسان لمحاربة زعيم تلمسان، لقد أصبحت تونس تخاف من حلف مغربي ضدها!

---

1) البيان المغرب ص 359 .

2) نفس المرجع ص 360 .

وهكذا استطاع أبو زكرياء أن يركع يغمراسن ويفتح بلاده ويحمله على الطاعة هو وإخوانه بنو عبد الواد، بل ويحتلّ فترة من الزمن بتلمسان لاعادة تنظيمها ! ولم يتردد أبو زكرياء، وقد استوثق من أمر هذه الطاعة، أن يعيد القيادة ليغمراسن حتى يكون سدا بين البلاد التونسية والمغربية "بعد معاهدة ومعاقدة مع الأمير أبي زكرياء وشروط مشروطة وربوط مربوطة، "على حد تعبير ابن عذارى. [1]

لقد أمسى الخليفة السعيد منذ اليوم يجاور ليس فقط حركة إنفصالية في المغرب الأوسط، ولكنها حركة يربطها حلف يحتوي على "شروط مشروطة وربوط ومربوطة" ! تهدف جميعها إلى الإساءة إلى الدولة الموحدية الأم !

ومن هنا سيسهل علينا أن نتلقّى شريط الأحداث أولا بأول ... فلقد غالت سبتة في انفصالها، ونحن اليوم أمام عناد أبي علي ابن خلاص الذي بايع الحفصيين في إفريقية !! وبعث ولده بهدية رفيعة إلى تونس بواسطة غراب كان في جملة ما يمتلكه ابن خلاص [2] !! وفي سجلماسة لم يلبث عبد الله ابن زكرياء الهزرجي أن التفت هو بدوره لتونس ! فتوجه بالبيعة لأبي زكرياء الذي تقبل حركة الهزرجي بترحيب زائد تمثل في إقرار هذا الأخير على ولاية سجلماسة، وما أدراك ما سجلماسة ! وأطلق له اليد هناك على جميع الأمور فضرب السكة الأميرية هناك، وغدا يكون خطرا يهدد بتطويق المملكة الخلافية الأمر الذي جعل السعيد يقرر في حزم وعزم الاتجاه إلى سجلماسة مع أجناد والده ليجعل حدا للتمرد وليصفد المنشق بالحديد قبل أن يلقى مصيره ... [3]

وإذا ما عبرنا البوغاز إلى الأندلس مرة أخرى فإننا سنشهد عن متاعب جديدة للخليفة السعيد، وهكذا فإن أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن الأحمر الذي بايع الخليفة الرشيد بالأمس، تراجع اليوم عن متابعة بيعته للسعيد !وغدت غرناطة ومالقة وجيان مبايعةً للأمير أبي زكرياء

---

1) البيان المغرب ص 361/362 .

2) يذكر ابن عذاري أن هذا الغراب تعرض للغرق فضاع السفيروضاعت الهدية ! البيان المغرب ص 379/359 .

3) البيان المغرب ص 359/365 .

الحفصي الذي أجاب عن هذه البيعة بإرسال ممثلين له في العاصمة الأندلسية !! بل إن الأخبار وصلت عن أن ابن الأحمر الذي يرتبط ببيعة أبي زكرياء - صالح أذفونش ملك قشتالة على بلاد المسلمين مدة عشرين عاما وسلمه مدينة جيان وما الاها من الحصون والمعاقل، الأمر الذي يمهد لانزال الضربة القاصمة بالعاصمة : إشبيلية. !

وقد شهدت سنة 644=1246 - 47 وصول قطع من أسطول أبي زكرياء إلى كل من سبتة وإشبيلية، حيث رأينا مصلحة الأمير الحفصي تقتضي تسمية وآلٍ جديدٍ على سبتة هو ابن الشهيد الهنتاني، كما عيّن "مشتغلا" بشؤونها هو ابن أبي خالد البلنسي.

ومن جهة أخرى فقد حمل الأسطول كذلك إلى إشبيلية نفسها أبا فارس برسم أن يكون في قصبتها كما سمي أيضا "مشتغلا" بأمورها، كما تدل عليه رسالة رسمية صادرة من أبي زكرياء[1] 10 محرم 644=28 مايه 1246.

إن الأخبار الواردة من الأندلس كانت تنذر بالعاصفة ... فإن المشرفين الجدد الذين بعث بهم الأمير أبو زكرياء لاشبيلية لم يعودوا محل رضى من لدن المواطنين ...

وبهذا سيسهل علينا أن ندرك محاولة أهل إشبيلية العودة إلى الخليفة السعيد الذي خاطبوه بمخاطبات ومكاتبات يحن لسماعها الجماد" لقد كان مما يزيد في ضعف المسلمين بالأندلس وفي انهيار مقاومتهم فترات انشغال الحكم بهذه الحركات الانفصالية، فمن جماعة إلى جماعة، وهنا تحتد المضايقات وتشتد الغارات وتتنوع المساومات ... ! ولا ننسى الآن أننا نعيش أيام تصدي الخليفة السعيد للمناوئين له في المغرب الأوسط، بل والمغرب الأقصى.

وقد بلغ من تردي الأحوال في عهد الخليفة السعيد أن أصداء التمرد والانفصال - بتشجيع ملحوظ من الفريق الثاني للموحدين في تونس - تجاوزت سبتة وطنجة لتقرع باب مكناسة الزيتون

1) البيان المغرب ص 979 .

التي أصبح قاضيها بالصدفة هو أبو المطرف بن عَميرة : الشخصية التي اشتغلت مع عدد من رجال السياسة، سواء بالأندلس أو بديار المغرب ... وهكذا وجدنا هذا القاضي - بعد إجهاز أهل مكناس على عامل السعيد - يرتئي تحرير البيعة للحفصيين بإفريقية بتاريخ يوم الجمعة 20 ربيع الأول 643=5 غشت 1245، على ما نقرأه في البيان المغرب...[1]

لقد أمسى الخليفة السعيد مقتنعا أكثر من أي وقت مضى بأن الواجب يفرض عليه، قبل أن يفكر في إرضاء استنجاد أهل الأندلس وإشبيلية على الخصوص، أن يقوم بتحصين المواقع الخلفية، ومن هنا عزم على الحركة إلى البلاد الشرقية التلمسانية والتونسية فلا طمع في إنقاد الأندلس إلا بقطع الطريق على المتآمرين عليه في الرقعة المغربية !

إن الأمير أبا زكرياء لم يفتأ مصوبا أنظاره إلى جهة المغرب ... ومن هنا وجدنا أطماعه من حين دخوله لتلمسان تتجه نحو البلاد الغربية كما يقول ابن عذاري [2] الأمر الذي تفسره الاستعدادات العظيمة التي لم يعهد لها نظير ولا مثال فيما قام به العاهل المغربي من الحركات.

وقد كان من بين الاستعدادات التي لم يغفلها المؤرخون : اتصال السعيد بصاحب صقلية ليعينه بالاجفان الصقلية أثناء توجهه للقضاء على المناوشين له في الشرق !

ويذكر ابن عذاري أن الاستعداد لمقاتلة المشاغبين على السعيد بمن فيهم أنصار يغمراسن استمر طوال أعوام، بل منذ تولى أمير المؤمنين السعيد للإمارة في المغرب.

وحتى يضمن نجاح حركته الشاملة رأى الخليفة السعيد أن يَعقد إتفاقية سلام بينه وبين زعماء بني مرين الذين ظهروا على الساحة المغربية لأمر ما كان يخططه.

---

1) راجع نص البيعة في البيان المغرب ص 377/378

2) البيان المغرب ص 385 .

وعندما تقاربت الطائفتان طلب السعيد إلى أبي يحيى يغمراسن أن يجتمع به في محاولة لحقن الدماء، فأجابه يغمراسن : بأنه تحت طاعته ولكنه لا يستطيع القدوم عليه نظرا لكونه أي السعيد مصحوبا ببعض قادة بني مرين وهم أعداؤه، وإنما سيبعث بني عمه عبد الواد [1].

واشتدت أسباب التوتر بين يغمراسن وبين السعيد ... وكانت محاولة أخرى للاجتماع وكانت المحاولة هذه المرة من الأول لدى الثاني عندما بعث إليه برسله وسفرائه ...

لكنها لم تنجح، وكان الصدام في تلك المسالك الوعرة والجبال الشاهقة وفي فصل شديد الحر وجرى قضاء الله بمصرع السعيد يوم الثلاثاء منسلخ صفر من عام 646=23 يونيه 1248 قبيل وفاة أبي زكرياء نفسه في أعقاب المرض الذي ألم به في بلد العناب [2].

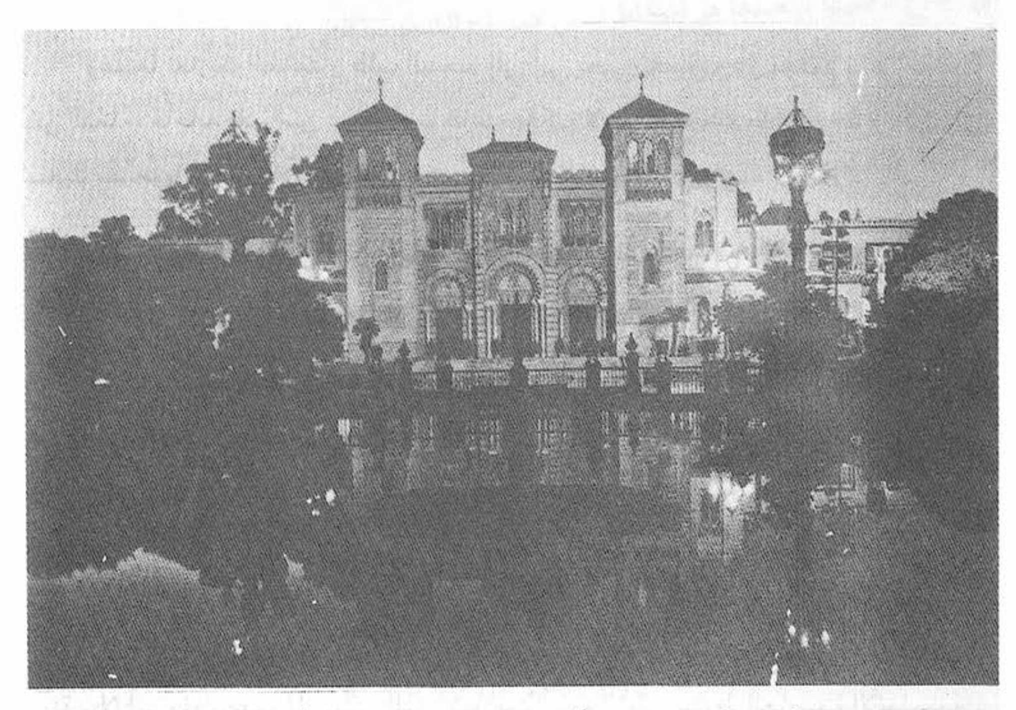
أيام المرتضى وسقوط اشبيلية 646-665=1248-1266

وبعد مصرع السعيد في المغرب الأوسط 29 صفر 646=23 يونيه 1248 بويع خليفته على مدينة سلا أبو حفص عمر المرتضى الذي صادفتْ أيامه الأولى سقوط العاصمة الأندلسية : إشبيلية .يوم27 رمضان 646=23 نونبر 1248.. وهكذا ففي نفس الوقت الذي كان فيه الأراغونيين يهددون القواعد الشرقية، كان ملك قشتالة يوالي فتوحاته في المنطقة الوسطى ... وهكذا أيضا فبعد إستسلام الكثير من المُدن الأندلسية انصرفت الأطماع إلى إشبيلية التي كانت -كما أشرنا- اتجهت أحيانا إلى الدولة الحفصية وأحيانا إلى فيرناندو الثالث حيث عقد معه أميرها ابن الجد معاهدة على نمط الاتفاقية التي عُقدت بين ابن الآحمر وبين الملك المذكور، وخلاصتها أن يعترف بطاعة ملك قشتالة وأن يحضر اجتماعات الكورتيس باعتباره من أتباع الملك !

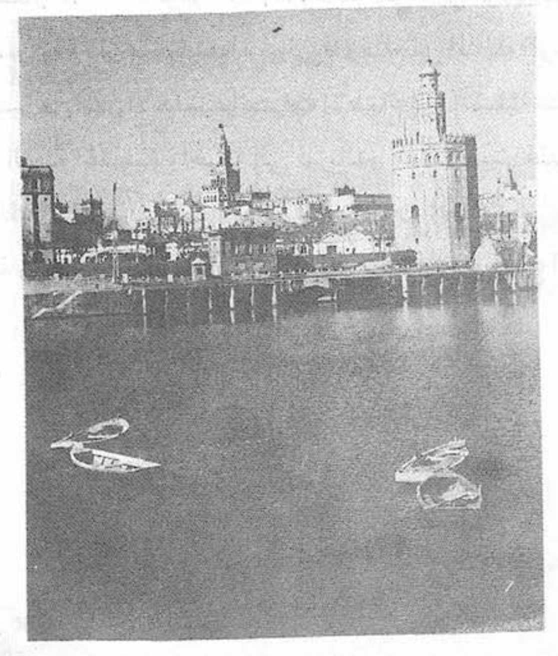
---

1) البيان المغرب ص 386 .

2) المصدر السابق 388 .



من آثار قصور إشبيلية



منارة الذهب والوادي الكبير

وهكذا فبعد مصرع ابن الجد على يد الاشبيليين، وجدها فرناندو فرصة للتدخل ... بمعاونة (البابا) الذي قرر أن تخصص الكنيسة القشتالية والليونية ثلث إيراداتها للمساهمة في نفقات الحرب ! بل وكذلك بمشاركة ابن الاحمر الذي كانت إشبيلية نكلت عن طاعته !

وحينئذ طلب القائد أبو الحسن شقاف (AXATAF) عقد هدنة ليتمكن من الاتصال بأهل المدينة ... ولكن ملك قشتالة رفض الحلول الجزئية رفضا باتًا ... وكان من العروض اقتسام المدينة وبناء جدار فاصل بين الطرفين! لكن الملك أصر على تسلم المدينة كلها ودون قيد أو شرط ! وحينئذ جرت المفاوض في التسليم وانتهت، على أن تسلم إشبيلية كاملةً سليمةً، وأن يغادرها سكانها حاملين أمتعتهم المنقولة من مال وسلاح، وأن يسلم القصر (ALCAZAR) في الحال !

لقد ظلت أبهاء هذا القصر إلى اليوم، بالرغم مما لحقها من تغييرات صرحا شامخاً يعبر عن ذروة الكمال وقمة الجمال ... وقد كان أهم وأبدع هذه الأبهاء بهو السفراء، والذي قد نقشت على الجزء الأعلى من أبوابه - بعد اختلاله - هذه الكلمات :

أمر مولانا المعظم المرفع ضُنْ بِضْرُ ملك قشتالة وليون أدام الله سعده وهنأ أيامه، بعمل هذه الأبواب الجديدة لهذه القبة السعيدة بما أجلبه من العزة والرفعة من حشد السرور والسعود [1]

وقد قُدر من خرج من أهل إشبيلية من المسلمين بحوالي نصف مليون! [2] خرجوا إلى مختلف جهات الأندلس وإلى المغرب وكان ممن عبروا البحر، غير حافل بما عرض عليه، القائد شقاف الذي قصد سبتة!

ودخل فرناندو الثالث المدينة بعد أن حول الجامع الأعظم إلى الكنيسة، وقطع أعلى المنارة الذي لم يكن يختلف شكلا عن الكتبية في مراكش !

---

1) عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال الطبعة الرابعة 1417=1997 ص 64/59 .

2) ابن عذارى : البيان المغرب ص 381 - 400

وغدت إشبيلية عاصمة للقشتاليين بدل طليطلة ! وكان حدثا إهتزت له أرجاء العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها ...

ومن هنا انطلق فيرناندو «قاهر الأندلس» لا يلويه شيء نحو الحصون والمدن المجاورة، وعبثا كانت محاولة الرؤساء المسلمين التفاهم مع خصم زاهٍ بنشوة النصر.

وما أن حان موعد رمضان من السنة الموالية 647=يناير 1250 حتى استقلت **سبتة** - تتبعها طنجة - عن مبايعتها للحفصيين بتونس! ووجدنا أبا القاسم العزفي ينشئ له «إمارة» بمساعدة قائد البحر أبي العباس الرنداحي [1] ...

ولقد أضفت كتب التاريخ، وفي صدرها البيان المغرب، على شخصية أبي القاسم العزفي من صفات الكفاءة والدراية والجهاد ما يفسره إقبال الناس عليه وثقتهم فيه [2]

لكن إستقلال العزفيين بالمدينة لم يكن يعني قطع صلتهم بالسلطة المركزية، وبهذا نفسر استمرار مخاطبة أبي القاسم العزفي للخليفة المرتضى في كل الأوقات، لقد استمر يخاطبه بما يجب له من التخطيطات ويعرفه بجميع الأمور والأخبار و«المتزيّدات» حتى يظل على علم بما يجري مما يتصل بعلاقة المغرب بالعالم المجاور ...

وقد كان العزفي في بداية ظهوره طلب إلى المرتضى أن يبعث له بما يشبه أن يكون «ممثلا» له في ثغر سبتة الأمر الذي جعل الخليفة يبعث له بابن أشرقي، لكن أبا القاسم لم يلبث أن أخرج هذا بعد أشهر من وصوله[3]!

ومع هذا ظل أبو القاسم وفيا للعهد الذي قطعه على نفسه من إطلاع القادة المغاربة على كل ما يصله من أصداء معادية للمغاربة ... ومن ثمت وجدناه لا يتردد في إبلاغ العاهل المغربي

---

1) البيان المغرب ص 400/401 .

2) لا بد أن نذكر هنا بأن عادة إحتفال المغاربة بعيد المولد النبوي ترتبط باسم أسرة العزفي، أنظر بحثنا حول الموضوع...

3) البيان المغرب ص 414 .

المرتضى، وإبلاغ سائر قواد الموانئ والمراسي عن الحركة الغير العادية التي شعر بها عندما سمع عن الاستعدادات العسكرية التي يقوم بها ملك قشتالة، بل عن مرور الأسطول أمام جزيرة قادس ![1]

وقد حدث أن أصبح أحد الأمراء المتهورين من بني مدين : عبدالله بن يعقوب بن عبد الحق على حالٍ من خلاف مع يعقوب بن عبد الحق فتعجل الاستيلاءَ على الحكم ! وأراد التمكن من مدينة سلا وظهر له أن يستنجد بملك قشتالة الذي نعرف تطلعه إلى المغرب ... مما سنقرأ عنه في الباب السابع حول بني مرين ...

ليس المهم هذا ولكن المهم أن نسجل أن الخليفة المرتضى، والبلاد على ما نعرفه من تمزق وتفتت، يقوم بإرسال كتاب يشكر فيه أبا القاسم العزفي على ماكان يحذر من أمره ويسأله أن يتتبع أخبار النصارى ويوفيه بها أولا بأول !!على ما نقرأه في فصول الرسالة التي أوردها ابن عذارى وهي تحمل تاريخ 3 دي القعدة 658=10 أكتوبر 1260

ومن جهة أخري فإنه بالرغم من هلهلة الوشائج التي تربط السلطة المركزية بسائر أطراف الخلافة والتي ترجع للأسباب العميقة التي ذكرنا : هزيمة العقاب أولا، والاستعانة بالنصرانية ثانيا، فإن المرتضى – وقد قرر أن يعيد النظر في تنظيم جيشه وعساكره لمواجهة المتطلعين الجدد – وجه إلى الأندلس بعثة للحصول على « جمع من النصارى ليركبهم معه ويكونوا له أعوانا وأنصارا لمقاومة خصومه».

ومما زاد في استفحال الوضع أن الخليفة المرتضى أمسى غير مكترث بما يستجد من أخبار عمّا يجري في البلاد وقد بلغ الأمر إلى حدّ أن دخل عليه في قصره الأمير الموحّدي الناشئ أبو دبوس ...!

وحتى آخر لحظة، قبل أن يغادر المرتضى مراكش لغير رجعة، كانت أصداء [2] أسماء القواد المسيحين تتردد في جنبات القصر، فهذا : زنار ... وهذا : غرسية طالس .... وهذا : القطلاني!

1) البيان المغرب ص 424/426 .

2) لقي المرتضى مصرعه على مقربة من أزمور مولاي بوشعيب في ظروف محزنة وصفها ابن عذاري في البيان المغرب.

العلاقات بين المغرب وبين أراغون

ولا بد أن نقف بعد هذا - ونحن في المنطقة - حول علاقات المملكة المغربية مع مملكة أراغون . . .

ومن هنا ينبغي أن نذكر بالإشارة التاريخية الأولى حول العلاقات التجارية التي تربط أراغون بإفريقيا . . .

وكما هو الشأن دائما فإن المصالح الاقتصادية تتقدم المبادرات الدبلوماسية. وهكذا منذ 624=1227 أي أيام الخليفة المامون وفي أثناء صدام أمير الجزر الشرقية (الباليارس) والملك جاك الغازي وجدنا الاشارة إلى مراكب كَطلانية تقوم بالتجارة بين بجاية وسبتة من جهة وميورقة وبرشلونة من جهة أخرى . . .

وفي سنة 1227=626 بينما كان الملك جاك يتهيأ لاحتلال ميورقة وفي إطار الاحتياطات التي اتخذها، قرر منع شحن البضائع الاراغونية المتجهة إلى ميناء مصر أو ميناء سبتة، على متن السفن الاجنبية وقصر ذلك على المراكب القطلانية، اللهم في حالة عدم وجود أي مركب قطلاني في برشلونة بتعهد بحمل البضاعة. . . الأمر الذي نقرأه في قرار الامتيازات الذي صدر بتاريخ 12 أكتوبر 1227=29 شوال 624 عن جاك الأول ملك أراغون وسيد مونبوليي، وهو يقضي بأن أية سفينة تأتي إلى برشلونة من وراء البحار، من الاسكندرية أو من سبتة، أو أية سفينة تطلب الرسو في تلك البلاد، لا يمكن لكل من تلك السفن أن تقوم بشحن أية بضاعة على متنها أو أية مادة من المواد المصدَّرة ما دامت توجد هناك سفينة لبرشلونة يمكنها القيام بذلك.

وقد كان مما استدركه الكونت لا ترى على الوثائق الاراغونية . . . مما يعبر عن وجود علاقات بين الجهتين هذه الوثيقة التي تعود لأواخر دولة الموحدين بالمغرب وبالتحديد بتاريخ 15 يناير 1258=8 محرم 656 حيث وجدنا جاك الأول ملك أراغون يرفع عن سفيره، وعن ولده پيير أرنال الاتهامات الملصقة بهما بسبب الاختلاسات التي اتهما بها سواء في برشلونة أو ميورقة، بونة أو تونس، بمناسبة المبالغ المستحقة للميليشيات المسيحية التي كانت في خدمة ملك تونس، وبمناسبة إفتداء الأسرى، وكذلك بمناسبة تسلم الهدايا المختلفة الموجهة سواء إلى ملك أراغون أو قائد الميليشيات المسيحية ومختلف القضايا التي عهد فيها لأرنال لمعالجتها مع أمير المؤمنين . .

وبتاريخ 4 يونيه 1259=10 جمادى الثانية 657 وجدنا شهادة إبرام وإعفاء عن الملك جاك لكيوم دو طولوزا (de Tolosa .G) من حسابات ومداخيل قنصلية وفندق القاطلان في بجاية.

الفصل الرابع

- علاقة الخلافة الموحدية بالكرسيّ البابوي
- دولة الموحدين وجمهورية بيزة
- العدوان على المسطحات الموحدية
- اضطرار الموحّدين لتجاهل مبدأ المسؤولية الشخصية !
- فترة انتقال الأرقام العربية إلى أروبا ...

علاقة الخلافة الموحدية بالكرسي البابوي

إن أبرز العلاقات التي دشنت بين الموحدين وبين البابا هي السفارة التي بعثها إلى مراكش البابا إينوصات الثالث مصحوبة برسالة تحمل تاريخ 8 مارس 1198=27 ربيع الثاني 594 تطلب من الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور أمير المؤمنين (MIRAMOLINO) أن يعتمد البعثة فيما تنقله إليه حول مصير «الأربعين ألف أسير مسيحي» كان المنصور يحتفظ بهم في أعقاب الحملات الظافرة التي قام بها في الأندلس لصد العدوان، وتحتفظ المصادر الأروبية بنصوص هذه الرسالة.

ولقد حدثت - كما علمنا- بعض الاضطرابات التي شهدتها الساحة الأندلسية والمغربية بعد نكسة العقاب.

ولقد كان الخليفة المأمون رأى على ما أسلفنا أن يستنصر بملك قشتالة لكي يمده بقوة من المرتزقة النصارى يستعين بها علي قتال خصومه ... وقد عرفنا كيف أن هذا الملك اشترط علي المامون لمحالفته وإمداده، إضافة إلى امتلاكه بعض الحصون، شروطا أخرى منها أن يبني للنصارى في مراكش كنيسة يقيمون فيها شعائرهم وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ... وإن تنصر أحد من المسلمين فليس لاحد عليه من سبيل ...! وقد كانت الكنيسة أكثر من محل للعبادة إذ كانت في أحيان كثيرة ملتقى للقادة والجند الروم [2]

1) De mas Letru Doyen P.
2) P. PROVENCAL : DOCU INÉD. D'FLHST ALMOHAD PARIS 1927 .P 200.
PIERRE DE CENVAL : L'EGLISE DE MARRAKECH; P: 74
الاستقصا ج 2، ص 206 -207 .

وقد وجدنا أن البابا إينوصانت الرابع يتقدم بتاريخ 31 أكتوبر 1246=18 جمادى الثانية 644 بالشكر إلى ملك المغرب على «الإمتيازات» وعلى الالتفاتات المتنوعة التي يقدمها إلى الكنيسة في ولاياته، وإن البابا يهنئ بالنصر الذي أحرز عليه العاهل المغربي ضد أعدائه بمساعدة المسيحيين المدعوين إلى إفريقيا، وبهذه المناسبة فإن البابا يدعو العاهل المغربي «لاعتناق» الديانة المسيحية! مقدما الوعد بالمساندة الخاصة للكرسي البابوي، وهو يطلب أخيرا من الخليفة الموحّدي إذ يوصيه خيرا بالاسقف الجديد بالمغرب - أن يتنازل للمسيحيين الموجودين بالمغرب عن بعض القلاع داخل البلاد أو على الساحل للاحتفاظ بها، حيث يقوم المسيحيون - عند الاقتضاء - بالحفاظ على أمن المغرب ويطلبوا النجدة الخارجية بسرعة وسهولة، وهو الأمر الذي يحقق فائدة مزدوجة سواء بالنسبة للكرسي البابوي أو بالنسبة للمملكة المغربية!

وحسب الوثيقة البابوية المؤرخة يوم 19 دجنبر 1246=9 شعبان 644، فإن البابا إينوصانت الرابع يعلن للمسيحيين المقيمين في الأقطار الإفريقية تسمية الاسقف الجديد للمغرب: لوب (LOUP) ويطلب إليهم أن يسمعوا إلى هذا الحبر في الأوامر التي يطلبها، كما يجب عليهم طاعة سابقه أنييلو(AGNELLO)

وفي أيام الخليفة أبي حفص عمر المرتضى 646=665=1248-1266 وبالذات في تاريخ 16 مارس 1215 =21 ذي الحجة 649 وجدنا البابا إينوصانت الرابع يجرؤ من جديد على أن يطلب إلى أمير المؤمنين المرتضى هذا، أن يتنازل عن بعض المواقع الدفاعية على السواحل المغربية للمسيحيين المقيمين في الأقاليم المغربية حتى يضمن الأمن والسلام لزوجاتهم وأسرهم التي تعيش بين المسلمين وخاصة عندما يكون أوائك الجند غائبين في خدمة الملك أو في جهات أخرى من المغرب... إن البابا يعلن لأمير المؤمنين (MIRAMOLINO) بأنه في حالة ما إذا لم يتوفر الأمن والسلام المطلوب لهؤلاء، فإن الكرسي البابوي سيجد نفسه مضطرا لكي يطلب إلى الأسقف في المغرب بأن يمنع المسيحيين المقيمين في البلاد من خدمة العاهل، كما ينصح المسيحيين الآخرين أن لا يقصدوا الولايات المغربية!

وقد بعث المرتضى من حضرة مراكش بجوابه إلى البابا مع الأسقف لوب سالف الذكر وهو كتاب من صفحتين يحمل تاريخ الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة648=10 يونيه 1250 بهذا

العنوان على حدة : « إلى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية، وقيم الملة المسيحية... البابا اينّه سانس، أنار الله تعالى بصيرته بالتوفيق والإرشاد ومنحه بتقواه سعادة المحيا والمعاد »

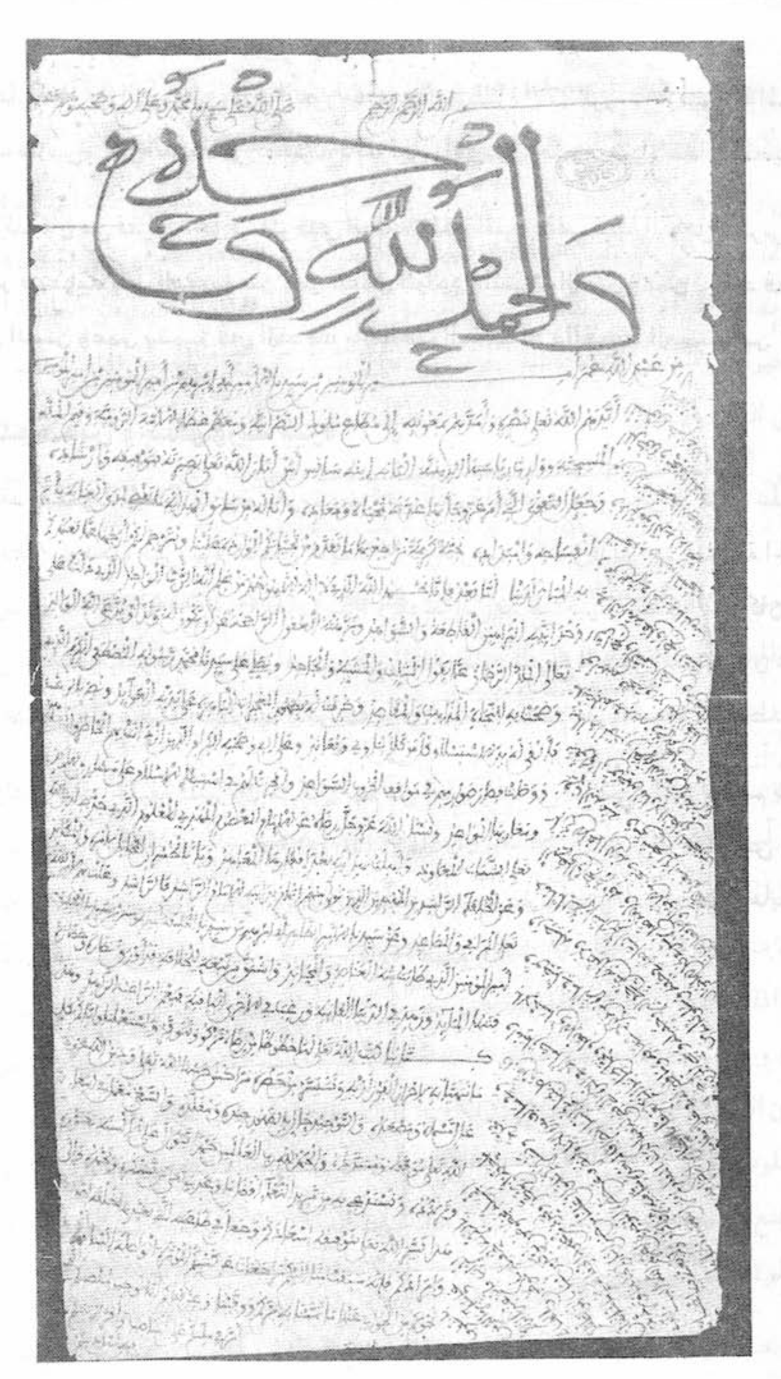
وقد كان من فقرات الجواب الموحّدي الهامة الفقرةُ التي يطلب فيها العاهل المغربي من البابا أن يتخير مبعوثيه إلى المغرب من أهل العقل الراجح والسمت الحسن وممن يسلك في النزاهة على واضح السنن وممن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن[1]

دولة الموحدين وجمهورية بيزة

لقد إستمرت العلاقات بين المغرب وبيزة في الفترة الموحدية على نحو ما كانت عليه بالأمس أيام المرابطين. وهكذا ففي يوم سادس مايه 1166=4 رجب 561 وجدنا أحد قناصلة الجمهورية : كوكو كريفي COCO GRIFFI يغادر بيزة ويقصد إلى بلاط أمير المؤمنين الذي كان على ذلك العهد هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن وفي أثناء مفاوضته مع العاهل المغربي كان عليه كذلك أن يقوم بمهمة إنقاذ سفينة اضطرتها العواصف إلي ساحل جيجيل في المغرب الأوسط.

ولقد أعاد الخليفة للبيزيين ما كان لهم من إمتيازات في الماضي واعترف لهم بحق إنشاء «الفندق» التجاري الذي كان لهم في (زويلة) الآهلة بالتجار الأوربيين، وقد أعلن عن « السلام» بين جمهورية بيزة طوال مدة ملكه، وبهذه المناسبة سلم الخليفة للسفير البيزي عند ذهابه عددا من الهدايا التي كانت مرفوعة، فيما يبدو إلى قادة الجمهورية.

1) د. التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6 ص 170 .



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله وحده

جانب من جواب الخليفة المرتضى إلى البابا يطلب منه أن يتخيّر سفراءه للمغرب من أهل العقل الراجح ...
عن مكتبة حاضرة الفاتيكان مع شكرنا على المساعدة.

وفي 6 ذي الحجة 576=23 أبريل 1181 توجه رئيس بيزة وأسقفها أوبالدي (UBALDE) وكان أيضا حاكما لكورسيكا وسردانيه- برسالة إلى أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين من مدينة بيشة، وقعت فيها الإشارة إلى اتفاقية كوكو كريفي يذكر فيها أن مركبا تابعا لجزيرة صقلية أوسق بالقمح من الجزيرة، وبينما هو في طريقه إلى وجهته أضطرته أحوال الطقس إلى الرسو بأحواز طرابلس، ولما كان الماء المتوفر لديهم قد خلص نزلوا يبحثون عن الشرب فمنعهم أهل المكان، وفي إثر هذا وصل مركب من مقدم طرابلس فقبض عليهم وهم الآن في سجنه ... وتتخلَّص الرسالة إلى التوسل إلى «فضل سيدنا أمير المؤمنين - أيده الله - لينفذ أمره العلي بتسريحهم بجملتهم وجميع مالهم إلى أوطانهم ... لما أنهم مؤمَّنون في أنفسهم وأموالهم بجميع بلاد الموحدين، لا نائبة تنوبهم ولا ضريبة تلزمهم سوى العشر المعتاد. [1]

ويبدو بالرغم من هذا أن البيزيين لم يسترجعوا سائر ماكان لهم، على العهد المرابطي، وهكذا فقد سجلت بعض الحالات في بجاية تؤكد أن بعض ولاة الموحدين كانوا لا يستجيبون لبعض مطالب البيزيين الأمر الذي تفسره الشكوى التي رفعتها بيزة إلى الخليفة يوسف، بواسطة رسائل متتابعة [2] توضح المصاعب التي تقف حيال التجار البيزيين فهم أحيانا يمنعون من شراء بعض البضائع المغربية كالجلود المدبوغة على ما تنص عليه الرسالة التي تحمل تاريخ 19 مايه 1181=3 محرم 577 والتي أورد نصها دوماص لاتري (DEMASS LATRI) في كتابه سالف الذكر، وهم حينا آخر، عندما يريدنون الإقلاع بمراكبهم - بعد انتهاء مهامهم يلقون صعوبة بحجة التحري؟!

وفي أول يوليه 1182=26 صفر 578 وجه أسقف بيزة وكورسيكا وسردينية رسالة أخرى إلى الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف مع مبعوث خاص. وقد وقعت الإشارة أيضا في رسالة الأسقف إلى الاتفاقية التي كان عقدها كوكو كريفي [3].

1) أنظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6 ص 176/177 .
2) د. التازي : نفس المصدر السابق، ص 4 .
3) د . التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 177 .

رسالة من أسقف بيزة إلى الخليفة الموحدي وهي بتاريخ 16 ذي الحجة 576=23 أبريل 1181

وقد أصبح من الضروري بالنسبة للبيزيين أن يجددوا الاوفاق بين الفينة والأخرى حتى لا تتعرض مصالحهم في إفريقيا إلي تهديد، ويظهر أنهم، أي البيزيين، توصلوا بتصديق جديد من لدن الخليفة يوسف يوافق على إمتيازاتهم، بالرغم من أن إتفاقيات 1166=561 تنص على أنها تبقى سارية المفعول طوال حلوس الخليفة على العرش على ما قلناه ...

ومن جهة أخرى فقد وجدنا أن «إمارة» ميورقة تعقد بتاريخ أول يونيه 1184=19 صفر 580 إتفاقية سلام وتجارة مع جمهورية بيزة التي أشركت معها مدينة (لكة LUCQUES) في مفاوضاتها مع أبي إبراهيم إسحاق بن غانية الذي أصبح سيد الجزر الشرقية (الباليار) ...

وقد أبرمت الاتفاقية لفترة عشر سنوات قمرية، بواسطة السفير البيزي : سيجييرو دي أوكيسيونيلو دي كالاندي (SIGIERO DI UGNCIONELLO DE GUALANDI) سفير الجمهورية لدى الفقيه أبي أبراهيم اسحاق.

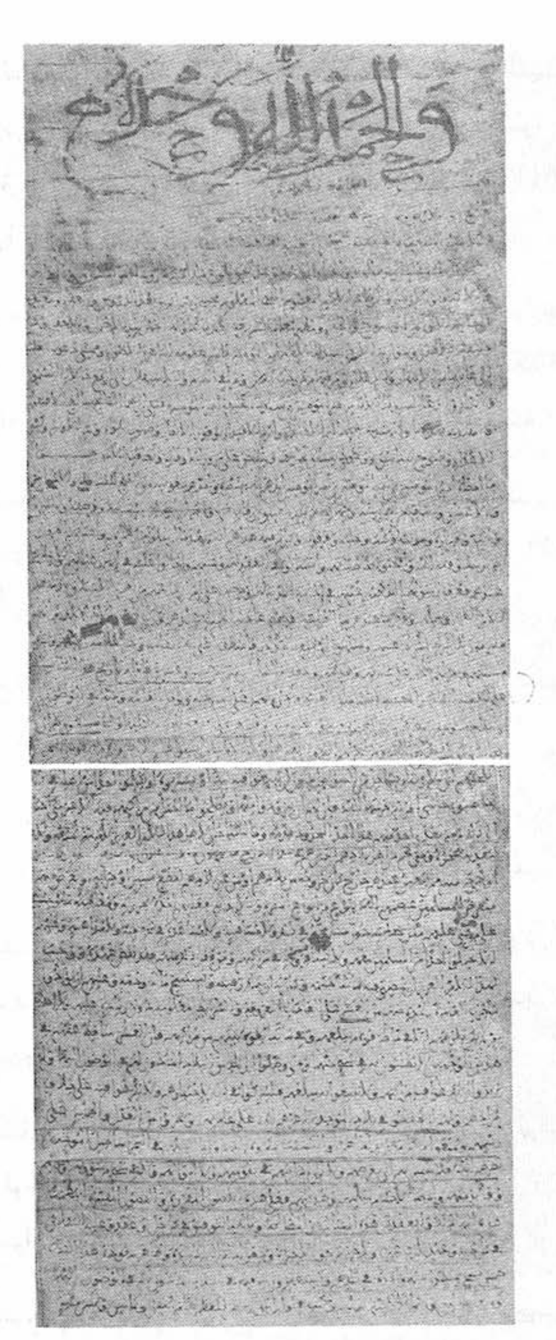
وفي هذا التاريخ نفسه نقف على رسالة أبي إبراهيم إسحاق إلى أسقفية بيزا وقناصلتها في موضوع عقد الاتفاقية المشار إليها ...

ولقد لا حظ (دوماص لا تري) بأن النصين الأصليين لعقد السلام، وللخطاب كذلك كتبا، كل منهما على حدة في رق الغزال، وهما محفوظتان اليوم بأرشيف فلورانس ...

وفي أعقاب استشهاد الخليفة أبي يعقوب يوسف، قررت جمهورية بيزة أن تبادر بإرسال سفارة إلى الخليفة الجديد أبي يوسف يعقوب المنصور لتقديم التعازي ولتعرب عن الرغبة في مواصلة المسيرة مع الدولة .

وهكذا وجدنا سفارة تحل بالمغرب منذ الأيام الأولى لتنصيب أمير المؤمنين، وقد دخلت في مفاوضات مع الخلافة الموحدية حيث توفر البيزيون بتاريخ 15 نونبر 1186= أول رمضان 582 على مرسوم يضمن لهم استمرار تعاملهم مع المغرب، ويحدد عددا من الواجبات الملزمة لكل الطرفين..

ويعتبر هذا المرسوم بمثابة عقد للسلام والتجارة يستمر مفعوله لفترة خمس وعشرين سنة ... وهو يخول التجارة للبيزيين مع الإذن في التموين وإصلاح سفنهم بألمرية مع النّص على العُشُر.



والحمد لله وحده

المعاهدة الموحدية البيزية في شكل خطاب لقادة بيزة، تنص على أمد المعاهدة وعلى تحديد الموانئ المأذون في النزول بها وعلى العشر الواجب للديوانة وعلى كتابة خمس نسخ من الاتفاقية.

لقد كان مما جاء في هذه المعاهدة بين بلاد المغرب وبلد العتيق -كما تسميها الوثيقة- «بعد الرضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم، تحديد المراسي الخمس التي يباح لهم الوقوف بها، وهي سبتة - ألمرية - وهران - بجاية - تونس [1]

وفي بداية عهد الخليفة أبي عبد الله الناصر بن المنصور 595-610=1198-1213، وبالذات بعد مضي نحو من سنتين على تسلمه الحكم، عرفت العلاقات المغربية البيزية فترة حرجة كان سببها العدوان الشنيع الذي شاهده مرسى تونس 596=1200 من لدن بحارة ينتسبون لبيزة بالرغم مما كان يربط بين البلدين من علاقات وصلات طيبة...

إن كل الذين كتبوا عن هذا العدوان، وفي صدرهم دوماص لاتري، لم يترددوا في إبداء استغرابهم من هذه الغارة الهوجاء التي لم يكن لها ما يبررها!

وهكذا ففي النصف الثاني من شهر شوال 596=أواخر شهر يوليه والأيام الأولى لشهر غشت من سنة 1200 ، قامت سفينتان شراعيتان بيزيتان، من نوع خاص سُمّي باللغة العربية (مسطحات)، كانت إحداهما تحمل إسم «لوركيوز» والأخرى تحمل إسم «لاكوروني» وكانتا تقومان بسفر صحبة سفينتين حربيتين بيزيتين ... وسرعان ما حطّت المجموعة في ميناء تونس غير بعيد عن ثلاث مراكب تابعة للمسلمين : كانت إحدى الثلاثة مشحونة وتستعد للاقلاع نحو المشرق فيما يتأكد، وفجأة قام البحريون البيزيون بسطوهم على المراكب الإسلامية فضربوا الربابنة المسلمين وجرحوهم وقتلوهم وأغرقوهم ... وأهانوا النساء ثم أخذوا المراكب الثلاثة إلى قباطنة المسطحات!

وقد كان حاكم تونس بالصدفة هو الأمير السيد أبو زيد عبد الرحمان من أسرة أبي حفص المنحدرة من الخليفة عبد المؤمن، وقد كان الخليفة الناصر سماه قبل قليل حاكما للمنطقة الشرقية من المغرب الكبير.

---

1) - AMRI : DIPLOMI P : 17

- التاريخ الدبلوماسي للمغرب ح ذ، ص 180 - 181 .

وقد أعطى هذا أمره بدعوة الرؤساء والبحارة وكذلك التجار الذين استلبت أمتعتهم، دعا الكلّ للفصل في القضية وطلب من كل واحد من التجار أن يتحرى الصدق حول ما ضاع منه، واتفق رأي الجميع - بعد أن بلغهم أن بيزة امتنعت من معاقبة المذنبين، اتفقوا على تخطي مبدأ المسؤولية الشخصية وحكموا بتعويض التجار المسلمين المظلومين، وهكذا عوض هؤلاء مقابل ذلك من قمح كان بالميناء للتجار البيزيين ... بيع بحضور التجار والشهوذ وكتاب الديوانة ... وبما أن قمح البيزيين لم يغطّ سائر ما استلبه القراصنة فقد بيع قمح التجار اللكيين (Lucques) [1]... وقد عهد إلى كاتبٍ تابع للجمهورية البيزية يحمل إسم دي مانودي سينو (dimano di cino) بإعداد كشف بأسماء الملاك وبمقادير القمح الذي أخذ لهم ... واشهد على ذلك من لدن العدول ...

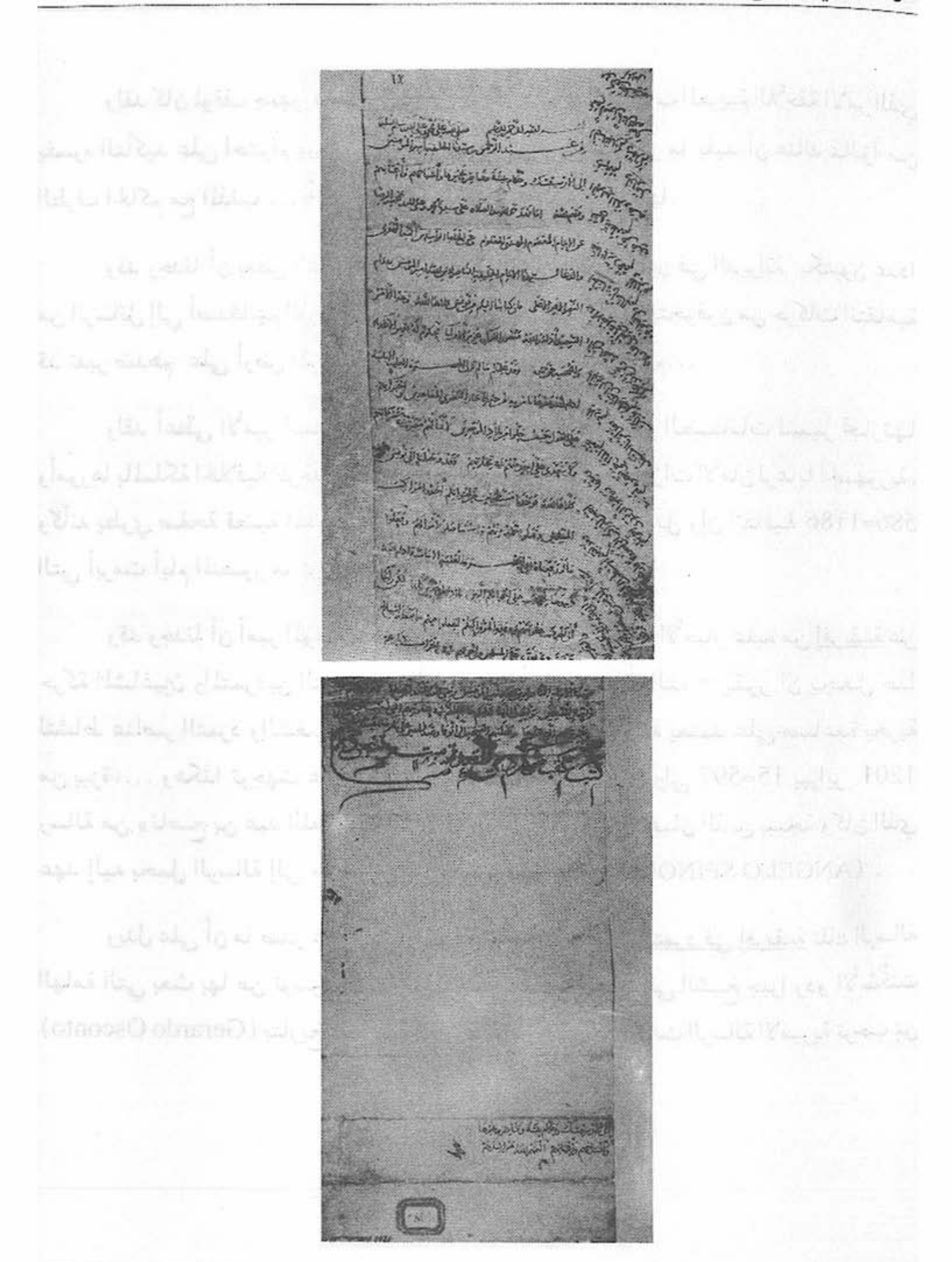
وقد خلفت هذه الحادثة ذيولا على شتى الأنواع ... وقد حفظ لنا الأرشيف عددا من المراسلات الخاصة بهذا المشكل ... وكان من تلك المراسلات الكتاب الكريم الذي أرسله الأمير السيد أبو زيد عبد الرحمان ابن الخليفة أمير المؤمنين، المؤرخ بمتم ذي القعدة 596 الوافق يوم 11 شتنبر 1200 بعد الرضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم، من تونس إلى حكام بيشة، يستغرب من صنيع المعتدين وموقف الحكام [2]...

فماذا كان موقف الجمهورية؟ لقد بدا أنها كانت متحفظة إزاء المبادرة المغربية، وهكذا فإنها رفضت أن تعوض التجار البيزيين واللكيين الذين أخذت أموالهم بأمرٍ من أمير تونس!

ومن ثمت وجدنا أن الأمير أبا زيد عيد الرحمان يوجه برسالة جديدة إلى قادة الجمهورية يعرف بما أخذ من طرف التجار مرةً أخرى عن «إخوانهم» البيشانيين على ما نفذ به أمر سيدنا الامام الخليفة، ويطلب إليهم أن ينصفوا هؤلاء الذين أخذت منهم التعويضات ويصدقوهم فيما يرفعون لاشياخ بيشة، وكانت هذه الرسالة محررة في مستهل رمضان 597=5 يونيه 1201 [3]

---

1) Amari p 33-34
2) Amari Duplomi
-د. التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص .190
3) - AMARI DUPLOM p. 45
- د . االتازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 196 - 197



رسالة من الأمير الموحدي عبد الرحمن بن الخليفة أمير المومنين إلى حكام بيزة في شأن المسطّحات وهي بتاريخ متم ذي القعدة سنة 596= الموافق 11 شتنبر 1200

ولقد كان لموقف جمهورية بيزة أثر على طريقة صياغة المعاهدات المغربية اللاحقة الأمر الذي يفسره التأكيد على احترام مبدأ المسؤولية الشخصية، ما لم يظهر ما يفيد أن هناك تمالؤاً من الطرف الحاكم مع المذنب ... أو من الجهة التي يعمل تحت مسؤليتها.

وقد وجدنا أن بعض التجار والتراجمة والموظفين الذين يعملون في الديوانة يكتبون عددا من الرسائل إلي أصدقائهم الذين يعرفونهم في بيزة من الذين كانوا يتخوفون من حركات انتقامية قد تدبر ضدهم على أرض الموحدين يطمئنونهم على مستقبل الأيام...

ولقد أعطى الأمير السيد أبو زيد نفسه لجمهورية بيزة سائر الضمانات لسير تجارتها وأمورها بالمملكة الخلافية الموحدية، وهكذا وجدناه يسلم عددا من جوازات الأمان لرعايا الجمهورية، وكأنه يطوي صفحة قضية المسطحات، إن معاهدات السلام لم تمت بل وإن اتفاقية 1186=586 التي أبرمت أيام المنصور ما تزال مطبقة[1].

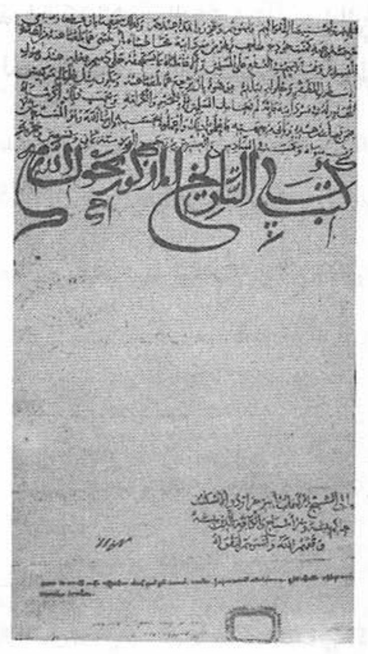
وقد وجدنا أن أمير المومنين الخليفة الناصر - وقد كثر توارد الأخبار عليه من إفريقية عن حركة المشاغبين والمتمردين التي استعر أوارها في أعقاب وفاة والده = يقرر أن يجعل حدا لنشاط عناصر التمرد والشغب في تلك الجهات، ولنجاح ذلك فإنه يعتمد على مساعدة بحرية من بيزة،... وهكذا توجهت عن الأمر العالي بتاريخ 9 جمادى الأولى 597=15 يبراير 1201 رسالة من «ناصح بن عبد الله بسبتة إلى القناصلة والاشياخ والاعيان الذين ببيجة وكان الذي عهد إليه بحمل الرسالة إلى مجلس بيزة الاكرم أنجلُوسبنوله (ANGELO SPINOLA) .

ويدل على أن ما صدر عن الأمر العالي كان يتعلق بقضايا التمرد في إفريقية تلك الرسالة الهامة التي بعث بها من تونس الأمير أبوزيد ابن سيدنا الخليفة، إلى الشيخ جيرا ردو الأسْكُنت (Gerardo Osconto) بتاريخ 26 رجب 598=21 أبريل 1202، كانت الرسالة الاميرية ترحب بمن

---

1) - Amari : Diplomi P : 21/ 30
- التاريخ الدبلوماسي للنغرب ج 6، ص 199 .





كان الناصر الموحدي مضطراً لإسكات حركة التمرد في تونس فعاد لمصانعة بيزة وتجاهل قضية المسطحات وهذه رسالة هامة تحمل تاريخ 26 رجب 598=21 أبريل 1202.

يصل من جهة بيزة ولكنها تحذر من جهة أخرى من الاتصال بالعدو الغادر ابن عبد الكريم الموجود بالمهدية، والذي وجهنا لحصاره قطعا مظفرة[1]

وقد استمر تبادل السفراء، والرسائل بين الطرفين إلى أواخر أيام الخليفة الناصر عندما كتب الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص إلى القنصل الأجل كُدفري دسكونت(Kodifri Desekunt) كتب إليه بتاريخ 28 ربيع الأول 607=19 شتنبر 1210 يخبره بوصول السفير المبعوث من قبله جيراردو Gerardo وتناول الموضوع العلاقات الطيبة بين الجهتين وعندما نجد أحد رعايا الموحدين وهو عمر بن أبي بكر الصابوني يتوسط أيام الخليفة «السابع أبي محمد عبد الله «العادل» بن يعقوب المنصور لدى بيزة حتى تنصف بعض الرعايا اليهود والمتنصّرين ممن ينتسبون للخلافة الموحدية...

وقد عرفنا عن الحركة الانفصالية التي قام بها الأمير أبو زكرياء يحيى عن الإدارة المركزية صراحة عام 634=1237 أو منذ 625 = 1228 في رأي آخرين ...

ومهما تكن أسباب هذه الحركة الانفصالية فسنشير هنا إلى معاهدة التجارة المبرمة، غشت عام 1234= ذي القعدة 631 لفترة ثلاثين سنة بين جمهورية بيزة وبين «ملك» تونس أبي زكرياء بن أبي حفص...

---

1) - Amari p : 65 -66

- د . التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب 6 ص 200/201

نقل الأرقام العربية إلى أوربا

ولابد أن نلاحظ أنه من خلال تلك العلاقات وهذه الاتصالات كنا نلاحظ وجود عددٍ من الموظفين والخبراء الذين كانوا يقدمون المساعدة للدولة في الموانئ المغربية المتناثرة على طول الساحل... وعن طريق هؤلاء انتقلت إلى أوربا طائفة من مظاهر الحياة ونذكر بهذه المناسبة ما أثر من نقل الأرقام التي عرفت في الموسوعات العالمية باسسم الأرقام العربية.

لقد كانت المرحلة الأولى لنقل هذه الأرقام هي التي تحدث عنها المستشرق الروسي كرِيستوڤيتش الذي قال : إن جيربير : (الذي أصبح البابا سيلفيستر الثاني) نقلها من فاس عندما كان يأخذ العلم على رجال جامع القرويين ...[1]

أما المرحلة الثانية فهي التي تحققت منذ بداية الموحدين عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن، وهذه المرة بواسطة (ليوناردو بوناسي (Léonardo Bounacci) البيزي ... [2]

ومعلوم أن هذه الأرقام وجدت على شكلها في مخطوطة العالم الرياضي ابن الياسمين المتوفى سنة 601 هجرية ...

---

1) د. التازي : جامع القرويين : ج I ص 6115 طبعة ثانية . دار المعارف 12000= ص 115
2) SIGARID HUNKE : ALLAH SONNE UBER DEM ABENDLAND - UNSER ARABISCHES
فضل العرب على أروبا، ترجمة د، فؤاد حسنين علي، دار المعارف بمصر، طبعة ثانية، ص 74 .

التي وضعت للعدد تسعة اشكال تتركب عليها جميع العدد
وهي التي تسمى اشكال الغبار وهي هذه ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ 7 8 9
وقد تكون ايضا هكذا ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ولكن الذي
عندنا على الوضع الاول ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها
او عكسها لجاز وحدها العمل على حاله لا يتبدل وقد صنعها
قوم من جواهر الارض مثل الحديد والنحاس من كل شي منها
اعداد لتبرم ويضرب بها ما شا من غير نقش ولا محو واما
اهل الهند فانهم يتخذون لوحا اسود ذا مدرون عليها الغبار وينقشون
فيه ما شاوا ولذلك تسمى حساب الغبار وعلى الحقيقة ليس
الا المراد والمحو [illegible] ثم ان هذه الحروف ليست تدل على
الاحاد وحدها بل هي دالة على العشرات والمئين والالاف
وعلى سائر المراتب المذكورة فما كان منها في بيت الاحاد
فهو دال على الاحاد وما كان منها في المرتبة الثانية التي هي منزلة
العشرات فهو دال ايضا على العشرات قليلها وكثيرها ان كان
واحد فهو عشرة وان كان اثنان فذلك عشرون ولذلك الى التسعين
وكذلك ما كان في البيت الثالث التي هي منزلة المئين وبيتها
فهو ايضا دال على المئين وكذلك الالاف وعشراتها ومئيها
وتكرارها وسائر المراتب فان قيل لك كيف صورة خمسة
عشر بهذه الاشكال تقول احاد فتجعل خمسة وتقول عشرة فتجعل
في المرتبة الثانية منزلة العشرات علامة واحد فهي عشرة واحد
على هذه الصورة ١٥ ولو كانت عشرين لجعلت اثنين لان

عن العرض الذي قدمه د. التازي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الستين أبريل 2000

الفصل الخامس

- العلاقات بين المغرب وفرنسا
- العلاقات بين المغرب وبين جنوة
- العلاقات بين المغرب وصقلية
- اختطاف الأميرة الموحدية وإعادتها لوالدها
- تطبيع العلاقات بين المغرب وصقلية
- الحوار بين الديانات
- العلاقات بين المغرب وبين البندقية

العلاقات بين المملكة المغربية وبين:
فرنسا /جنوة/صقلية/ البندقية

مع فرنسا

سنلاحظ أن العهد الموحدي تميز بالنسبة لعلاقاته مع فرنسا بثلاثة أحداث بارزة،أولها كان يتعلق بقضية استهدفت لها فرنسا من طرف«الانفصاليين» عن الحكم المغربي في الجزر الشرقية (الباليار) ثانيها كان إستنجادا من فرنسا بالعاهل المغربي ... وثالثها كان يمس العلاقات التجارية بين البلدين ...

عندما انفصل بنو غانية في الجزر الشرقية عن السلطة المركزية وقطعوا صلاتهم بباقي الأندلس فكروا في الانفتاح على جيرانهم الآخرين من الممالك النصرانية في ذلك العهد، ولكي يشعرو تلك الجهات بوجودهم من جهة، ويظهروا كمجاهدين في نظر محكوميهم من جهة أخرى، عمدوا - بعد أن قوّوا من أسطولهم - إلى شن سلسلة من الغارات المنتظمة علي السواحل القريبة من ميورقة حيث كانوا يحصلون على عدد من الغنائم.

وفي أبرز ما سجلته الروايات النصرانية ماقام به الميورقيون في عهد أبي إبراهيم إسحاق بن غانية من غزو لثغر تولون جنوب فرنسا والاستيلاء عليه سنة 1178=574 حيث أسروا الفيكونت

هوجو صاحب مرسيليا مع عدة آخرين من كبار النصارى [1].

وقد حاول ريموند (Raymound) السادس البحث عن نجدة مؤازرة العاهل الموحدي ليصمد أمام خصمه سيمون دومانتفور (Simon de Monttfort) وطلب على الخصوص التنازل له عن قسم من الميليشيات المسيحية التي كانت تعمل في الجيش الموحدي.

ومن جهة أخرى فقد تحدث التاريخ عن وجود مجموعة من التجار الفرنسيين، وبخاصة تجار مرسيليا في مدينة سبتة لمزاولة نشاطهم هناك ابتداءا من سنة 1212 = 608 ... وقد كان لهم فندق خاص بل كان هناك قنصل عام يعنى برعاية مصالح أولئك الفرنسيين، وممن عرفت أسماؤهم من المغاربة حاكم سبتة ابن خلاص !! وقد كان لأهل فاس دور في تنشيط هذه العلاقات بما كانوا يتقبلونه من الواردات المسموح بها وما كانوا يصدرونه من ذهب وفضة وأنواع الحرير[2] ...

وقد أورد الكونت دوماص لاتري "مستخلصات" من سجلّ مرسيليا عن تجارة المرسيليين في ديار المغرب وبخاصة بعض المواد التي كانت رائجة بين التجار الأجانب في أربعة ثغور مغربية : سبتة ووهران وبجاية وتونس.

وفي أيام الخليفة أبي حفص عمر المرتضى، وبالذات، حوالي سنة 652-653 = 1255 وقفنا على "مستخلصات" من سجلّ مرسيليا تتعلق بتسمية قناصلة مرسيليين في ما وراء البحار، وفي ديار المغرب [3]

---

1) A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dminacion Islamica en las islas Baleares. cit Esânaa Sagrada p. 144-145.

2) Caille : les Marseillais à Ceuta; Melanges d'histoire et d'archéologie fc l'occident Alger 1975 T. 2. p. 21-31// Hesp. 271. et qui suit.

3) France avec le Maroc des origines à la fin du Moyen age, Hesp. 1975;p. 283.

علاقات الموحدين بجنوة

لقد خلق التنافس المستمر فيما بين الجمهوريات المتوسطية بعضها بعضا، فرصة للتسابق على اكتساب ود المغرب، ولهذا فإننا سنشهد مظاهر عديدة لذلك التنافس فيما نعرض له من حديث يذكر تماما بما يجري اليوم بين الدول عندما تسعى لتحقيق مصالحها.

وإذا كان اتصال الموحّدين مع جمهورية بيزة يضرب في جذور التاريخ، فإن اتصال البلاط الموحّدي بجمهورية جنوة كان منذ سنة 546-548=1153 عندما أبرمت أول إتفاقية بين الجمهورية وبين الخليفة عبد المؤمن ...

وقد سجل دوماس لا تري [1] طائفة من الاتفاقيات والعقود التجارية تتعلق جميعها بتجارة الجنويين في : تونس /طرابلس / بجاية / سبتة / سلا، وفي عدد آخر من الثغور الإفريقية ...

وقد كان في صدر تلك الاتفاقية ما تم عام 547-548=1153 بين الخليفة عبدالمؤمن وبين قادة جنوة لغرض حفظ السلام وضمان علاقات طيبة بين المغاربة وبين الجنويين، فاحتراما لهذه الاتفاقية المشهورة، وجدنا أن قطعا من الأسطول الموحدي تعدل عن محاصرة سفينة في كاكلياري (سردينية) بمجرد ما عرفت جنسيتها، وأنها من جنوة!!

ومن الملاحظ أن الصلات اكتسبت صبغة أخرى في أعقاب تحرير مدينة المهدية 555=1160 من هيمنة حكام صقلية، فقد قررت جمهورية جنوة أنذاك أن تبعث بسفارة هامة إلى الخليفة فكانت جنوة -لذلك- أول مدينة ساحلية تقوم بتجديد اتفاقية وترسل ببعثتها التجارية إلى الديار المغربية، على نحو ما كان عليه الأمر في العهد المرابطي أيام علي بن يوسف بن تاشفين ...

De Mas Latrie; introd. p. 47(48, Docum . 106. (1

وهكذا ورد في هذا التاريخ 555=1160 أو توبون (OTTOBONE) المبعوث الخاص لجنوة - على الخليفة عبد المؤمن بصفته سفيرا للجمهورية، وكان محاطا طوال سفره بضروب التكريم والتشريف، وأبرم في العاصمة المغربية عقدا يضمن لجنوة - في سائر أطراف المملكة الخلافية برا وبحرا، حرية التجارة وتنقل التجار الجنويين وحمايتهم ... لمدة خمسة عشر عاما، تؤدي جنوة بمقتضاها ثمانية في المائة من وارداتها على السواحل المغربية، وخاصة سبتة التي كانت المحطة الرئيسية للنشاط التجاري، وقد استثنت الاتفاقية مدينة بجاية التي تقع مباشرة مقابل جنوة على خط مستقيم ففرضت على الواردات الجنوية عشرة في المائة بدل ثمانية ... هذا علاوة على بعض التفصيلات الخاصة بهذا الميناء : من التي نصت عليها اتفاقيات سابقة ...

وينبغي أن نعرف قبل هذا أنه منذ أواسط القرن الثاني عشر تكونت في جمهورية جنوة طائفة من الشركات التجارية، وشركات النقل لإرسال البضائع لمختلف نقاط السواحل المغربية، وهكذا وجدنا عدداً من التجار وملاك السفن، وحتى بعض رؤوس الأموال والملاك ينخرطون في هذه الشركات ... وقد كانت المعادن - وخاصة النحاس - من السلع المسجلة...

وقد كان الجنْويون يتمتعون بامتيازات تجارية عن طريق المعاهدات المبرمة عام 1149=544 وعام 1161=556 [1]

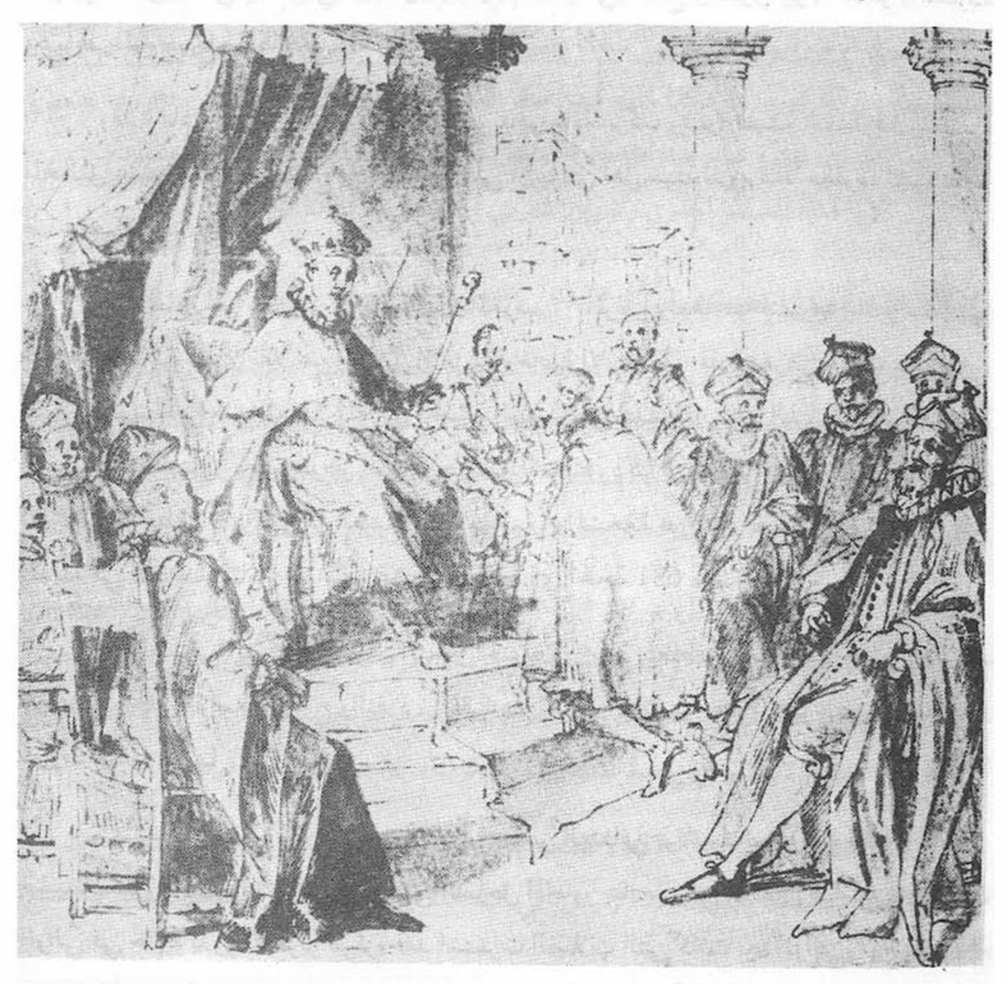
وقد شهدت حوليات جنوة بإرسال لانفراك ديلاتوركا (Lanfrac della Turca) عام 1210=606 إلى الخليفة الموحدي للتفاوض معه، فيما يبدو، حول إبرام اتفاقية بين الجانبين [2]

وقد وقع حادث كدر من صفو العلاقات بين الجانبيْن سنة 633=1235 أواخر الدولة الموحدية، فلقد اغتنم بعض الجنويين الاضطراب الحاصل بالبلاد وحاولوا أن يسرقوا ثغرا بكامله، هو مدينة سبتة! قصدوها في مراكبهم برسم ممارسة تجاراتهم - على ما يفصله ابن عذاري ... لما علم صاحبها الحاج أبوالعباس اليانشتي كتب إلى القبائل الساكنة في إقليم سبتة، فعرفهم بتلك الحركات وأموهم بالوصول إليه...

---

1) De Mas Latrie, Introduction Hitorique p. 47-48 - Documents 106.

2) De mas Laterie : Introduction p 64.



لقد كانت جنوة أول دولة أنشأت لها علاقات مع المغرب على عهد الموحدين منذ 546=1153، وقد جدّدت هذه الاتفاقية عام 555=1160 لمدة خمسة عشر عاماً وتنص على ثمانية في المائة للديوانة بالنسبة لسبتة، وعشرة في المائة بالنسبة لبجاية...

حاكم جنوة يعطى تعليماته لسفرائه... عن أرشيف الدولة جنوة

د. التازي : العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وجنوة، مؤتمر جنوة دجنبر 1987

وقد قتل المغيرون، ومن سلم من القتل رمى بنفسه في البحر ! وكانت هذه الحادثة سبباً في انتهاب الاموال التي كانت في الفنادق، والتهاب النار في السلع واحتوى غزاة البحر والسوقة وغيرهم على جميع ما كان في المخازن.

وقد أعاد الجنويون الكرة فاجتمعوا في نحو مائة مركب ويمموا سبتة لحصارها ونصبوا المجانيق عليها ، ثم وقع الصلح بين الطرفين على أن يؤدي أهل سبتة للروم مالا معلوما لتسديد ما ضاع لهم في فنادقهم.

تلك إفادة ابن عذاري [1] في البيان المغرب [2] آثرنا إيرادها هنا لنقابلها بالرواية التي أوردها دوماص لاتري نقلاً عن الوثائق الاوربية وخاصة الايطالية : ففي معرض حديثه عن الثورة التي شبت بالمدينة ضد العاهل المغربي الخليفة الرشيد وتنصيب اليانشتي الذي تسميه الرواية الاوربية اليامشتي (بالميم عوض النون) حاكماً للمدينة، ذكر أن قطعاً من الأسطول المسيحي المزوّدة فيما يظهر - بالأووامر العسكرية الاسبانية، والمشجعة من لدن الصليبيين وردت لمواجهة المدينة في النصف الثاني من شهر غشت 1234= ذي الحجة 631 ...

إن مما ينبغي التأكيد عليه أن التجار الجنويين - وهم يتعاطفون مع سبتة حيث توجد لهم مؤسسات تجارية واسعة الرواج والنفوذ ، اتفقوا مع الحاكم اليانشتي على الدفاع عن المدينة على شروط اتفقوا عليها .

وعندما استبد أبو زكرياء يحيى بن أبي حفص الهنتاني بولاية تونس (سنة 634=1237) خشيت بعض الجمهوريات التي تقع على الساحل المجاور عادية والي تونس وطرابلس، ولما كان الوالي في حاجة بدوره لتعزيز مركزه فقد استمرت الصلات التي كانت بين الوالي الموحدي وبين جمهورية جنوة على نحو ما استمرت مع الجمهوريات الساحلية الأخرى ...

---

1) - البيان المغرب ج 3، تطوان ص 346 - روض القرطاس : 183 الاستقصا ج 2، ص 218

2) Latrie, Intr.p.81.

ويذكر هنا أنه في عهد إسحاق بن غانية بالجزر الشرقية (الباليار)، عندما أصبحت الأساطيل التابعة لبني غانية يحسب لها حسابها في ميدان القوى البحرية، وعندما توالت غزواتها لشاطئ الدول النصرانية القريبة ... سعت جمهورية جنوة إلى عقد المهادنة والمصالحة مع أبي إبراهيم إسحاق المذكور... وهكذا شهد شهر صفر 577 = يونيه 1181 اتفاقا في ميورقة يضمن السلام بين الجهتين لفترة عشر سنوات بين الجمهورية وبين أبي إبراهيم إسحاق ابن محمد بن علي ملك ميورقة بواسطة السفير الجنوي رضوان المغربي (Rondoan de Moro)[1]

علاقة الموحدين بصقلية

لقد أدرك روجي الثاني أن من المصلحة له لكي يحافظ على حيوية الجزيرة ونشاطها أن يستفيد من جهود أبنائها، ومن هذا المنطق رأيناه يجمع في قصره خيرة العلماء المسلمين. لكنه في الوقت الذي كان يجالس فيه علماء المسلمين ... اتجهت أنظاره إلى العبور نحو الثغور الشرقية لبلاد المغرب. وهكذا تم الاستيلاء على طرابلس والمهدية وزويلة وسفاقس على ما نعرف !

فلما توفي روجي الثاني يبراير 1154=548 وخلفه ولده ويليام الأول كانت الثورة في إفريقية قد نضجت ضد الغزو الأجنبي، ومن هنا وردت وفود من سائر الثغور على الخليفة عبد المومن وهو بالعاصمة مراكش تستغيث وتستصرخ لرد عادية الفرنج عنهم وعن أرض الاسلام« ... إنه ليس في ملوك الاسلام من يقصد لسؤال رفع الكرب» إلاّ هو. على حد قولهم ...

وهكذا تهيأت عام 552=1157 قطع من الأسطول الموحدي بلغت سبعين سفينة وسارت في طريقها البحري نحو إفريقية بقيادة الرئيس أبي عبد الله ابن ميمون كان من تلك السفن ما صنع بميناء فاس (خولان)[1]

1) التاريخ الدبلوماسي للمغرب 6 ، 226

2) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالامامة، تحقيق التازي، طبعة ثالثة، دار الغرب الإسلامي، ص 114- عبد الله التيجاني : الرحلة، طبع تونس، تقديم : حسن حسين عبد الوهاب 1377=1958، ص 345 -الجزنائي : جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس .. د. التازي : ميناء فاس في المصادر المغربية والأجنبية ...

وقد استجاب الخليفة لملتمس الفرنج في مغادرة البلاد والخروج بأنفسهم آمنين بل إنه جهز لهم السفن المغربية ليعبروا بها البحر إلي صقلية [1].

ودخل عبد المؤمن المهدية يوم عاشوراء 555=21 يناير 1160 في حفل اهتزت له البلاد، وتم بذلك تطويع البلاد من «الأطلس إلى سرت» كما تقول المصادر، وقد سميت السنة بسنة الأخماس الثلاث : 555.

وكما كان لذلك النصر صداه بالنسبة للمالك النصرانية البعيدة فقد كان له أثره على العملاء وعناصر الفتنة والشغب في البلاد، وهكذا لم تمض سنوات حتى تطارح سنة 566=1170 جبارة بن أبي العينين الذي كان تمرد على عبد المؤمن ... وظل يعمل لصالح صقلية أحيانا ويبحث تارة أخرى في المشرق : مصر والحجاز واليمن، عمن يسنده ويعضده، تطارح على الموحدين راغبا في العفو والإذن له في الالتجاء إلى «هذا المغرب الأقصى» الذي ظهر فيه نور العدل» كما يقول ابن صاحب الصلاة.

القرصنة المثيرة وصقلية

إن العودة إلى العلاقات الآمنة بين الملوك الموحدين والنورمانديين ظلت تنتظر وقتها مدة طويلة أي منذ سنة الاخماس الثلاث (555=1160).

لقد كان على صقلية أن تنتظر فرصة سانحة - بعد نحو من عشرين سنة من الحقد المتبادل ومن أعمال القرصنة المتوالية بين الطرفين...

وهكذا فحوالي سنة 1180=576 في عهد االملك كيوم «الطيب» بن كيوم الأول وجدنا أن الاسطول الصقلي يستولي على سفينة مغربية كانت توجد على متنها بنت من بنات الخليفة أبي يعقوب يوسف زينب، كانت في طريقها إلى تونس لتزف إلى أحد الأمراء.

1) لم يفت بعض المصادر التاريخية أن تشيد بحكمة الخليفة عبد المؤمن الذي كان بلغ إلى علمه أن صاحب صقلية الذي كان يقرأ العربية ويكتبها - كان يهدد المسلمين الذين كانوا صقلية بقتلهم جميعا وسبي حريمهم إذا ما قتل الخليفة الفرنج الذين كانوا بالمهدية. أنظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، صفحة 232 .

لقد أخذت الأميرة الموحدية إلى قصر الملك كيوم في باليرم : عاصمة صقلية ... وعندما اكتشف أنها أميرة عوملت معاملة تليق بمكانها وأصدر الامبراطور أمره بإعادتها فورا إلى قصر والدها...

وقد تأثر الخليفة لهذه المبادرة، وبعث مباشرة بوفد يوجد على رأسه سفير مغربي إلى صقلية من أجل تقديم التشكرات إلى العاهل الصقلي والتفاهم معه لصالح إبرام اتفاقيات الهدنة والصلح بين البلدين ...

وهكذا فلم تطل المفاوضات حيث وجدنا أن السنة 1181 وبالذات في شهر غشت منها = ربيع الأول - ربيع الثاني 577 تشهد ميلاد إتفاقية للسلام والتجارة لفترة عشر سنوات وقعها الطرفان في مدينة باليرم حيث كان يقيم المبعوث المغربي.

وبمقتضى هذه المعاهدة فإن رعايا الملك الصقلي أصبحو يتمكنون من حق إنشاء المراكز والمستودعات في كل من زويلة والمهدية ...

وقد سجل التاريخ آخر علاقة للموحدين بحكام صقلية عندما بعث فريدريك الثاني ملك الجزيرة بسفارة إلى الخليفة الرشيد تحمل إليه بعض الهدايا، ولما كانت السفارة قد وصلت مع تاريخ وفاة الخليفة الرشيد 640=1242 فقد استقبلها أخوه السعيد ... وكانت فرصةً للخليفة لمفاتحة السفارة في موضوع رغبته في الحصول على مساعدة الأسطول الصقلي من أجل تحقيق مشروعه الذي خطط له في القضاء على عناصرالتمرد المستفحلة بإفريقية ... وقد بعث مع الوفادة الواردة بهدايا فاخرة إلى ملك الجزيرة[1].

1) ابن عذاري : البيان المغرب ، القسم الثالث، ص 386 .

سفارة من صقلية للحوار بين الاديان

ذكر المقري عند ترجمة أبي محمد عبد الحق بن سبعين [1] أخي أبي طالب أنه لما وردت على سبتة (المسائل الصقلية) وكانت من المسائل الحكيمة التي وجهها علماء الروم للمسلمين – إنتُدب ابن سبعين للجواب المقنع عنها – على فتاء سنه وبديهة من فكرته ...

والمقري يشير إلى حدث هام في تاريخ الحوار بين الديانات الذي ظل محل اهتمام القادة المفكرين [2].

والمهم أن نذكر هنا أن فريدريك الثاني وجد في أجوبة ابن سبعين ما لم يجده في فتاوي علماء العصر، في مصر أو الشام أو العراق أو آسيا الصغرى أو اليمن ...

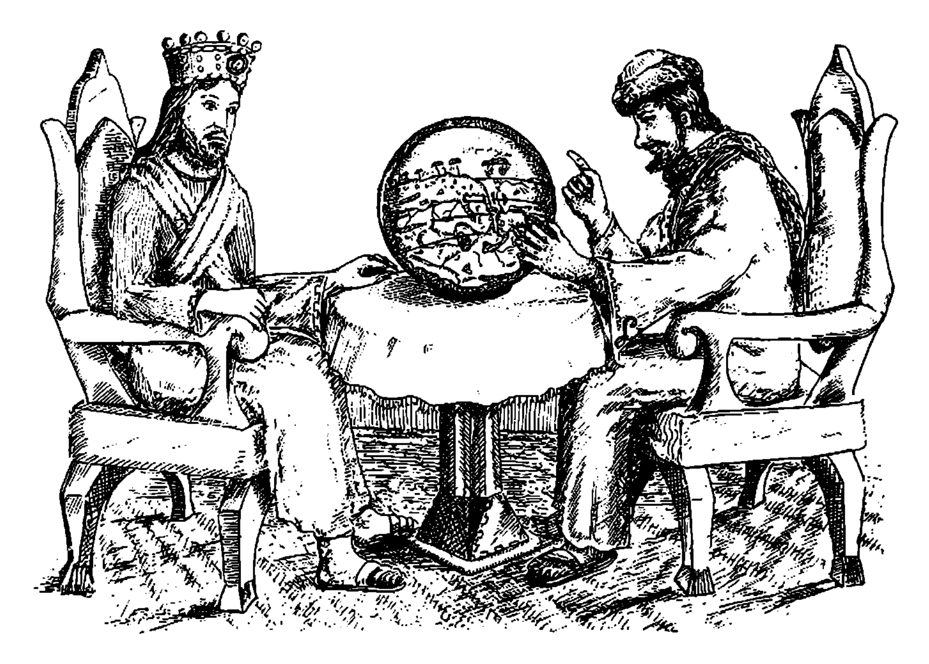
ويذكر أن الامبراطور بعث إليه بهدية سنية مع المسائل المشار إليها لكن ابن سبعين اعتذر عن قبول الهدية منذ البداية، وقد كرر الامبراطور المحاولة عندما تسلم أجوبة العالم المغربي لكن موقف ابن سبعين تجدد مرة أخرى إزاء المبادرة [3] الإمبراطورية !

---

1) إفادة المقَّري حول لقب ابن سبعين الذي اشتهربه هذا العالم، أنه، أي هذاالعالم، كان يوقع عن نفسه هكذا (ابن ٥) يعني دائرة كالصفر، وهي في الطرق الحسابية التي سلكها المغاربة، في القلم الرومي أو القلم الفاسي تؤدي معنى 70، أنظر كتابنا الرموز السرية صفحة 63 .

2) تجب العودة إلى المجلة الأسيوية يناير 1853 ص 240 حيث يوجد حديث هام بقلم أماري كما تجب العودة لنفس المجلة عدد يونيه 1879 ص 341 حيث يوجد حديث كتبه مهرين(mehren)

3) يذكر ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات : «وسمعت عن ابن سبعين أنه فصد يديه وترك الدم يخرج حتى تصفى، ومات بمكة يوم 28 شوال سنة 668 =20 يونيه 1270 وله من العمر 55 سنة.



الشريف الإدريسي السبتي يشرح لروجار الثاني تفاصيل كرته الأرضية الفضية

علاقات الموحدين مع جمهورية البندقية [1]

لقد كان في صدر اتفاقيات السلام والتجارة التي تفاوض عليها الطرفان : والي الإقليم الشرقي للمملكة الخلافية أبو زكرياء يحيى ابن أبي محمد بن عبد الواحد ابن أبي حفص، وبين سفير جمهورية البندقية بيير ديلفينو (Pierre Delfino) هي التي أبرمت لفترة أربعين سنة بتونس بتاريخ 6 ذي الحجة 628=5 أكتوبر 1231، أي قبيل الحركة الانفصالية التي قام بها الوالي المذكورعام 634=1237.

ومن المهم أن نذكر هنا أن هذه الاتفاقية المبرمة اليوم بين والي تونس وبين حاكم البندقية كان قد تم الاعتراف بمضمونها قبل هذا التاريخ والدولة الموحدية في أوج قوتها وعزة وحدتها على ما يفهم من المصادر الأوربية.

وفي حديثه عن «الاضافات» التي ألحقها بآخر تأليفه، أورد الكونت دوماص لا تري مستخلصات للمداولات في «المجلس الكبير» الذي عقدته جمهورية البندقية ما بين تاريخ 1245- وتاريخ 1282 حول تجارة فينيسيا مع المغرب ومصر والشرق ...

و من المعلوم أن الخليفة الموحدي الذي كان يحكم المغرب في بداية هذا التاريخ هو أبو حفص عمر المرتضى ...[2]

1) يعتقد بعض الباحثين في المؤتمر العالمي لتنميط الإعلام الجغرافية كلمة البندقية BENE DQIA ليست إلا تحريفا لكلمة ڤينيسيا VENE - TIA ...

2) Demas Latrie; Introd . P 83 Docum 196

الفصل السادس

- العلاقات بين الموحّدين وبين انجلترا
- بعثة العاهل البريطاني للملك الناصر
- العلاقات بين الموحدين والنمسا
- العلاقات المغربية اليونانية

العلاقات بين الموحدين وبين إنجلترا

تعتبر إنجلترا من أقدم الامم التي تربطها بالمملكة المغربية علاقات مستمرة عبر الأجيال ويعتبر الملف المغربي الإنجليزي من أغنى الملفات وأكثرها تنوعا وإطرافا ... وها نحن اليوم مع الحدث الذي يعتبر من أروع الأحداث التي تروى اليوم وكأنها ضرب من الخيال والافتراض!

حدث تم في العصور الوسطى وبالذات أثناء سنة 604 للهجرة الموافق لسنة 1208 للميلاد.

لقد تناول أمر الحديث عن هذه السفارة - أول الأمر- الأسقف ماثيو باريس (MATHEW PARIS) مؤرخ دير القديس ألبانس (ALBANS) الذي عاش في القرن الثالث عشر، ونشر الحديث عنها فيما بعد، أحد رهبان الدير روجي فاندوڤير[1] (Roger of Wendover)[2] :

---

1) N. BARBOUR : The Embassay sent King Jon of England To Minamumelinus King of Morocco

2) Roger of Wendovérs Flowers of History (Translasted by Giles; volumes London, 1849, vol:. II P.P 283-7

أنظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 267

وهكذا ففي سنة 1211 = 607 - 608هـ أي بعد نحو عشر نوات من بناء جامع حسّان ! بعث ملك انجلترا جوهن سفارة إلى أمير المؤمنين (Miramunelinus) الناصر يطلب حماية ممتلكات التاج الإنجليزي في أكيتانيا (Aquitaine)[1]...

قال ماثيو باريس : إن الملك جوهن بعث عددا كبير من المبعوثين السريين. هم طوماس هاردينكطون (T.Hardington) ورالف فيتزنيكولاص (Ralph Fitz-Nicholas) والقسيس روبيرت أوف لندن (Robert of london) السكرتير الذي كان يصحب السفارة الإنجليزية.

وقد كانت مهمة البعثة السرية إبلاغ الخليفة الموحّدي الناصر «ملك إفريقيا وأقطار المغرب وإسبانيا» عن استسلام جوهن عن طواعية واختيار، هو وسائر مملكته، وأنه أي ملك إنجلترا يضع المملكة الانجليزية بسائرها تحت تصرف العاهل المغربي بل وأنه يريد أن يترك ديانته المسيحية ليصبح مسلما من أتباع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هو وسائر المملكة!

وبالاستناد إلى هذه المصادر البريطانية فإن أعضاء السفارة لما وصلوا للمغرب استقبلوا كما يستقبل كبار الرسل وأنهم أدلوا برسائل إعتمادهم وشرحوا للخليفة بواعث الزيارة، ورفعوا إليه خطاب جوهن ...

وكان الذي يساعد على التفاهم بين الجانبين المغربي والإنجليزي ترجمان يعرف لغة الطّرفين...

«وكان أمير المؤمنين، على ما تقوله الرواية رجلا متوسط العمر والطول ذا مظهر جدّي تتسم تصرفاته بالذكاء والحذر، كان يطالع كتابا وقت دخول المبعوثين ما لبث أن طواه وأخذ في الحديث إليهم، لقد كان يحسن الاستماع إلى محدثيه ...

(1 G.P. Rgers : a History of Anglo-Morocan Relation to 1900 London : Foreing commeenwealth office
N. BARBOUR : MOROCOS . P.

وقد تساءل عن حال ملك الإنجليز ورجال مملكته، وتصدى الفارس توماس، باعتباره أقدر المبعوثين للرد ...

وبعد أن استمع أمير المؤمنين إلى طوماس، قال : «أنا لا أفهم أبدا كيف أن ملكا يتمتع بمثل هذه المملكة الغنية والرعايا المخلصين يتنازل باختياره عن سلطانه إلى ملك آخر وكأنما هو يستسلم بدون معركة! !

لقد سمعت كثيرا عن أناس يشترون حريتهم بأنهار من الدماء وهذا أمر محمود، أما ما أسمعه الآن عن ملككم .. فإني لم أسمع من قبل بشئ أسوأ منه، فرغبة الحر أن يصبح عبدا هي أحقر ما يمكن أن يصدر عن إنسان!

وبعد حديث حول سيرة العاهل الإنجليزي توجه الخليفة نحو روبيرت لندن كاتب البعثة : «لماذا يسمح الانجليز لمثل هذا الرجل أن يتحكم فيهم !؟

وقد تطرق أمير المؤمنين إلى عدد آخر من الموضوعات أبلغها روبيرت لندن إلى أصدقائه بعد عودته إلى إنجلترا. وقد سلم الملك الناصر إلى سكرتير البعثة عددا من الهدايا الثمينة من الذهب والفضة ومختلف أنواع المجوهرات والاقمشة الحريرية.

ويستطرد «ماتيو باريس» في روايته فيشير إلى أن روبيرت سلم الملك جوهن عددا من الهدايا التي حصل عليها من العاهل المغربي، وأن الملك قد منحه مقابل ذلك رئاسة دير سانت ألبان [1]

فماذا عن أصداء هذه البعثة السياسية في المصادر التاريخية للمغرب؟

إن كل المؤرخين رددوا صدى «اهتزاز بلاد الروم «لاخبار تحركات ملك المغرب في الأندلس» ومبادرتهم لارسال السفارات والخطابات إلى أمير المؤمنين الناصر يناشدونه السلام والأمان ...

1) د. التازي : مع اللورد نذير أحمد – الشرق الأوسط، عدد 10 أبريل 2000 .

فهل كان القصد إلى الملك جوهن ملك إنجلترا كما قاله بعض المؤرخين المعاصرين ؟ أم القصدإلى ملك بيونة (BAYONNE) الذي ورد ذكروه عند ابن أبي زرع؟

أعتقد أن القصد ليس إلى ذاك ولا إلى هذا، وإنما القصد إلى ملك ليون على ما نفهمه من إبن خلدون، ومن نقلٍ آخر عن ابن عبد الملك المراكشي[1]

علاقات المغرب بالنّمسا

بالرغم من أننا لا نتوفر، بصدد الصلة التي ربطت المغرب بالنمسا منذ هذا التاريخ المبكر، على وثائق مكتوبة هنا أو هناك، لكننا مع ذلك نمتلك أثراً يعتبر في نظر الملاحظين أصدق معبر وأوفى ترجمان عما كان للمغرب من ذكر جميل بأوربا الوسطى، ويتعلق الأمر بأغنية نيبيلوكن Nibelungen المعروفة فيما بين سنة 1204 وسنة 1205 = 601 ، والتي كانت تتغنى بالحرير المغربي !

وهكذا نجد الأصابع النمساوية تتلمس حرير بلادنا وتجد فيه نعيما لم تجده في حرير دمشق والصين ...

ومهما قيل عن هذه الأسطورة مما يقصد أن تكون أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ... فإنها تدل، على كل حال، على أن طلائع المغرب الحضارية وصلت - عن طريق صقلية -فيما يبدو - إلى بلاط كانتر (Gunther) وأن صادرات المغرب من الحرير كانت في نفس الجودة والرقة اللتين كشف عنهما كتاب البكري في حديثه عن إفريقية والمغرب، ويشارك البكري في الحديث عن حرير قابس، الادريسي في (نزهة المشتاق) التي تتبعت مادة الحرير في حديثها عن المدن المغربية ...

---

1) - ابن خلدون أبي زرع : الأنيس المطرب، مطبعة الأزرق الحجرية 1303 = 1886، ص 168
ابن خلدون المجلد 6 طبعة بيروت صص 522 .
ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984، ج 2، ص 168 .

ولا بد أن نتذكر أن مدينة فاس التي أشاد البكري بمعالمها الحضارية كانت تضم، أيام المنصور الموحدي، مالم تبلغة أية مدينة مغربية حيث وجدناها - على ما يذكره سجل يرجع لتاريخ 585= 610 تتوفر على أزيد من ثلاثة آلاف معمل للنسيج، كان فيها عدد مهم يختص بصناعة الحرير [1]، هذا علاوة على ما نقرأه في سجلات الأوقاف عن ممتلكات الدولة من أشجار التوت هنا وهناك . . .

لقد ورد في القطعة رقم 364 من الشعر النمساوي إليه :

"Von Marroch uz dem Iand und auch von Sybian
die aller besten sîden die ie mer gervan
decheiner kuneges kunu, der heten si gennoc[2]

العلاقات المغربية اليونانية

بقي المغاربة على صلة مستمرة برجال الإغريق عن طريق الكتب التي ألفها المغاربة، وفي الدروس التي كان يعطيها الأساتذة المغاربة في المجالس العلمية وفي المدارس الطلابية التي كانت تقوم مقام الكليات والجامعات، كلها يعرف عن أكاديموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . . .

وكل الذين درسوا علم المنطق الذي يرتكز عليه علماء الكلام عندنا، كانوا يجدون أنفسهم أمام نتاج اليونان وبالذات أمام (إيساغوجي) (ESSAGOG) وكل الذين تحدثوا عن الموسيقى من المغاربة كانوا يجدون لزاما عليهم أن يذكروا فيتاغورس . . .

1) - ابن أبي زرع : الأنيس بروض القرطاس، مطبعة الأزرق الحجرية، فاس 1303 = 1886، ص 28، مطبعة الرباط، تعليق محمدالهاشمي الفيلالي 1355 = 1936، ص 64 .

- د. التازي : تاريخ جامعة القرويين ج 1، ص 133/134 .

2) عبدالهادي التازي : العلاقات الدبلوماسية بين المغرب والنمسا المجلة النمساوية العربية للاقتصاد والثقافة (مرحبا) عدد 5/6 عام 1977 ص 54/55 .

وفي الميدان الصحي ظلت أسس العلاج اليوناني محفوظة عندنا في المؤلفات الطبية سواء منها التي كتبت بالأسلوب النثري أو الأسلوب الشعري، وأمامنا الطبيب المغربي المشهور ابن طفيل الذي يقول في أرجوزته عن الطب [1]، التي ردد فيها أسماء طائفة من أطباء اليونان وعلى رأسهم جالينوس، ابن طفيل الذي يقول في تحديد الديابيط:

تعرف ذي العلة باليونانـــي * (ديابيطا) في منطق اللسان

وهي التي يشرب فيها الماء * وليـــس للجــــوف به بقـــاء

وفي الميدان الدبلوماسي والسياسي ظلت اليونان علي صلة بالمغرب منذ العصر الوسيط

وقد ورد في المعجب للمراكشي عند حديثه عن الخليفة أبي يعقوب يوسف، أن أبا الوليد ابن رشد كان يقول غير ما مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر ابن طفيل ليس معهما غيرهما ... فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين، بعد أن سألني عن إسمي وأبي ونسبي، أن قال لي : «ما رأيهم في السماء ؟ يعني الفلاسفة ... فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها، ويذكر - أي الخليفة - ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك إحتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له...

وأخبرني تلميذه المقدم الذكر عنه قال : استدعاني أبو بكر ابن طفيل يوما فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه. ويذكر غموض أغراضه.[2]

1) تستأثر خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس (المغرب) بالمخطوطة الوحيدة التي توجد لهذه الأرجوزة، التي تحتوي على مئات الأبيات مرتبة على سبع مقالات ... يحمل المخطوط في الخزانة رقم 1969.

2) المراكشي : المعجب، ص 354 .

ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك - يقول ابن طفيل لابن رشد - فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جوده ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني - من ذلك - يتابع ابن طفيل - إلا ما تعلمه من كبر سني، واشتغالي بالخدمة، وصرف عنايتي إلى ما هو عندي منه، قال أبو الوليد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس[1]. »

وأذكر بهذه المناسبة أن الرئيس السابق لجمهورية اليونان قسطنطين د. تساطسوس(TSATSOS) - بمناسبة إستقباله عضوا في أكاديمية المملكة المغربية في دورتها المنعقدة بفاس 25 نونبر 1980، أشار إلى إهتمام المغرب بفلسفة اليونان في فقرات جد دالة ينبغي أن نرجع إليها في أرشيف أكاديمية المملكة المغربية.

ويستأثر «كتاب بحرية - «KITAB BAHRIYE» الذي ألفه بيري ريس (P. Reis) في بداية 927 = آخر 1520 بذكر إفادة لم تكن غريبة على الذين يعرفون طموح الموحدين في جمع العالم الإسلامي تحت كلمة واحدة، ويتعلق الأمر باتجاه أسطول يعقوب المنصور نحو القسطنطينية العظمى ...

وإن هذه الإفادة - رغم صغر حجمها - تؤكد من جهة أخرى أن المنصور الموحدي ذهب بأسطوله نحو الشرق لنجدته ضد الصليبية الغازية إستجابة لاستصراخ السلطان صلاح الدين[2].

---

1) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 281-280 .

2) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 182 .

الموحدون في اتجاه القسطنطينية العظمى

يستأثر «كتاب بحرية -Kitabi Bahriye" الذي ألفه بيري رييس (P. Reis) في بداية 927= آخر 1520، أول عهد السلطان سليمان القانوني، بذكر إفادة (ص 296) لم تكن غريبة على الذين يعرفون مطامح الموحدين في جمع العالم الإسلامي تحت كلمة واحدة، ويتعلق الأمر باتجاه يعقوب المنصور نحو القسطنطينية العظمى : حيث نجد أساطيله تصل إلى جزيرة (موره) جنوب بلاد اليونان، يقول بيري رييس في معرض حديثه عن جزيرة إيلوس : "وخرّبها مولاي يعقوب بن منصور؟ وهو سلطان من ذرية حضرة عمر (بن الخطاب) ؟ وقد خرج من مراكش من بلاد المغرب سنة 373 ؟ من هجرة النبي عليه السلام، واقتحم البحر الأبيض المتوسط بألف سفينة شراعية متجولا مغيرا على مغيرا على مدن كثيرة في السواحل حتى إنه اعتزم أن يغزو اسطنبول، وقضى الشتاء في ولاية مورة، وكان أن خرب مدينة إيلوس هذه أنذاك ولا تزال آثارها ماثلة إلى الآن... »

ونحن نعتمد في هذه الترجمة على ما وصلنا - شاكرين ومقدّرين- من مؤسسة العلاقات التركية العربية في اسطامبول بواسطة سعادة السفير التركي بالمغرب كين كير.

ويلاحظ أن هناك هفوات واضحة في النص : يعقوب بن منصور عوض يعقوب المنصور، وسنة 373 عوض 583 مثلا، علاوة على نسبة يعقوب المنصور لعمر بن الخطاب ... ؟

وإن هذه الإفادة - رغم صغر حجمها- تؤكد من جهة أخرى أن المنصور الموحدي ذهب بأسطوله نحو الشرق لنجدته ضد الصليبية الغازية استجابة لاستصراخ السلطان صلاح الدين على ما نذكره في العلاقات المغربية مع الشرق.

الفصل السابع

- علاقات المغرب بالمشرق
- طموح المغرب لتوحيد جناحي المغرب بالمشرق
- وفود من المشرق لدى الدولة الموحدية
- الحضور المغربي في جزر ماليديف
- ابن دحية والمراكشي وابن رشيد

علاقات المغرب بالمشرق

بصرف النظر عن الصلات الثقافية التي ظلت مستحكمة بين جناحي العالم الإسلامي، والتي كانت تتجلى في ذلك العدد من الشخصيات اللامعة التي ترددت على المغرب وأطربت الناس بظرفها وأدبها على أعلى مستوى من أمثال السرخسي وابن سعيد، كما كانت تتجلى في تلك السرعة الفائقة التي كانت تصل فيها الأخبار المشرقية إلى المغرب [1] والأصداء المغربية إلى المشرق، بصرف النظر عن تلك الظاهرة البارزة فإننا نلاحظ أن العلاقات السياسية بين بغداد ومراكش إعتراها فتور لم تلبث معه الأمور أن تحولت إلى مماحكات أدت في الأخير إلى مواجهات - ولو أنها غير مباشرة - لكنها كانت حامية عكست آثارها بعيدا على الساحة المغربية، وقد كان السبب الرئيسي في ذلك التوتر بين العاصمتين بغداد ومراكش ما أقدم عليه العاهل الموحدي الأول عبد المومن من سحب اعتراف المغرب بالعباسيين كسادة على المغرب، وإصداره الأمر بالاكتفاء عند دعاء المنابر، بذكر الخلافة الموحدية وليس الخلافة العباسية !

---

1) نشير هنا إلى المراسلة الدبلوماسية الشعرية المتبادلة بين القسطنطينية وبغداد عام 352=994 وما أحدثته من رد فعل سريع في الأندلس ... تجلى في القصيدة التي أنشأها ابن حزم، وابن زروال ردا على أمبراطور بيزنطة وتضامنا مع بغداد كما نشير إلى ابن رشد (575) ففي رده على الغزالي (505 هـ) ما يشهد بأنه كان ملما تماماً بدقائق الفكر الفلسفي في المشرق ...

- د. التازي : مراسلة شعرية في العصر الوسيط بين القسطنطينية وبغداد حسب مخطوطة فريدة في ڤيينا .. بحث قدم تكريماً للزميل الدكتور الأستاذ ناصر الدّين الأسد رئيس الأكاديمية الملكية - الأردن.

وبالرغم من أن بعض المنابر في الغرب الإسلامي رددت، أحيانا أسماء الخلفاء العباسيين كما حدث بالنسبة لبني غانية في ميورقة الذين استمروا على ما كان عليه المرابطون [1]. وكما حدث كذلك بالنسبة لبني هود [2] الذين خطبوا للخليفة العباسي المستنصر بالله لما احتلوا مرسية عام 625=1267 بل وحدث أيضا بالنسبة لبعض المدن المغربية، كطنجة عندما استقل بها أبو الحجاج يوسف الهمْداني وكما حدث بالنسبة لغانة التي ظلتْ على ولائها للخليفة العباسي، بالرغم من ذلك فقد سجل التاريخ أن تلك المعارضات كانت محصورة ومعزولة ....

ولا شك أن عبد المؤمن إنما اتخذ قراره بالتخلي عن الخلافة في المشرق بعد أن كان قد تلقى المعلومات الكافية عن الوضع المتفكك للعباسيين من طرف شيخه المهدي بن تومرت الذي كان قام منذ بضع سنوات بزيارة لبغداد والإسكندرية تمكن في أثنائها من إجراء عدة إتصالات مع طائفة من رجالات العلم والسياسة وتعرف على الأوضاع كما هي ...

لقد كانت الخلافة العباسية فعلا في طريق التدهور والانحلال، وكانت عرى الوحدة الإسلامية - نتيجة لذلك - بسبيلها نحو المصير الذي كان ينتظرها ... ومن أجل ذلك فقد رأى زعماء الموحدين أنه لم يعد هناك مجال للمجاملات والمكايسات، وأن الوقت حان ليسير العالم الإسلامي تحت قيادةٍ سياسةٍ واحدة قادرة على تحقيق أهداف الدولة الإسلامية...

---

1) يراجع فصل علاقات الموحدين بأقطار المغرب الكبير وبالأندلس كذلك ... القلشندي : صبح الأعشى، ج 7، ص 30 .

2) القلقشندي : صبح الأعشى، ج 7، ص 30 .

ولقد كان أول رد فعل قام به الناصر العباسي إزاء تجاهل الموحدين للخلافة في بغداد أنه أخذ يعمل بكل الوسائل على نسف دولة بني عبد المؤمن ! والظاهر أن أول رجل استخدمه الناصر العباسي هو «ابن تاتلي» من بقايا الفترة المرابطية، فقد ذكر البغدادي أنه ورد على بغداد رجل مغربي لَسِن له أبهة، مقبول الصورة، عليه هيئة السياحة، ينفعل لصورته من رآه، يعرف بابن تاتلي ... خرج من بلاد المغرب لما استولى عليها عبد المؤمن، فلما استقر ببغداد إجتمع إليه عدد من الأكابر والأعيان ... واجتمع بالإمام الناصر الدين الله ثم سافر [1]

وبينما الناصر الموحدي يعاني من الانفصاليين الذي يتحركون تحت مظلة العباسيين إذا به يسمع عن حركة جديدة تنبعث من أحد الجبال بأحواز فاس، تختفي وراء دعوة الفاطميين الشيعة،بزعامة محمد بن عبدالله العبيدي !الذي تمكن أمير المؤمنين منه سنة 600 =1204 حيث لقي مصيره بباب الشريعة الذي أمسى يحمل منذ ذلك التاريخ إسم باب المحروق بفاس [2].

وإن المؤرخ لهذه الفترة ليجد نفسه أمام حدث هام في تاريخ المغرب لا يقل أثره في داخل البلاد عنه في خارجها، فلقد وفد من المشرق على المنطقة المغربية عدد من القبائل العربية ...

إن الفاطميين بمصر –وقد بلغهم عن تمرّد ولاتهم الصنهاجيين بإفريقية على سلطتهم – عمدوا إلى الإنتقام من ولاتهم بالأمس بتسليط بعض القبائل العربية عليهم في مناطق نفوذهم بإفريقية فعاثت تلك القبائل العربية في مناطق نفوذهم تخريبا وتشغيبا ... وبعد أن تلاشى أمر الصنهاجيين ورث الموحدون عنهم، فيما ورثوه، تلك الأعباء التي سببتْها الأحداث الأمر الذي

---

1) عيون الانباء في طبقات الأطباء 2، 204، المطبعة الوهبية بالقاهرة 1299=1886 دكتور أحمد مختار العبادي : الموحدون والوحدة الإسلامي ... مجلة التربية الوطنية / دكتور مصطفى جواد : المنصور الموحدي والناصر الموحدي والناصر العباسي، دعوة الحق، أبريل 1969 .

د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج 7، ص 288/287 .

2) يظن بعض الناس أن اسم(المحروق) أتى عندما أحرقت، على مقربة من هذا الباب جثة لسان الدين ابن الخطيب، وقد علمنا أن المحروق المقصود هو العبيدي.

عكس أثره على معظم المؤرخين الذين كتبوا فصولا عن العرب أساءت إلى ما أثر عنهم من خلق رفيع، فقد وسمهم شاهد عيّان بتحزبهم بالأحزاب، وقال : إنهم لا يهابون آمراً ولا يطيعون أمْراً ....وإنهم يتهافتون على العطاءات دون احترام للمقام ويتزاحمون ويتقاتلون عند عبور الجسور وأنهم عند اللقاء يجبنون ويخافون [1]

هذا وقد كان مما يغذي من فكرة التطاحن بين الخلافتين المتنافستين وجود الأنصار لكل منهما في منطقة الطرف الآخر ... وهكذا ففي مقابلة تلك الجماعات التي كانت تعمل لحساب العباسيين بالمغرب، كانت هناك جماعات بالمشرق على صلة بالموحدين! فقد بلغ عدد أصحاب المهدي المقيمين في مصر زهاء الخمسين [2] ... وعثر على رخامة في بيت المقدس تحمل إسم بعض القادة في الدولة الموحدية تعبيرا عن الأمل المعقود في وصولهم إلى فلسطين لحماية المسلمين من غارات الصليبيين ...

وقد ذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير أن المصريين كانوا يترقبون مجئ الموحدين لدرجة أن بعض فقهائهم قد أعد خطبا مناسبة لإلقائها بين يدي الخليفة الموحدي عند قدومة [3]!

وقد ورد على لسان أبي العباس ابن عبد السلام الكراوي شاعر الموحدين يخاطب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ما يؤكد كل ذلك :

سينظم السعد مصرا في ممالكه * حتى يدوخ منها خيله حَلَبا
إلى العراق، إلى أقصى الحجاز، إلى * أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله * وكل عصر له مازال مرتقبا [4] !

---

1) راجع المن بالامامة لابن صاحب الصلاة، تحقيق د.التازي، طبعة ثالثة، دار الغرب الاسلامي، بيروت 1982، ص 46، تعليق 8 . بلعياشي : البستان، مخطوط لُخّص وقدم من لدن د. التازي إلى الأكاديمية 1999.

2) البيدق : كتاب الانساب في معرفة الأصحاب، منشورات دار المنصور الرباط .

3) ابن جبير ص 57/55 .

4) د. التازي : دور الشعر في التاريخ الدولي للمغرب، محاضرة ألقيت لتدشين السنة الجامعية لكلية الاداب ببني ملال، السنة الجامعية 1992-1993 .

وفود من المشرق لدى الدولة الموحدية

يتأكد أن تلك المحاولات التي كانت تبذل من أجل نسف الحكم الموحدي لم تعط ثمرتها لرجال الحكم بالمشرق ! وبذلك نفسر موقفهم المزدوج من المغرب، فهم من جهة يعملون على تقويض حكم لا يعترف لهم بالزعامة، وهم من جهة ثانية يمدون أيديهم للعاهل المغربي في محاولة لكسب مساعدته بل ولمحاولة إقناعه بأن الحركة الموجهة في المغرب ضده ممن تستظل بالخلافة في المشرق لا تمثل وجهة النظرالرسمية للحاكمين ! وهكذا وردت أولا بعثة سياسية مصرية أواخر العهد الفاطمي على المغرب بأمر من الوزير الأرمني صالح بن رُزِّيك ابن طلائع عن الخليفة القائم بمصر، تحمل كتابا يستصرخ فيه «الأمير الأصيل النجار الجسيم الفخار» ولد عبد المؤمن وولي عهده، وذلك عندما احتلّ ملوك الفرنج سواحل الشام، وقد أجاب الأمير الموحدي عن الرسالة المصرية برسالة أخرى [1] نعتقد أنها غير بعيدة عن الرسالة التي سمع بها الرحالة المغربي ابن بطوطة وهو في بلاد الشام، فلقد تحدث عن كتاب وجهه أبو يعقوب يوسف إلى نور الدين ملك دمشق (569 =1174) ينبهه إلى بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الأوقاف ويبني الزوايا بالطرق[2] .... »

---

1) ورد في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ج 2، ص 175 «أواخر ما كتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولي عهده بالامير الاصيل، وعادت الاجوبة إلى ابن زريك وهو وزير سلطان مصر ... »

ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. عبد الهادي التازي نشر أكاديمية المملكة المغربية في خمس مجلدات - رقم الإيداع القانوني 1997/321 ج 2، 136-137.

والحقيقة أن المغاربة كانوا يتطوعون بكثرة من أجل الدفاع عن حصون الشام وقلاعها، وقد تحدث التاريخ عن بلائهم الحسن في مقارعة الصليبيين، لقد نقل ابن الأثير أن في جملة من خرج لمقاومة زحف الفرنج عام 543=1148 (يعني في الحرب الصليبية الثانية) يوسف الفندلاوي المغربي الذي رغم علو سنه قرر أن يجاهد في سبيل تحرير الشام [1]

ولم تخف المصادر التاريخية تضايق الصليبيين من استبسال الجندي المغربي في القتال حتى لسجل الرحالة المغربي ابن جبير [2] عام 580=1184 أنه في الفترات التي كانت تعقد فيها هدنات بين المسلمين والمسيحيين كان هؤلاء يصرون على أن يدفع كل مغربي يمر بالأرض المحتلة ضرائب باهظة في حين يعفون فيه غير المغاربة من تلك الأداءات ...!

ويقول ابن جبير : .« ... وإن من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة في هذه البلاد الشامية الأفرنجية أن كل من يخرج وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في إفتكاك المغاربة خاصة ... »

وقد إستمر تدفق المغاربة على الشام لأداء واجبهم المقدس اقتناعاً منهم بأن المعركة ليست معركة الشام وحدها ولابغداد ولا مصر ... ولكنها معركة المسلمين جميعا حيثما وجدوا على حدود الفرات والنيل أو سواحل المحيط الأطلسي ...

وعندما تسلم صلاح الدين ابن أيوب مقاليد الحكم وجد نفسه وجها لوجه أمام متاعب الصليبيين الذين كانوا يخططون لاحتلال بيت المقدس.

وقد كان من أمرهم أن حاصروا عكا وأخذوا بمخنقها ... وقد أدرك صلاح الدين أن الوسيلة الوحيدة لكسر الحصار هي توفر المسلمين على الأسطول الذي - مع الأسف - لم يكن في استطاعته أن يتوفر عليه.

---

1) ابن الاثير : التاريخ الباهر، تحقيق طليمات مصر، 1963/1382 ص 88 .

وهنا توجه للدولة الموحدية التي كان لها أسطول يعتبر أسطورة البحار ... ومن هنا لاحظنا أن الاتصالات مع المغرب تتكثف، وهكذا فعلاوة على ما عرفناه من اتصالات سابقة، وجدنا أن عددا من الأمراء يصلون إلى المغرب مبعوثين من السلطان صلاح الدين عندما حوصرت عكا ...

هناك عدد من الرسائل التي حررها الكاتب والوزير عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل ... وكانت الرسالة المشهورة هي التي حملها إلى المغرب الأمير عبد الرحمان بن منقذ عام 586= شتنبر 1190 وتتضمن الرسالة شيئين إثنين : الشوق القديم والمرام العظيم :

التهنئة بفتح بيت المقدس (583=1187) ثم الاشعار باستنجاد صلاح الدين بالمغرب : مستودع الأنوار ويعتذر عن تأخر المكاتبة بانشغاله بافتتاح الثغور والقلاع ... إن الذي بقي بيد الكفر ثغران : طرابلس وصور، ومدينة أنطاكية ... وتتحدث الرسالة على استصراخ الكفار هناك باخوتهم الذين أجابوهم رجالا وفرسانا ... برا وبحرا ... كل خرج يلبي دعوة بطريكه ... وخرجت لهم عدة ملوك اقفلت العجمة على أسمائها ... ومنهم ملك الالمان ... وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ... وملأوا ثغرهم من كل مطلوب ... وأعطاهم البحر ما منعهم البر ...! ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بإمداده كلما أفناهم القتل اخلفتهم النجدة ...

واستمر العدو محاصرا للثغر محصورا منا أشد الحصر، لا تستطيع قتال الثغر لاننا من خلفه !... ولا نستطيع الدخول لانه سوّر وخندق ولما خرج ملك الالمان قويت به نفوسهم فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا ... فسلك ذات الشمال مظهراً أنه صريع داء ... وكان أبوه قد هلك في طريقه غرقاً وبقي ولد هو الآن المقدم المؤخرربما وصل بهم إلى عكا في البحر تهيئاً أن يسلك البر ... ولو سبق أصحابنا إلى عسكر الألمان قبل دخولها الى أنطاكية لأخذوه أخذا سريعا.

ويتخلص الخطاب لما يؤمله من حضرة سلطان الإسلام ... والأمل أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمده به غربُ الكفار الكافرين فيملأها عليهم جواري كالأعلام. وتختم الرسالة بالحديث عن إرسال السفير عبد الرحمان ابن منقذ إلى حصن مجلس نصير الإسلام والمسلمين...

لقد استقبل المنصور هذا السفير في أعقاب حملة على البرتغال الذين قتلوا والده، وقد كان في صدر مرافقي ابن منقذ الشاعر المغربي أبو العباس الجراوي ...

وفي أثناء مقام السفارة بالمغرب، في انتظار حمل الجواب للسلطان صلاح الدين، ورد سفير آخر هو الأمير مرهف المنقذي يحمل رسالتين اثنتين أولاهما للخليفة المنصور والثانية للسفير الأمير عبد الرحمن بن منقذ .. لقد سقطت عكا وصلاح الدين يتفاوض من أجل السلام.

وتتضمن الرسالة التي لا تحمل تاريخا إشارة للتسامح المنشود بين المسلم وأخيه، وقد اعتذر صلاح الدين عن تأخير الرسائل والرسل بما كان منشغلا به من الجهاد سواء ضد الكفر أو ضد الإلحاد طوال ربع القرن الماضي على ما أشرنا ... وهنا يشير الخطاب لما قام به صلاح الدين من انقلاب ضد دولة الفاطميين بالديار المصرية ... وما رفعه عن الرعية من مغارم وما منعه من منكرات، ثم يتحدث عن اجتماع الكلمة بين القادة في مصر والشام. ويخبر الخطاب بالنوايا التي كان خصوم الإسلام يبيتونها للاستيلاء على مكة والمدينة لولا يقظة القادة، وبعد أن يبشر الخطاب مرة أخرى بما قام به صلاح الدين من فتح لبيت المقدس(583=1187) ... وتحرير عدد من الثغور حيث لم يبق إلا ثغران ساحليان : طرابلس وصور، وبلد برى وهو انطاكية... ولقد وصف الخطاب المؤنة العظيمة التي تتقاطر على الأعداء وتتحدث الرسالة عن حصار الأعداء لعكا وتصدي الجيش الإسلامي بدوره لمحاصرة المحاصِرين، وأن أولائك خندقوا على أنفسهم وسوَّروا ... وكان البحر يمدهم بما يريدون وهنا يتحدث الخطاب عن الصدام وعن مصرع أكثر من عشرين ألف كافر!

ومع هذا فقد نصبوا الأبراج الحجرية والخشبية وتقدموا بالمنجنيقات وانتظروا ملك الالمان فوصلهم بجموع هائلة العدد ... وأرسل الله عليهم جنديَيْن من جنوده: الجوع والوباء ... وبعد حديث عن غرق ملك الالمان يقول الخطاب أن ابنه قام من بعده ... وورد إلى أنطاكية...ولو أن للمسلمين أسطولاً قويا لجزنا ... وطال الانتظار لهذا فأنهضنا الأمير مرهف المنقذي ...

لقد كشفت لنا الرسالة عن عناصر كنا في حاجة إليها للجواب عن عدد من التساؤلات وخاصة منها ما يتصل بموقف الموحّدين من استنجاد صلاح الدّين، ذلك الموقف الذي لم يكن معروفا بالنسبة لكثيير من المؤرخين السابقين واللاحقين[1]

لقد ظلت بلاد الشام بما تحتضنه من معالم ومشاهد وفي صدرها بيت المقدس، ظلت رباطا للمغاربة يؤدُّون فيه واجب الجهاد لحماية ثالث الحرمين، وإن في أبرز ما يعبر عن ذلك التعلق أن سائر القادة الذين توالوا على الحكم بمصر والشام كانوا يشهدون بذلك التعلق الذي يفسره وجود حي بكامله يحمل بالقدس إسم (حي االمغاربة)[2]

الحضور المغربي في جزر مالديف

لعل من الطريف ونحن نتحدث عن علاقات المغرب بالمشرق - أن نسمع عن أن مجموعة من الجزائر في المحيط الهندي تمسي بين عشية وضحاها مسلمة بعد أن كانت إلى الأمس االقريب غارقة في اعتقادات أخرى ...

كانت تلك هي جزر مالديف القريبة من سيلان والتي زراها الرحالة المغربي ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي فأعجب بتاريخ دخول الإسلام بها في القرن السادس.

---

1) نذكر من هؤلاء صاحب كتاب الروضتين وابن خلدون في تاريخه، كما نذكر بعض المشارقة المعاصرين وأخص بالذكر إسعاف النشاشبي الذي تهجم على المغرب (أمة الألقاب!) متأثرا بما ورد في الروضتين، كما أشير لاحمد شوقي الذي تهجم في مسرحية (غانية الأندلس) على يوسف بن تاشفين، الأمر الذي رد عليه الشاعر المغربي ابن ابراهيم :

أأحمد شوقي، للقوافي رجالها * كأنت، وللتَّاريخ ذو الأخذ والردّ !!

ذكرى موقعة حطين نشر محب الدين الخطيب، القاهرة 1351 = 1932، المطبعة السلفية - مصطفى القصري: الشعر في خدمة التاريخ، مجلة البحث العلمي يناير 1994 .

د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 296 وما بعدها ! رسالة لم تنشر عن الحرب الصليبية الثالثة، مجلة أكاديمية المملكة المغربية !

2) د . التازي : حي المغاربة بالقدس، مركز الدراسات الفلسطينية عدد غشت 1972- القدس والخليل في الرحلات المغربية نشر منظمة الإيسيسكو الرباط 1418=1997.

لقد إجتمع بعدد من الثقات في مالديف كالفقيه عيسى اليمني والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله وجماعة سواهم فحدثوه عن بدء الإسلام في هذه الديار مما كان مداعاة للاثارة، وجديرا بالإشارة.

كان مما هو شائع عند أهل الجزيرة – مما يدخل في إطار الأساطير المتداولة آنئذ، أن كل شهر يظهر لهم «عفريت» من ناحية البحر على مركب يتلألأ بالقناديل، ،كانت عادتهم إذا رأوا مركب هذا العفريت إختاروا جارية بكرا فزينوها وجملوها وأدخلوها إلى بُدَخَانة : بيت كان مبنيا على ضفاف البحر وله طاق ينفذ إليه منه حيث يتركون الفتاة هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ..! ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته للعفريت القرصان.

ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى أبا البركات البربري وكان حافظا للقرآن العظيم، فنزل بدار عجوز منهم، دخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن في مأتم، فاستفهم عن شأنهن، فلم يفهمنه، فأتى ترجمان فأخبره أن القرعة خرجت في العجوز وليس لها إلا بنت واحدة! فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه بالليل عوضا من بنتك، وكان لا لحية له، فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه إلى البدخانة فأقام يتلوا القرآن، ثم ظهر له « العفريت » من الطاق فاستمر في تلاوته للقرآن ... فما كان من العفريت إلا أن غاص في البحر ..! وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله ! فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة على عادتهم ليستخرجوا الجثة فيحرقوها فوجدوا المغربي يتلوا !فمضوا به إلى ملكهم، ،كان يسمى شنورازاه shanu raja وأعلموه بخبر المغربي فعجب منه، وهنا عرض عليه أبو البركات الدخول في الإسلام ورغبه فيه، فقال له ملك الجزيرة : أقم عندنا الشهر الآخر فإن فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت ! ولما دخل الشهر حمل المغربي إلى (البُدَخَانة) وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه : الإمام مالك !

ويضيف الرحالة المغربي إلى هذا قوله : « وإلى هذا العهد فإنهم يعظمون المغاربة بسبب أبي البركات. وقد جعل ذلك السلطان ثلث جبايات الجزائر وقفا على المسافرين الغرباء حيث إن إسلامه كان بسببهم! وقد بنوا مسجدا بالجزيرة معروفا باسمه وقد قرأ ابن بطوطة – على مقصورة الجامع كلمات منقوشة على لوحه من الخشب تفيد أن السلطان أحمد شنو رازه أسلم على يد أبي البركات البربري ...

ويعتبر هذا النقش أقدم خط عربي يوجد في مالديف أن لم أقل في إقليم المحيط الهندي كله. وقد نقش على اللوحة المذكورة ثلاثة سطور : أمر ببناء هذا المسجد المبارك الجامع، لله تعالى السلطان درمس محمد بن عبد الله وأخوه سيري كلو؟ رحمة الله عليهم أجمعين، وأمر الوزير شنورازه ببنائه، فبنا وعمر رحمة الله عليه، ووصل في هذا البلد أبو البركات // يوسف؟ البربري، وأسلم علي يده في شهر ربيع الآخر في سنة ثمان وأربعين وخمس مائة، فقدم وأمر بعمارة هذا المسجد الجامع لله عز وجل مولانا السلطان ابن السلطان شهاب الدين أحمد بن أبي الفتح جلال الدين علي بن أبي الفرج الصلاحي بعمارته فبني وعمر وقام فيه بحمد الله وشكره، وفرغ من عمارته في شهر ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها السلام. »[1]

لقد إختتم ابن بطوطة حديثه الطريف هذا بالعودة إلى سبب تعرفه هو على تاريخ هذا الحدث، فقد دخل الجزيرة ولا علم له بأي شيء، ولكن ذات ليلة سمع النا يجهرون بالتَّهليل والتكبير ورأى الأولاد وعلى رؤوسهم المصاحف، والنساء يضربن في الطسوت وأواني النحاس فعجب من فعلهم ... وسأل عن حقيقة الأمر ... فقالوا : ألا تنظر إلى البحر؟ فنظر فإذا مثل مركب كبير مملوء سرجا ومشاعل يتمثلون به مركب ذلك العفريت االذي كانت عادته أن يظهر مرة في الشهر ..!

سطور نقلناها عن ابن بطوطة وهي تتفق في تاريخها مع ما عرف عن إسلام عدد من الجزر في تلك الجهات من أمثال إندونيسيا وماليزيا والفليبين، على ما يؤيده حتى أولئك النقاد من المستشرقين الأجانب ممن تقفوا أحاديث ابن بطوطة ويومياته[2]

---

1) د. التازي : أقدم نقش عربي مالديف يتحدث عن المغرب، مجلة البحث العلمي (المغرب) العدد 40 السنة الخامسة والعشرون 1410 - 1411 = 1990 - 1991 .

2) رحلة ابن بطوطة : تقديم وتحقيق وتعليق : د . عبد الهادي التازي نشر أكادمية المملكة المغربية الرباط 1992 ج 4 ص 62 وما بعد.

ووصل في هذا البلد أبو البركات
يوسف البربري وأسلم السلطان على يده في شهر ربيع
الآخر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

Abu Al Barakat Youssef Al Barbari arrived in this country. The Sultan was converted to Islam through him in Rabia II in 548.

Abou Al Barakat Youssef Al Barbari arriva dans ce pays. Grâce à lui, le Sultan s'est converti à l'Islam au mois de Rabia II de l'an 548 de l'Hégire.

وثيقة إسلام مالديف على يد المغاربة

ويصح أن نذكر في إطار علاقات المغرب بالمشرق قيام شخصيات أدبية لامعة من المشرق بزيارة لبلادنا والإجابة عن هذه الزيارة بأخرى لشخصية مغربية مرموقة أدت زيارة للشام.

وهكذا نسمع عن تاج الدين أبي محمد عبد الله ابن حمُّويه السرخسي الذين سافر إلى بلاد المغرب سنة 593=1197 وبقي مقيما هنا حتى سنة 600=1204 بعد وفاة المنصور ... لقد ظل على صلة بالبلاط الموحدي لفترة طويلة، وهو الذي سأله العاهل المغربي ذات يوم مؤانسا له «أين بلاد المغرب من بلادك االشامية؟» فأجاب مباسطا : بلادكم طيبة لولا عيب واحد «فقال المنصور: وما هو ؟ فأجابه : «إنها جميلة إلى حد أنها تنسى الأوطان !

وكذلك أيضا نسمع عن السيد الشهير بالمغارب والمشارق أبي الحسن علي بن سعيد صاحب كتاب (المغرب في حلى المغرب) الذي دخل القاهرة في النصف الأول من القرن السابع واحتفل به الأدباء من أمثال الجزار والبهاء زهير وابن مطروح وابن أبي الأصبع، واجتمع بأعيان القوم فاستدعاه سيف الدين ابن سابق، وموسى ابن يغمور نائب السلطة حينئذ.

وقد حدث في هذه الأثناء أن وفد على القاهرة علم الشام في عصره كمال الدين عمر بن إبراهيم المعروف بابن العديم سفيرا من الملك الناصر إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر فاتصل به ابن سعيد. وأفاض عليه ابن العديم من بره ووارف وده...

فقدمه للسلطان الذي سأله عن بلاده والقصد من رحلته ... ووعده بأن يجعل رهن إشارته خزائن الشام والموصل وبغداد، وكان مما خاطبه به السلطان مداعبا : «لقد اتخذنا لكل شاعر من شعرائنا لقبا من أسماء الطيور، وقد إخترنا لك لقبا يليق بحسن صورتك، وبديع إنشادك، وهو (البلبل) ثم خيره بين واحدة من ثلاث : الضيافة في كنف السلطان، أو جائزة سنية ينالها، أو هذا اللقب الجميل ... وبما عهد في ابن سعيد من خفة دم وطرافة نكتة أجاب السلطان : «إنني -يا مولانا - ممن لا يختنق بعشر لقم إذا إزدردتها فكيف بثلاث» ![1]

1) المقري : نفح الطيب، ج 2، ص 272/273 .

واتجه إلى دمشق وتعرف بها على السلطان المعظم توران شاه وأصبح من ندمائه، وقد رأيناه عام 648=1250 يرحل إلى بغداد ويمر بأرمينية وأرّجان ثم يحج إلى بيت الله قبل أن يعود إلى تونس لينزل عند صديقه أبي العباس التيفاشي ويخدم معه المستنصر ثم يرحل مرة أخرى للمشرق فيدخل إيران ويوغل فيها نحو الشرق قبل أن يعود إلى تونس ويدركه أجله هناك عام 685=1286

المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية

ونزولا عند رغبة عزيز مصر الملك الكامل ابن صلاح الدين الأيوبي قام ابن دحية(تـ 633-1235) بتأليف كتاب : المطرب من أشعار المغرب، بعدما ارتحل المؤلف من ديار المغرب للديار المصرية في أعقاب شعوره بالخوف من الخليفة الذي نقم عليه ثقبه لشدق مغنّى ... !

لقد كان دحية من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، اشتغل بطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ... ثم رحل منها إلى بر العودة، ودخل مراكش واجتمع بفضلائها، ثم ارتحل إلى إفريقية ومنها إلى الديار المصرية حيث ألف كتابه المذكور، ثم إلى الشام والشرق والعراق وسمع ببغداد وبواسط ودخل عراق العجم وخراسان وما والاها ومازاندران وسمع بأصفهان وبنيسابور.

وقدم مدينة إربل سنة 604 وهو في طريقه إلى خراسان فرأى ملكها المعظم مظفر الدين مولعا، بالاحتفال بالمولد النبوي فألف له كتابا بعنوان «كتاب التنوير في مولد السراج المنير» سمعناه - يقول ابن خلكان - على الملك المعظم في ست مجالس في جمادى الأخيرة سنة 625=مايه 1227)[1].

وفي إطار محاولة بغداد للتعرف على أخبار المغرب، كان تأليف (المعجب) من لدن عبدالواحد المراكشي المتوفى عام 625 = 1228، فلقد ألفه - استجابة لرغبة وزير للخليفة العباسي لم يذكر إسمه وأيام الخليفة، وجعل تصنيفه في قسمين رئيسيين :

---

1) - د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6، ص 321 .

الأول يتعلق في معظمه بالأندلس، فيستهله بجغرافية شبه الجزيرة ويلم بفجر فتحها وذكر فضلها، ثم يعرض للملوك بني أمية وأمراء الطوائف حتى ينتهي المطاف إلى المرابطين حيث تَمَّ توحيد الحكم بالعدوتين، ويتخلَّل هذا القسم بتْر ضاعت بسببه - الذي قد يكون عملا تشغيبيا - أخبار بعض الملوك الأمويين.

أما القسم الثاني فيتناول في معظمه أيضا الدولة الموحدية من تأسيسها على يد ابن تومرت إلى عصر المؤلف أيام يوسف الثاني عام 621=1224 ...

وقد ظهرت مخطوطة بالخزانة العامة (بالرباط) بعنوان: «روضة الأزهار في عجائب الأقطار» للشيخ أبي أحمد ابن هارون أتمها عام 922، وهي تحمل رقم ك/2381، قالت المخطوطة في الورقة رقم 8 عند حديثها عن مراكش: «وإليها ينسب عبد الواحد المراكشي من علماء بغداد[1] ...»

ومن الجسور القوية التي ربطت بين المغرب والمشرق نذكر أبا عبد الله محمد بن أبي بكر بن رَشيد الذي تنقل عبر بلاد المشرق وأقام ببغداد وتعلق بها قبل أن يعود إلى مراكش في صدر عام 655 وعندما وردت على المغرب أخبار سقوط بغداد في يد التتر عام 656، كان يقول في مجالس وعظه ... وأسفا للمصيبة العامة بالمسلمين والخاصة بي ! توفي في صدر عام 663. [2]

1) - محمد الفاسي: عبد الواحد المراكشي، مجلة البينة، عدد يناير 1963.
2) الذيل والتكملة للمراكشي ق أول ص 274 مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984

الباب الخامس

عصر الدولة المرينية

- العلاقات مع أقطار المغرب الكبير
- العلاقات مع باقي الممالك الإفريقية
- العلاقات مع الجزيرة الإيبيرية
- مع مملكة أراغون والبرتغال
- مع دول أروبا : جنوة - البندقية - بيزة
- صقلية - الكرسي البابوي - انجلترا - فرنسا وميورقة
- مع الديار المشرقية والدولة العثمانية

الفصل الأول

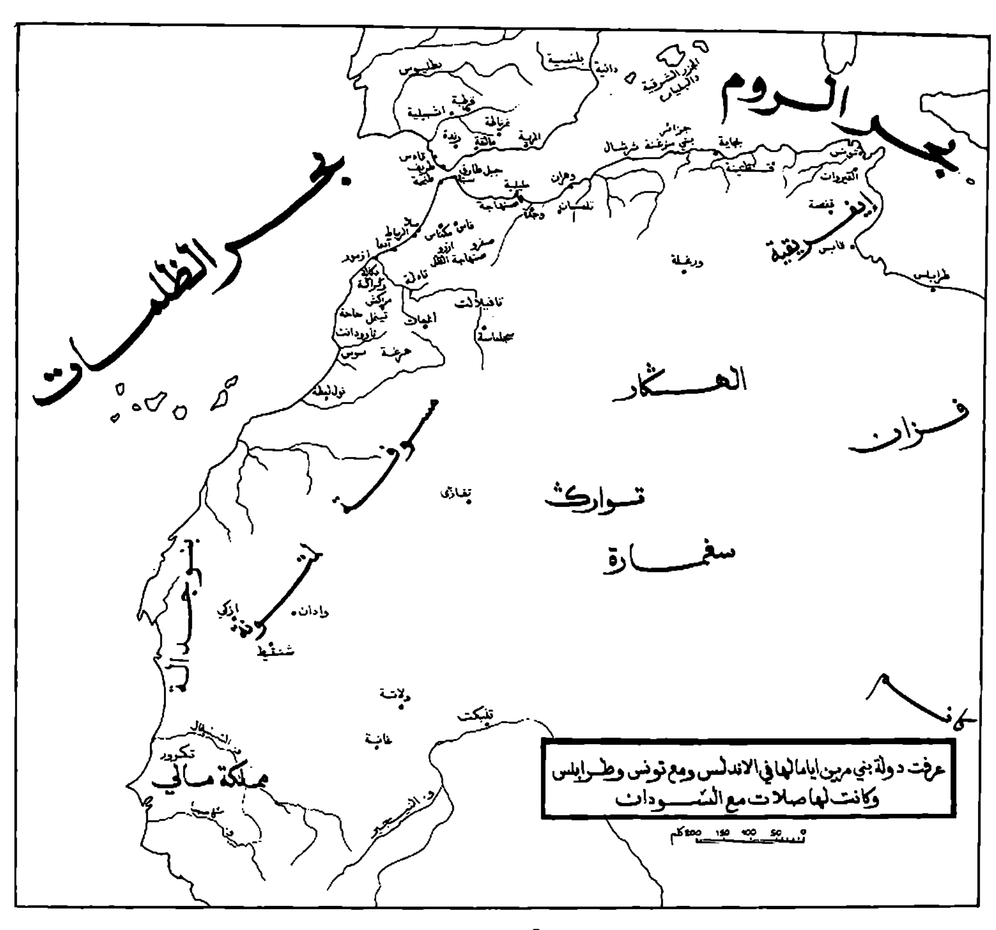
- الزاد الدبلوماسي عند بني مرين
- العلاقات بين أبي يوسف يعقوب وبين يَغْمُرَاسن
- دور الأجانب في نسف كل تقارب بين قادة المغرب الكبير
- مهمة السفير الأراغوني ديسبرينك
- فشل المساعي الحميدة للمغرب بين تونس وتلمسان
- تحرك السلطان أبي الحسن نحو تلمسان
- أعمال السلطان أبي عنان

دولة بني مرين
وعلاقاتها مع أقطار المغرب الكبير

يتجلى من خلال الانطباعات الأولى عن العلاقات الخارجية لبني مرين أنهم كانوا من أنشط الدول المغربية وأكثرها رغبة في الانفتاح على الأمم التي تربطهم معها مصلحة أو يجمعهم بها جوار، وإذا كانت الفترات السابقة في عهد المرابطين والموحدين قد تميزت -على العموم- بشحة النصوص وقلة الاتفاقيات فإن الأمر على العهد المريني كان -على العكس من ذلك- أشمل وأوثق...

وبالرّغم من أن بني مرين عاشوا ظروفا تاريخية متعبة فإن ذلك "التاريخ المتعب" كوّن منهم قادة سياسيين محنكين، استطاعوا أن يفاوضوا في أحرج الأوقات، ويقارعوا أيضا عند ما تقتضي الحاجة ذلك !!

وإذا ما عرفنا أن إمكانيات بني مرين العسكرية كانت دون ما توفر عليه أسلافهم من المرابطين والموحدين أدركنا إذن مغزى إنصرافهم إلى "الزاد الدبلوماسي" كوسيلة لتلافي ما يمكن تلافيه، واستدراك ما يمكن تداركه.



خريطة بني مرين

وإن نشاطهم السياسي في الأندلس سواء مع مملكة أراغون أو مملكة قشتالة أو البرتغال ومملكة غرناطة ليعطي فكرة عن "المدرسة" التي تكون فيها رجال السياسة من بني مرين، فإن إتصالهم المستمر، بهؤلاء وأولئك كان يحتاج -لو دُوِّن بكامله إلى مجلدات ومجلدات تكشف عن مدى تعلقهم بأداء رسالتهم في الأندلس... ومن أجل هذا فإن الحديث عن علاقات بني مرين بهذه المنطقة يعتبر في صدر المواضيع التي تستحق العناية من طرف الذين يهتمون بالتاريخ الدولي لبني مرين.

وإلى جانب اتصالاتهم بالجزيرة الإيبيرية خلال مائتي سنة أو تزيد، كانت لهم صلات مع الكرسي البابوي وجمهورية بيزة وجنوة وصقلية وميورقة والبندقية وفلورانس.

هذا إلى علاقاتهم بفرنسا ومكاتباتهم لملوكها .. واستقبالهم لسفراء بريطانيا والبرتغال ومواصلاتهم ومهاداتهم لملوك إفريقيا ومملكة مالي على الخصوص ...

ولقد حرص المرينيون على مناهضة كل حركة إنفصالية تهدف إلى تفكيك أطراف المملكة المغربية سواء في تونس أو تلمسان أو سبتة ومع ذلك وجدناهم يحتفظون -ما أمكن- بما يربطهم من طيب العلاقات مع مملكة تلمسان، وصاحب تونس وطرابلس ...

وإن في أبرز المواضيع التي تثري التاريخ السياسي لبني مرين موضوع صلاتهم ببلاد المشرق، فلقد كان لهم تجاوب تام مع ملوك مصر والشام ... مراسلات وسفارات ومناصرات ومهاداة تحدثت عنها مصادر المشرق والمغرب علي السواء ...

وأخيراً نرى بني مرين في آخر أيامهم يبادرون بإرسال سفارة لهم إلى العثمانيين الذين قدر لابن بطوطة أن يجتمع بالزعيم الثاني من المؤسسين لامبراطوريتهم : أُرْخان بن عثمان الأول [1].

---

1) رحلة ابن بطوطة تحقيق د> عبد الهادي التازي نشر أكاديمية المملكة المغربية ج II ص 327 تعليق 115 رقم الإيداع القانوني 1997/327

عن علاقات بني مرين بباقي أقطار المغرب : تلمسان/تونس/طرابلس ...

كان إنهيار الدولة الموحدية باعثا رئيسياً لطموح عدد من الولاة للاستنثار بالحكم في المناطق التي كانوا يتولّونها، وفي أولئك من كان ينتسب لعشيرةٍ أو قبيلةٍ تقف ورا ءه تسنده وتموله، وبين هذا وذاك لا ننسى أن للمغاربة قاطبة سواء منهم الموجودون في أقصاه أو أوسطه أو أدناه، أن لهم خصوماً يتربصون بهم الدوائر على الضفة الأخرى للبحر المتوسط ! ولهذا فليس بغريب أن نسمع من الآن عن وجود أياد خفية أحيانا، وظاهرة حيناً آخر، كانت وراء إلهاب الفتن بين قادة هذه الأقطار مما لم تستطع الوثائق الدبلوماسية المعاصرة كتمانه على كل حال [1].

وبالرغم من أن بني مرين ظلوا يعتبرون أولئك الذين تمردوا ضد الوحدة، خوارج عن طريق الجماعة، وبالرغم من أن جل المصادر الأجنبية أيضا استمرت تعتبر أن أولئك الزعماء كانوا، بمثابة عمال الأقاليم، بالرغم من ذلك فسنحاول هنا أن نشير إلى تلك العلاقات لنأخذ فكرةً لأنفسنا حول مرحلة مهمة من تاريخٍ كان يتمخض ليلد كيانات جديدة.

ففيما يتعلق بالمغرب الأوسط يظهر مع مطلع دولة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق إسم الزعيم يغْمُراسن بن زيان الذي سمعنا عن علاقته باغتيال العاهل الموحدي أبي الحسن الملقب بالسعيد عام 646=1248 واقتطاعه المغرب الأوسط لنفسه[2]، والذي أصبح يسعى بكل ما يملك من قوى "لتخذيل عزائم السلطان أبي يوسف" وقد كان يتوفر -فيما يتوفر عليه من عدة- على حمايةٍ من جند الفرنج وناشبةٍ من الغز على الرغم من أن انتقاده على أواخر الموحدين كان يرتكز على أنهم رضوا بأن يعتمدوا على الميليشيات المسيحية !!

وفي وقت كان فيه أبو يوسف يعقوب يستعد لمناهضة يغْمُراسن، وردت عليه سنة 670=1271 سفارة من سلطان غرناطة ابن الأحمر تستصرخ وتطلب النجدة، ومن هنا طرأت عليه فكرة الاتجاه

1) الاستقصا ج 3 صفحة 50
Los Documentos Arabes Diplomaticos P : 227
2) الاستقصا 2 ص 226/225

بالقوات العسكرية إلى سلطان غرناطة، وتجديد المحاولات الدبلوماسية مع الأمير يغمراسن، وهنا كانت السفارة المرينية الأولى إلى المغرب الأوسط وهي تتألف من أشياخ القبائل وأعيان بني مرين ... وكان مما قاله أبو يوسف يعقوب لرئيس البعثة : "إن الصلح خير كله فإن جنح يغمراسن إليه فذاك وإلا فأسرعوا إلي بالخير ..."

وقد اجتمعت السفارة بالأمير الجزائري بظاهر تلمسان حيث كان يأخذ العدة للقاء، فبلغوه الرسالة وعرضوا عليه مقالة السلطان يعقوب فرفض العرض قائلاً : "أبعد مقتل ولدي أصالحه ؟ " فرجعت الرسل إلى السلطان بالخبر[1]... ولم يلبث الجيشان الأخوان أن تلاحما في معركة هائلة على وادي إيسلي من بسيط وجدة، انتهت بمهلك عدد كبير من المسلمين وقتل عامة عسكر الفرنج الذين كانوا صحبة يغمراسن، وتقبض على قائدهم بيرنيس ... !

ومع ذلك فعندما قرر السلطان أبو يوسف يعقوب الجواز الأول إلى الأندلس نة 674=1275 قرر أن يبعث سفارة أخرى إلى يغمراسن أملا في جمع الشمل وتوحيد الصف، وكان رسوله هذه المرة هو محل حفيده الأمير تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب الذي راح على رأس وفد هام من بني مرين لغرض عقد السلم مع الزعيم المذكور، وهنا أكرم يغمراسن وفادة الأمير تاشفين ومن معه وبادر إلى التقارب والألفة، وأجاب على هذه الوفادة بأخرى تألفت من مشيخة من بني عبد الواد، وقدمت على السلطان يعقوب لعقد السلم وقد بعث مع الرسل أسنى الهدايا ... وكانت بالفعل بشرى خير، ليس لبلاد المغرب فقط ولكن كذلك لمسلمي الأندلس الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الوحدة التي تظل ضرورية لضمان وصول المساعدة إليهم ...

ولاشك أن هذا الاتفاق بين المغربين الأقصى والأوسط كان مما لا يروق الخصم المشترك بالأندلس فسعى إلى التشغيب، بل إن ذلك الخصم نجح في تأليب سلطان غرناطة أيضا على ملك المغرب موهماً إياه أن العاهل المغربي يمهد لاجتياح غرناطة !! وهكذا توجهت أواخر سنة 676= مايه 1278 سفارة من السلطان ابن الأحمر ومن ملك قشتالة كذلك إلى الأمير يغمراسن وكان الهدف من

---

1) ابن خلدون : العبر ج 7 ، ص 381/380 - الاستقصا ج 3 ، ص 32

هذه الاتصالات حمل يغمراسن على الانضمام إلى صفهما عوض الإنضمام إلى العاهل المغربي .. وفعلا نجحت المحاولة .. وهكذا أصفقت آراؤهم جميعا على السلطان يعقوب[1]...

وقد شعر العاهل المغربي بخطورة الموقف فقرر الجواب عن الحلف الثلاثي الذي تم بين ابن الأحمر والفونصو من جهة وبين يغمراسن من جهة ثانية، وهنا قرر أن يبعث بوفادة ثالثة إلى الأمير الجزائري يسأله عن مدى صحة الأخبار التي وصلت للمغرب، ويقترح عليه تجديد الصلح، لكن يغمراسن أعلن بما وقع بينه وبين أهل العدوة الأندلسية مسلمهم وكافرهم ...

ولم ييأس أبو يوسف يعقوب فجدد إعادة الرس إلى يغمراسن يحملون رسائل تحدثت المصادر المغربية عن محتواها. بيد أن الجواب كان سلبياً وهكذا أخفقت هذه السفارة أيضا فكان ذلك الصدام المؤسف الذي تم هذه المرة بضواحي تلمسان أواخر عام 679= أبريل 1281.

وعندما توفي الأمير يغمراسن سنة 681=1282 وتولى مكانه إبنه عثمان رأى من السياسة أن يسلك سياسة أخرى مع العاهل المغربي، وبعث سفارة إلى السلطان يعقوب الذي كان بالأندلس وبالذات في حصن أركش(ARCOS) في جوازه الرابع، وكانت السفارة برئاسة أخيه أبي عبد الله محمد بن يغمراسن، وهناك رحب به العاهل وأبرم عقد للسلم بين الطرفين عام 684=1285، وقد ذكر ابن خلدون لهذا التحول الجديد في سياسة بني يغمراسن تفسيراً يقول : إن والدهم لما حضرته الوفاة نصح أبناءه بعدم التحرش بالمغرب...

ولا بد أن نذكّر مرة أخرى بما قلناه، قبل سطور من المحاولات الخارجية لنسف كل تقارب بين القادة المغاربة، وأشير بهذا الصدد لوثيقة تحمل تاريخ 3 ربيع الأول 719= 14 أبريل 1319، ويتعلق الأمر برسالة موجهة من لدن جاك الثاني ملك أراغون بواسطة سفيره بيرنار ديسبيرنك (B.Desping) إلى الأمير أبي تاشفين الأول يطلب إليه أن يقوم[2] بعمليات تحريض ضد ملك المغرب أبي سعيد لما أن هذا أبدى تشدداً إزاء ملك أراغون !

---

1) الاستقصا 3، ص 50

2) De Mas Latine, Introd. page 178 - Docu. p. 312

ونسجل أنه في هذه الأثناء 725=1325 مر الرحالة المغربي ابن بطوطة بتلمسان حيث إلتقى بسفارة هناك واردة من ملك إفريقية على الأمير أبي تاشفين لتطلب إليه سحب مساندته للذين يناوئون الأمير بتونس[1] ...

وتستقر العلاقات نسبياً بين المغربين الأقصى والأوسط زهاء نصف قرن لتتحرك سنة 733=1333 بسبب ما اعتبره سلطان المغرب تطاولا على حلفائه وأصهاره بتونس [2].

لقد وردت على المغرب سفارة من تونس تطلب إلى العاهل المغربي السلطان أبي سعيد (الأول) (تـ 731=1331 أن يقوم بمساعيه الحميدة لدى السلطان أبى تاشفين لكن تلك المساعي لم تنجح وقد تجدد ذلك الملتمس أيام السلطان أبي الحسن الذي وجدناه يبعث بمجرد بيعته بسفارة إلى أبي تاشفين تتوسل إليه في أن يتخلى عن سياسته إزاء تونس.

لكن أبا تاشفين رفض الوساطة وأغلظ للرسُل في القول، وأفحش بعض رجال حاشيته في الرد على السفراء بمجلس الأمير أبي تاشفين، ونالوا من السلطان أبي الحسن بمحضره .. الأمر الذي أدى إلى نشوب الحرب من جديد بين الجيشين أواسط عام 735= يناير 1335.

واقتحم السلطان أبو الحسن مدينة تلمسان يوم 27 رمضان 737= 29 أبريل 1337 حيث استمع إلى كبار الرجال في العاصمة ... واستقبل زعماء عدد من القبائل ...

وقد وردت على السلطان، وهو بتلمسان سفارة عن مقاطعة لانكضوك (LANGUEDOC) بجنوب فرنسا، وذلك لامضاء اتفاقية بتاريخ 4 شوال 739=15 أبريل 1339 لصالح ملك ميورقة الذي كان سيد مونبوليي ورُوسيون، الحدث الذي كان له صدىً في دول حوض المتوسط على ما سنرى في الفصل الخاص بعلاقة المغرب بميورقة ...

---

1) د. التازي تحقيق رحلة ابن بطوطة ج I ص 15-16 تعليق 18 نشر أكاديمية المملكة المغربية 1417=1997

2) التنسي : تاريخ بني زيان، تحقيق وتعليق محمود بوعباد، الجزائر 1985 = 1405 ، ص 145.

ابن خلدون : ج 7، ص 453، الاستقصا ج3، ص 119.

ويتجدد طموح بني يغمراسن في أعقاب وفاة السلطان أبي الحسن ويتجدد الصدام بقيادة ابنه السلطان أبي عنان ويتم تغلب بني مرين ويجلس العاهل أبو عنان لاستقبال الوفود المؤيدة، وكذلك السفارات المهنئة الواردة من الأندلس وغيره ...

وقد ظل السلطان أبو عنان معتبرا أيضا بالنسبة للعالم الخارجي سيد بجاية و بهذا نفسر سفارة حاكم ميورقة إلى بلاط فاس تلتمس من العاهل الإفراج عن المركب الذي حرث بالساحل الجزائري ، كما نفسر جواب السلطان أبي عنان لنائب ميورقة وكان بتاريخ 20 صفر 759= 1 يبراير 1358 ...

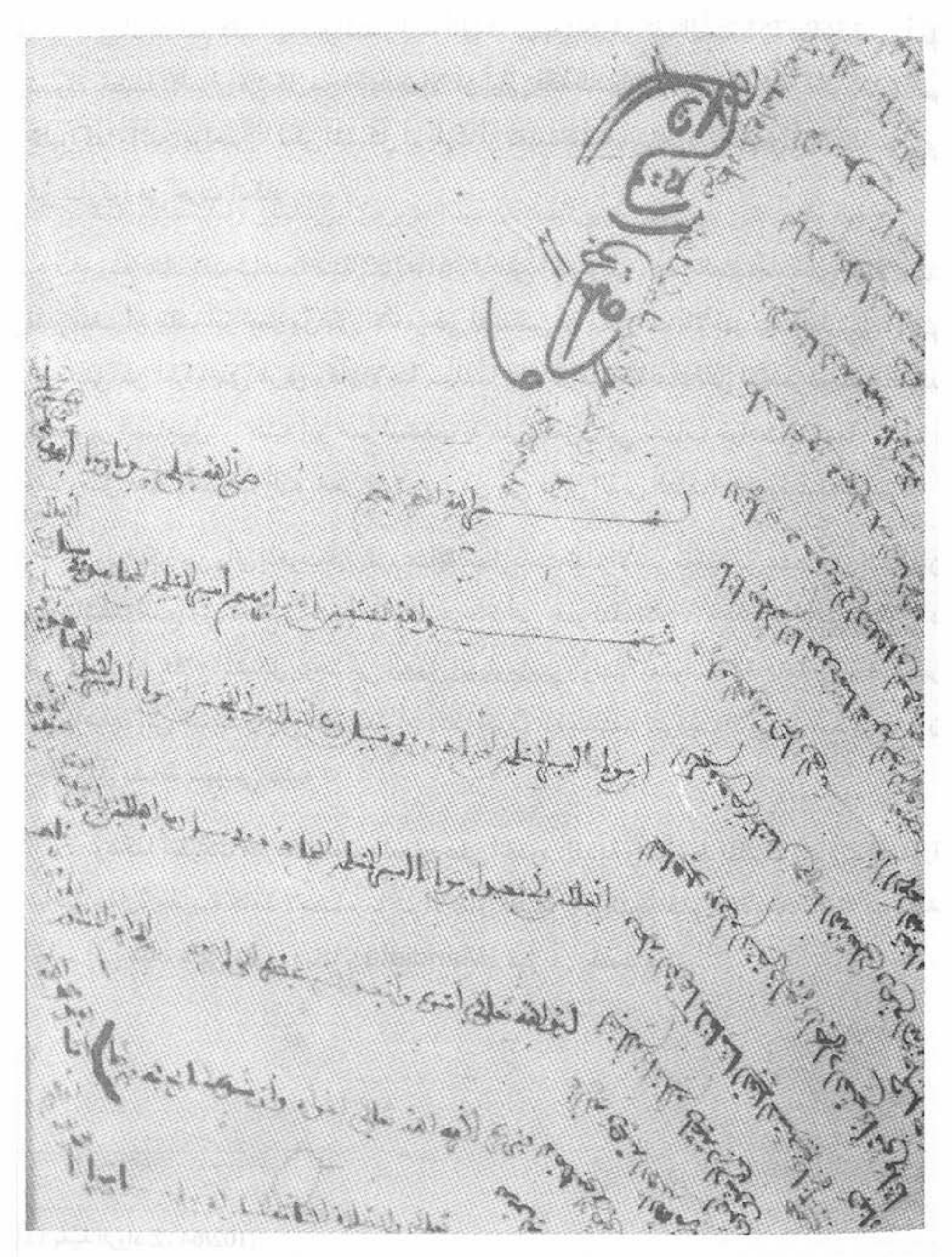
إن أحداً لا يجهل أهمية تلمسان كإحدى المحطات الأساسية التي تعتبر نقطة تلتقي عندها الطرق التجارية وتمر عبرها المواد الصادرة من بلاد السودان والواردة إليها ، وينبغي لمن يؤرخ لهذه الفترة من تاريخ العلاقات بين المغارب أن يجعل في حسابه تلك الاعتبارات، كما يجعل في اعتباره أن تجارة الصحراء كانت على ذلك العهد أحد العناصر الأساسية للتجارة العالمية ... وأن الصحراء تقوم بنفس الدور الذي تقوم به البحار في اتصال الأمم التي تقع على أطرافها.

وبالرغم من أن مركز بني مرين أخذ يتضعضع في تلمسان بعد وفاة السلطان أبي عنان فقد تمكن السلطان أبو سالم في سادس شعبان 761=1360 من دخول تلمسان التي خرج عنها أبو حمو موسى بن يوسف .. بن يغمراسن بن زيان الذي خالف السلطان أبا سالم إلى بلاد المغرب حيث اشتبك في المغرب الشرقي مع جيوش بني مرين في المكان المعروف بأنكاد قبل أن يعود أبو حمود لتلمسان ثامن رمضان 761= 23 يوليه 1360 ويتم عقد مهادنة بين الطرفين مضى عليه الأمر في المستقبل...!

ولعلَّ من المفيد أن نسجل هنا رسالةً صادرة من تلمسان بتاريخ 10 شعبان 761= 27 يونيه 1360 وهي صادرة عن السلطان أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن إلى بيرناط قبريرة (Bernat Cabrera) يخبره بتوجيه سفيره يعقوب الرقاني المعتمد لدى سلطان أراغون ويطلب إليه أن يقدم إليه المساعدة اللازمة ... [1]

---

1) Documentos P : 231



رسالة السلطان أبي سالم من تلمسان إلى بيرناط قبريرة بتاريخ 10 شعبان 761 الموافق 27 يونيه 1360

هذا وقد تبع عقد المهادنة المشار إليه آنفا تبادل بعثات في نف السنة 761=1360 من أجل نسوية قضية الأسرى في كل من الجهتين إلا أن أولى هذه السفارات لم تنجح نظراً لكون بني حمو طلبوا فداء اثنين بواحد [1] لكن المشكل لم يلبث أن تغلب عليه بعد تحرير نحو من أربعمائة جزائري ممن شاركوا في حرب أنكاد ...

ومع ذلك فقد شاهدت سنة 762=1361 على الخصوص بعض التشنجات في العلاقات، فقد حدث أن طلب أبو حمو من بني الأحمر في الأندلس أن يبعثوا له بالأمير عبد الحليم بن الأمير أبي علي من أمراء بني مرين وكان لاجئا سياسيا بمملكة غرناطة عند بني الأحمر، وبالذات عند محمد بن اسماعيل... طلبه أبو حمو ليشغب به على المغرب في أعقاب حوادث غرفتها الحدود ! وقد وصل فعلا وانضاف إليه بعض الموتورين من بني مرين الذين التزموا بمبايعة عبد الحليم !

ولم يكن من رأى المغرب أن يقوم بمثل العمل باستخدام الأمير محمد بن عثمان بن السلطان أبي تاشفين الذي ورد للمغرب في أعقاب استرجاع أبي حمو لتلمسان ... وقد أدرك بنو عبد الواد في الأخير أن علاج المشكل يوجد في العمل الديلوماسي، ولهذا بعثوا سفارة هامة برئاسة الأمير أبي تاشفين إلى السلطان أبي سالم بعد أن أكد المغرب أنه مستعد لتوقيف الأمير محمد بن عثمان وحظر كل نشاط سياسي عليه !

وهكذا انفرجت الأزمة وانعقد الصلح على الحدود القديمة والشروط المألوفة وعادت السفارة صحبة سفارة مغربية هامة لامضاء ما تم الاتفاق عليه [2] والتجأ عام 767=1366 الأمير عبد الحليم إلى ملك مالي ماري دياتا (Maridiata) قبل أن يقصد مكة.[3]

---

1) بغية الرواد 2، 102/64.

2) بغية الرواد لبني عبد الواد تأليف يحيى ابن خلدون ج 2، 92/90 الاستقصاء : ج 4، ص 43.

3) Delafosse : Les relations du Maroc avec le Soudan, Hesperis, 1924 p. 162

ومن هنا تمركز شأن السلطان أبي حمو الذي نراه يكلف المهندس ابن الفحام لينشئ له ساعة مائية على نحو ما كان فعل بفاس السلطان أبو عنان بيد أن مصير الساعة آل إلى خراب ولم يبق من آثارها إلا برجها الماثل على باب المشور.[1]

ولما جلس على عرش بني مرين السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن وفدت عليه بعثة من أهل المغرب الأوسط معلنين سخطهم علي أبي حمو طالبين العودة إلى حكم بني مرين، وهكذا زحف عبد العزيز إلى تلمسان سنة 771=1369 حيث لاذ أبو حمو بأذيال الفرار وتم الاستيلاء على مملكة بني عبد الواد حيث أقام العاهل المغربي هناك إلى أن أدركته وفاته سنة 774=1372-1373 ...

1) المقري : النفح 513-514.

الفصل الثاني

علاقات المغرب بتونس وطرابلس

- تبادل السفارات بين المغرب وتونس

- أصداء الخلاف بين تونس وتلمسان في مغرب بني مرين ...

- مصاهرة حكام المغرب لحكام تونس : استشهاد فاطمة في كائنة طريف وتزوج العاهل بأختها عزّونة

- الدور السياسي للحاجب ابن تافراجين بتونس
- حركة أبي الحسن لتونس وتغير الأحوال بها
- عودته وكارثة الأسطول المغربي
- افتداء أبي عنان لطرابلس من جنوة
- السفارات المتبادلة بين المغرب وبين مالي
- مذكّرات ابن بطوطة عن إفريقيا

علاقات المغرب بتونس وطرابلس ...

وفيما يتعلق بالمغرب الأدنى : تونس، نرى الأمور تجري على نحو ما جرت عليه في المغرب الأوسط، فقد ساعد إنهيار دولة الموحدين على ظهور بني الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي الذي كان من السابقين الأولين للقيام بدعوة المهدي بن تومرت.

وهكذا لم تكد دولة بني مرين بالمغرب الأقصى تشرع في إرساء قواعد الملك لها حتى كانت دولة بني حفص قد استقرت بتونس وتوالت عليها البيعات من عدد من أمهات المدن سواء بالمغرب أو الأندلس ..!

ويمكن أن نسجل هنا أن أول اتصال بين بني مرين وبني حفص يرجع لتاريخ الملك الأول من بني مرين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الذي استقبل سفارةً هامة من تونس بعث بها محمد بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الملقب بالمستنصر بالله، جوابا على سفارة راحت من المغرب إلى تونس سنة 667=1268 برئاسة الأمير عامر بن إدريس بن عبد الحق بن أخي العاهل المغربي "تخبر المستنصر بعزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش" وكأنه يطلب تزكية المستنصر الذي ينحدر من ذريةٍ كانت ما تزال تنعم بتقدير من لدن عامة البلاد المغربية [1] ....

---

1) ابن القنفذ القسطنطيني : الفارسية تحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي - الدار التونسية للنشر ص 131.

وهكذا -وبعد فتح مدينة مراكش والاستيلاء عليها- بعث المستنصر بهدية كانت تعبيراً عن مباركته للحركة. وقد بعث بذلك مع جماعة كان على رأسها كاتبه ووزيره أبو عبد الله محمد بن محمد الكناني...

وقد كان مما قدمه الكاتب المذكور من ملتمسات أن يذكر إسم "المستنصر" على منبر مراكش، فأمر العاهل المغربي بأن يتم ذلك مجاملة للضيوف الذين عظم سرورهم بذلك وانقلبوا وألسنتهم رطبة بالحديث عن المغرب. وهكذا اتصلت المودة والمهاداة بين المستنصر وأبي يوسف سائر أيامهما ...

وقد سار أبو زكرياء الملقب بالواثق ابن المستنصر على سنن والده في ربط الصلات بالعاهل المغربي أبي يوسف ... وهكذا فجوابا على سفارةٍ مغربية للتعزية والتهنئة أرسل الواثق - ولو أن أيامه لم تطل- بوفادة سنة 677=1278 يرأسها أبو العباس الغماري قاضي بجاية تحمل هدية حافلة عظم موقعها لدى ملك المغرب الذي أكرم الوفادة وأجل مقدمها لا سيما وقد كان للسفير الغماري صيت طيب بالمغرب تحدث عنه الناس ردحا من الزمان[1].

وقد حدث أن جهز أبو تاشفين سنة 729=1329 جيشاً كثيفاً عقد عليه لقائد الجيش يحيى بن موسى أحد رجال دولته، ونصب على مملكة تونس أحد الحفصيين المتمردين : محمد بن أبي عمران[2]...

وهنا -وبعد أن رمت الأقدار بالسلطان أبي بكر بن زكرياء الحفصي إلى بونة جريحا مطرودا- قرر أن يبعث بوفادة إلى صهره السلطان أبي سعيد المريني كان على رأسها إبنه الأمير أبو زكرياء ووزيره أبو محمد عبد الله بن تافراجين [3]

---

1) الاستقصا ج 3، ص 29.

2) يراجع ما أسلفناه عن سفارة تونس لتلمسان التي حكى عنها ابن بطوطة في رحلته ج I ص 15-16 تعليق 18.

3) التنسي : تاريخ بني زيان، تحقيق بِ يغيرا، الجزائر 1405=1985 ص 145 ، راجع الفصل السابق الخاص بالعلاقات مع المغرب الأوسط.

وفي مرسى غساسة حطت السفينة، ومن هناك أخذ القوم طريقهم إلى بلاط السلطان أبي سعيد حيث قدموا له وصفا للظروف التي تعيش عليها تونس...

وقد كان جواب العاهل واضحا فقد وقف إلى جانب الحفصيين "والله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولأسيرنَّ بعساكري إلى تلمسان فأنازلها" !!

وطلب إليهم أن يبلغوا السلطان أبا بكر الحفصي وعده بمناصرته. ويظهر أن هذا الموقف من المغرب كان له أثر على تراجع بني يَغْمراسن عن خطتهم.

وهنا استدعى السلطان أبو سعيد أعضاء الوفادة التونسية وزف إليها بشرى عودة الأمور إلى نصابها وأذن لها بالإنصراف إلى تونس.

وقد قرر السلطان أبو سعيد إرسال سفارة مغربية صحبة السفارة التونسية، كان الغرض منها إظهار مزيد إهتمامه بأولئك الذين تطارحوا عليه يطلبون نجدته، ولم يكن هناك من تعبير عن ذلك الاهتمام أصدق ولا أدل سوى إحكام الصلات مع سلطان تونس بخطبة ابنته الأميرة فاطمة لولده الأمير أبي الحسن !!

لقد كانت البعثة المغربية تتألف من إبراهيم بن أبي حاتم العزفي وقاضي حضرة فاس أبي عبد الله بن عبد الرزاق، وقد اجتمعا بالسلطان أبي بكر الحفصي حيث حملا إليه تهاني العاهل المغربي بعودته إلى عرشه وبلغوا رسالته الخاصة بالمصاهرة [1] ... وقد أرضيت الرغبة وزفت الأميرة فاطمة في أساطيل ملك تونس يرافق ركبها : شيوخ الموحدين برئاسة كبيرهم أبي القاسم بن عتو الذي كانت له مهمة أخرى بالمغرب : تلك إطلاع العاهل المغربي على العهد الذي كتبه السلطان أبو بكر لفائدة ابنه الأمير أبي العباس أحمد، وطلب تزكيته عليه.[2]

---

1) د. عبد الهادي التازي : المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، نشر الفنك بمساهمة Friedrich Ebert Stiftung 1992، الدار البيضاء، ص 246/245.

2) الاستقصا 3، 154.

ووصل موكب العروس إلى مرسى غِساسة سنة 731=1331 ، وهناك تم استقبال حافل لركب العروس الذي وجد المطايا المختلفة لحمل جهازها وأمتعتها مع من صحبها.

وقد صيغت للاميرة التونسية قطع من الذهب والفضة، وأعدت لها الثياب الحريرية المطرزة بالذهب... واحتفل السلطان أبو سعيد لهذا الحدث بما لم يسمع بمثله في دولة بني مرين!

لقد أصبحت تونس بعد هذا الحدث السعيد أقوى صلة وأكثر إرتباطا مع المغرب من أي وقت مضى، ولهذا نراها تشاطر السلطان أبا الحسن اهتمامه بالأندلس، وتجعل أساطيلها تحت تصرفه عند الطلب، وفعلاً استقبلت سفارة هامة سنة 740=1340 وردت لتطلب إلى أصهاره الحفصيين أسطولهم وذلك في أعقاب الاشتباك الذي حدث بين قشتالة وبين المغرب والذي استشهد فيه الأمير أبو مالك نجل السلطان أبي الحسن على ما نذكره في العلاقات المغربية مع الأندلس.

ولقد كان وقع استشهاد الأميرة فطُومة في كائنة طريف 741=1341 على السلطان أبي الحن بالغاً وعظيماً نظراً لما أثر عنها من طيب عشرة وحصافة رأي، ولذلك فقد بقي في نفسه حنين إلى بيت بني حفص في تونس، الأمر الذي يفسره وجود سفارة جديدة بتونس سنة 746=1345 تطلب يد الأميرة عزُّونة ...

كانت السفارة تتألف من عددٍ كبير من الشخصيات الهامة كان فيهم الأمير عريف بن يحيى قائد عرب سويد من بني زغبة الهلاليين، وكاتب الجباية والعسكر بدولته أبو الفضل بن محمد بن أبي مدين، وفقيه الفتوى بمجلسه أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي يصحبهم مولاه عنبر الخصي ...

وقد خصص إستقبال حافل للسفارة المغربية التي عُرضت على السلطان أبي حفص، وبالرغم مما شعر به سلطان تونس من وحشةٍ وهو يقدم بنته الثانية، فقد استجاب لرغبة السلطان أبي الحسن، وانعقدت المصاهرة بينهما على الأميرة عزونة شقيقة أبي العباس الفضل بن أبي بكر صاحب بونة، وأخذ الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراجين في تجهيز العروس... واستمرت الوفادة في تونس إلى استكمال الجهاز فارتحلوا عنها في ربيع سنة 747=1346، وقد كان على رأس

الموكب التونسي الذي صحب العروس الأمير الفضل نفسه، إضافة إلى جماعة مهمة من مشيخة الموحدين...[1]

وقد استقبل الركب من طرف السلطان أبي الحسن الذي وجدناه يقوم نفسه بوضع تصميم على كاغد، للدّار التي تسكنها عزونة والتي شاء أن يجعلها على أربع قباب ودويرتين تتصلان بها منقوشة الجدران إلى آخر الوصف الدقيق الذي يعتبر نموذجا للبيت المغربي على عهد بني مرين[2].

لقد كان السلطان أبو بكر عهد بالأمر لابنه أبي العباس أحمد ابن أبي بكر وأطلع السلطان أبا الحسن على ذلك بواسطة سفيره أبي القاسم بن عتو على ما أسلفنا[3]... لكن الذي حدث بعد الوفاة أن ولي العهد كان غائبا عن الحضرة فبايع الوزير الحاجب ابن تافراجين أخاه عمر... الأمر الذي سبب سلسلة من المآسي والخطوب لتونس...

وقد أحس ابن تافراجين بما يتهدد البلاد من شرور، فقصد السلطان أبا الحسن حيث قدم له وصفاً عما وصلت إليه تونس وأغراه بتملك إفريقية.

وهكذا نهض السلطان أبو الحسن إلى إفريقية في صفر 748= مايه 1347 يجر الدنيا بما حملت بعد أن عقد لابنه أبي عنان على المغرب الأوسط...

ونزل السلطان بظاهر تونس يوم الأربعاء 8 جمادى الآخرة 748= 15 شتنبر 1347 فتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورى، وكانت تونس تعج آنئذ بالأعلام الأكابر

وركب السلطان من قسطاطه وعن يمينه عريف بن يحيى أمير عرب سويد ويليه الوزير تافراجين، وعن يساره الأمير أبو عبد الله بن أبي زكرياء أخو السلطان أبي بكر، ويليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد، وقد كانا معتقلين بقسنطينة فحررهما أبو الحسن.

---

1) الاستقصا ج 4، ص 51/50 - العروسي المطوي : السلطنة الحفصية 1986، ص 379. د.التازي : المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، نشر الفنك الدار البيضاء 1992، ص 241/240.

2) المسند الصحيح الحسن ص 449/448. د. التازي : تصميم المدينة المغربية من خلال المصادر العربية والأجنبية، نونبر 1988، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 3، ابن مسيك، الدار البيضاء.

3) الاستقصا ج 3، ص 154.

لقد هدرت طبول موكب بني مرين وخفقت راياتهم ووصل السلطان والمواكب، تجتمع عليه صفا صفا وقد ماجت الأرض بالجيوش، قال ابن خلدون : "وكان يوماً لم ير مثله فيما عقلناه"...

وارتحل السلطان أبو الحسن من غده إلى القيروان... ثم سار إلى سوسة، ثم إلى المهدية، ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير ورجع إلى تونس.. ولم يبق من ذكر لبني حفص خلا صهره الأمير الفضل ابن السلطان أبي بكر الذي جدد له العقد على (بونة) إكراماً لصهره ووفادته السابقة عليه.

إلا أن أيام أبي الحسن بتونس نغصت بسبب بعض الأعراب الذين أغضبهم بمطالبتهم باسترجاع إقطاعات بني حفص مردداً قولته المأثورة : "إنما يمضي عطاء مَن يُعرف مقدارُ ما أعطى"[1].

وغدر الوزير ابن تافراجين بأبي الحسن بعد أن لم يجد فيه إستعداداً لإشباع مطامعه، ولم يلبث-وقد إختلطت الأمور- أن إلتجأ إلى الإسكندرية .. في حين اشتدت فيه ثورة الأعراب مستقدمين الأمير الفضل بن أبي بكر لتحريضه على استرجاع ملك أسلافه ...! وهكذا قرر السلطان أبو الحسن التعجيل بالعودة للمغرب ...

وقد صاحب كل تلك الأحداث وصول الأخبار باستلاء إبنه أبي عنان على الحكم إعتمادا على إشاعة خاطئة تقول : إن السلطان أبا الحسن توفى[2]!!

وقد شاءت الأقدار أن تمتحن السلطان أبا الحسن سنة 750=1349 بعاصفة بحرية كادت أن تذهب به، بعد أن أتت على عدد من جلسائه ورجال حاشيته كما افتقد عدداً من التحف الثمينة والرفيعة على ما تتحدث به رسالة دبلوماسية موجهة إلى ملك أراغون تحمل تاريخ 29 رجب 751= 14 شتنبر 1350. [3]

---

1) ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان ج 1، ص 176.

2) صادفت عودة الرحالة المغربي ابن بطوطة لبلاده هذه الفترة فكان ممن سلّموا على السلطان أبي الحسن : الرحلة تحقيق د. التازي ج 4، ص 128.

3) لا صحة لما قال المقرئ في النفح من أن الضائع من العلماء أربعمائة ومن قطع الأسطول ستمائة !!
Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon - 1940 P. 196-197-198. - د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7، ص 142.

وقد ظل صنيع الأعراب بالسلطان أبي الحسن عالقاً بذهن ابنه السلطان أبي عنان الذي جدد أساطيله للكرة على تونس أيام سلطانها أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن يحيى، وهكذا استولت الأساطيل على المدينة في رمضان 758=1357 والسلطان أبو عنان بقسنطينة ...

وقد عدل أبو عنان عن متابعة حركته عملاً بنصيحة أشياخ بني مرين، ولابد أن نشير -مع هذا- إلى أن السلطان أبا إسحاق عزز جانبه بمعاهدة سلام بينه وبين الملك بيير الرابع ملك أراغون (25 صفر 761= 15 يناير 1360) تحسبا للطوارئ [1]...

وقد حدث سنة 810=1407-1408 أيام تملك أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن يحيى أن وردتْ وفادةٌ من تونس من بني سليم على السلطان المريني أبي سعيدالثاني تستنجد به ضد سلطان تونس المذكور حيث اجتمعوا بفاس مع الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء الذي كان التجأ إلى بلاط بني مرين بعد إنهزامه في أعقاب صراع على الحكم بينه وبين الأمير أبي بكر بن أبي العباس أخي أبي فارس المذكور.

وهكذا عقد السلطان أبو سعيد الثاني للأمير اللاجئ على جيش من بني مرين وغيرهم وبعثه مع الأعراب الوافدين المستنجدين بيد أن الحظوظ عاكست الأمير أبا عبد الله الذي لقي مصرعه ...

ولم يكن القضاء على أبى عبد الله كافياً فلقد قرر السلطان أبو فارس التحرك إلى فاس ليأخذ بثأره من ملوك بني مرين ! وشجعه على ذلك أنهم أي بني مرين كانوا في آخر الأيام ! وهكذا زحف أبو فارس إلى المغرب سنة 827=1424 فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس، ولما شارفها جنح سلطانها القائم عبد الحق ابن أبي سعيد إلى السلم ووجه إليه بوفادة مصالحة تحمل معها عدداً من الهدايا الجليلة، وقد استقبل أبو فارس هذه السفارة وجنح للسلم وإنكفأ إلى حضرته تونس...

---

1) ابن أبي الضياف ج 1، ص 180.

De las cagigas, un Traité de Paix Hesp 1934 Fasc 1, II P.65.

ويتأكد لدي أنه عقب هذا الصلح الذي عرفنا عن ظروفه -توجهت سفارة مغربية إلى تونس برئاسة العلامة ابن مرزوق (الحفيد) الذي لقي هناك من "عنت" زملائه العلماء ما نرى أن نختم به هذه الورقات طلباً للاتحاف والأطراف !![1]

لقد حدث أن إقترح على السفير ابن مرزوق أن يقوم بإلقاء درس بحضرة السلطان، وقد رحب ابن مرزوق بالعرض، وتم مسبقا تعيين الآية المطلوب الحديث حولها... وانقطع الشيخ -طوال الليل- إلى البحث استعدادا. ولكنه عندما حضر الموعد فوجئ بأن زملاءه المشايخ كانوا قد أوعزوا للسارد[2] بتغيير الآية المتفق عليها بآية : "فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث" قاصدين بذلك التعريض به من جهة وإرباكه من جهة أخرى !! لكن السفير ابن مرزوق بما كان يتوفر عليه من قوة عارضة أظهر رباطة جأش نادرة وتجاهل القصد وشرع في تفسير "آية الكلب" وكأنه لم يقع شيء !!

وقد قضى في هذا الموضوع فترة من الوقت إمتدت من الصبح إلى قرب الظهر إستهل فيها بالحديث عن الآية الكريمة وموقعها من الآيات السابقة واللاَّحقة وأسباب نزولها وأسرار بلاغتها وانتقل مباشرة إلى ذكر الكلب وأسمائه السبعين [3] وإلى خصاله المحمودة : ذكي وفي، وعندما يتيقن أن حبه لصاحبه لا يلقى مكانه، يبتعد بنفسه، يصبر على الجوع والعطش، يقوى على الجري والعدو، سباح ماهر، شديد الحرارة ينجب بكثرة .. ! ساق ابن مرزوق هذه الصفات أحسن مساق وأنشد عليها من الشواهد العربية، وجلب من الحكايات المطرفة ما أثار إنتباه الحاضرين وشدهم إلى الاستماع إليه بعناية وإهتمام، وقد كان في صدر المتوجهين إليه بكامل إدراكهم السلطان أبو فارس...

1) نفح الطيب ج 5 ص 433 - تاريخ جامع القرويين ص 424.

2) السارد هو الذي يتقدم في بداية الدرس بتلاوة الموضوع المطروق، وهو يقوم بدور مهم بالنسبة لسَيْر الدرس حيث يكون العضد الأيمن للشيخ : يلقنه متى ما غفل ويكمل ما يمكن أن يغيب الأستاذ عن إتمامه...

3) يحكى أن أبا العلاء المعري دخل على الشريف المرتضي فعثر برَجُل فقال له الرجل، مَن هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب هو من لا يعرف للكلب سبعين إسماً، فقرَّبه الشريف واختبره فوجده من كبار العلماء ...

ولم يشعر الحاضرون بالوقت الذي كان يمضي بسرعة، وقد أدرك "المشايخ" الذين تآمروا على السفير أنهم كانوا مخطئين لكنَّ الذي أثارهم هو هذه العبارة القصيرة التي اختارها لختم درسه .. قال : "فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله غير أن فيه خصلة واحدة ذميمة هي التي صيرته كلبا ألا وهي إنكاره لحقوق الضُّيوف فهو ينبح عليهم وهم في بيته ويتحرش بهم وهم بين ظهرانيه...!

ولا شك أن أبا فارس-وقد علم عن الكمين الذي نصبه المشايخ لزميلهم -أنب الذين أرادوا أن يتخذوا من قصره حلْبة للمنافسات المهنية !!

سقوط طرابلس في يد الجنويين وافتداؤها من لدن ملك المغرب

لقد كان عمل طرابلس منتظماً في أعمال الحفصيين إلى أن انقسمت دولة هؤلاء فصارت رياسة طرابلس إلى الشورى.. وقام بأمرها ثابت بن عمّار.. الذي خلفه ولده محمد فاستبدَّ بها نحواً من عشرين سنة وظِلُّ الدولة في إفريقية متقلِّص عنه، وكان يغالط عن الإمارة بالتجارة والإحتراف بها... ويذهب مذهب التخلق والتواضع، يُسر حسْواً في ارتغاء... إلى أن تغلب بنو مرين ووصل السلطان أبو الحسن إلى تونس فداوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه على حد تعبير ابن خلدون، وبعد اغتيال محمد، ولّى ابنه ثابت فتزيا بزي الإمارة في اللبوس والركوب واتخاذ الحجاب والبطانة.. وأقام على ذلك إلى أن اجتاح النصارى (الجنويون) طرابلس فولى هارباً حيث لقي حتفه في أعقاب هذا الحادث...

ولا بد أن نذكر شيئا عن هذا الحدث البالغ الأهمية : فعندما استباح أهل جنوة مدينة طرابلس عام 755=1354 وعاتوا فيها سلباً ونهبا : توسط أبو العباس أحمد مكي صاحب قابس لافتدائها من الجنويين.. وقد إستعصى عليه ذلك، لأنهم شرطوا عليه دفع مبلغ من المال يقدر بخمسين ألف مثقال من الذهب العين...

وحتى لا يترك المدينة عرضة للاحتلال فكر في أن يفتح "اكتتابا" يجمع بمقتضاه من ذوي اليسار والأريخية "وأصحاب النفوذ في المدينة ما يمكن أن يسدد به ذلك المبلغ، لكنه عجز فعلا عن أن يحصل على ما يحقق الرغبة ...

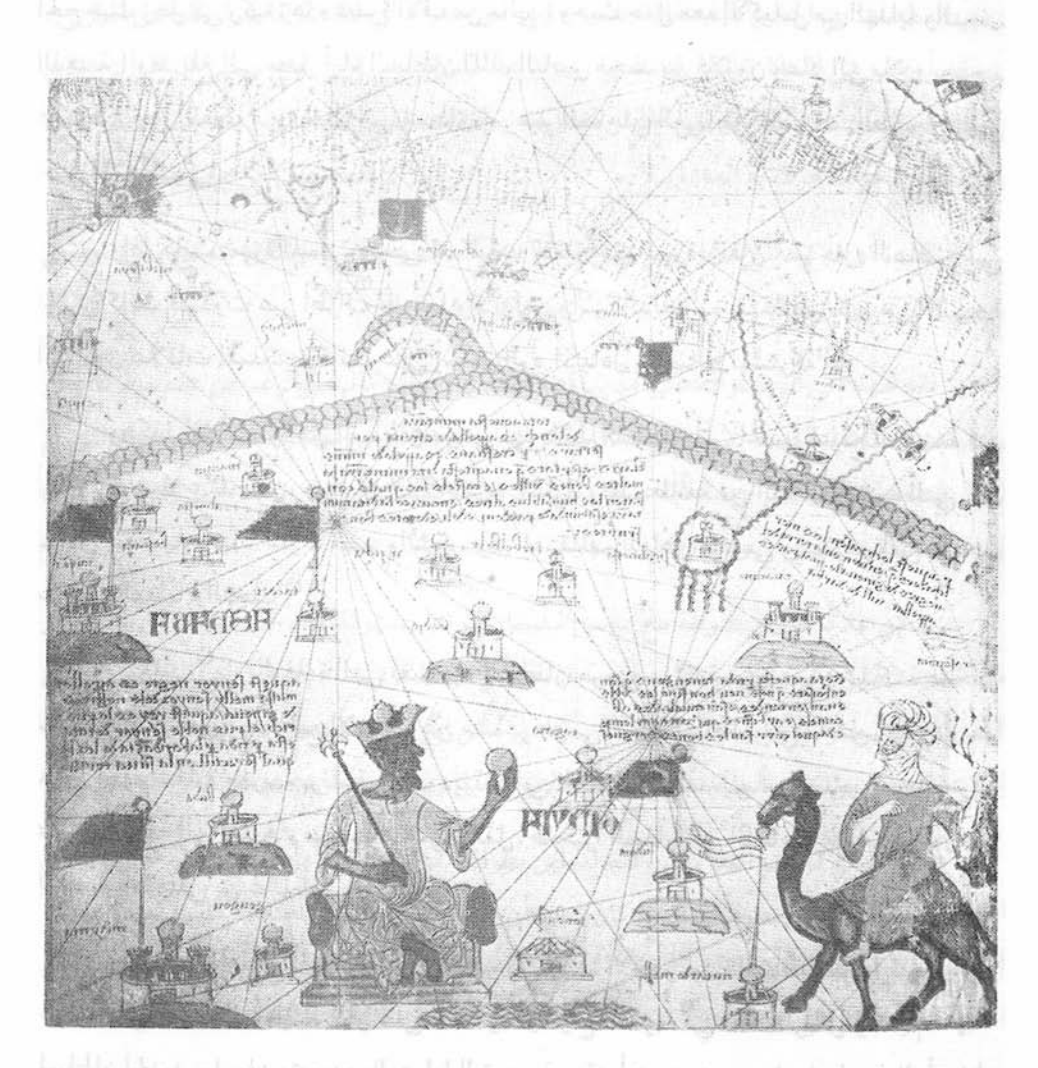
ومن هنا وردت فكرة إرسال سفارة إلى العاهل المغربي السلطان أبي عنان تعرض عليه الحال مستنجدة مستصرخة، وقد كان السلطان أبو عنان يأمل أن يبعث بجيشه وأسطوله لنصرة المدينة غير أنه رأى أن ذلك لا يتأتى لبعد تلك الأقطار.. وقد أصدر السلطان أبو عنان أمرا بأن يبعث بذلك المبلغ كله من ماله.. ولم يكن ليخطر ببال أحد أن يكون ذلك المبلغ من المال نزرا يسيرا بالنسبة لأبي عنان لقد كانت "مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل في الملوك أمثالها وعز عليهم مثالها" على حد قول المؤرخين[1].

علاقات بني مرين ببقية الممالك الإفريقية

لقد تمسك ملوك بني مرين -فيما يتعلق ببقية الممالك الإفريقية- بالمحافظة على علاقات الود والإخاء التي ربطتهم بتلك الممالك بالرغم من أن ظل الحكومة المغربية أخذ يتقلص على تلك الجهات النائية منذ العهد الموحدي.. وقد إزداد ذلك التقلص أثناء اشتغال بني مرين بحملاتهم ضد المنشقين عليهم هنا وهناك...

لقد أمست إمبراطورية مالي فعلا تضم عدداً وافراً من الأقاليم الإفريقية، وقد بلغت أوج عظمتها في عهد المنسي (أي الملك) موسى ثم المنسى سليمان ... كان موسى سليل الامبراطور سوندياتا من عائلة كيتا الشهيرة، وهو الذي أجهز على مملكة صوص. وقد حكم موسى طوال ربع قرن تمكن فيه من توحيد الفئات والنزعات المتنافرة، وكانت امبراطوريته تحتوي على أربعمائة حاضرة جعل من كل منها قاعدة للملك...وقد حرص على ربط علاقات الود مع كافة الدول المشهورة في عصره، وهكذا أصبحت (مالي) مملكة مزدهرة يقصدها القاصي والداني وأمست ذات شهرة في ميدان النشاط التجاري...

1) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار -ابن خلدون : العبرج 6 طبعة بيروت ص 837/836 -رحلة ابن بطوطة تحقيق د. التازي نشر أكاديمية المملكة المغربية ج 4، 350-355- العياشي : الرحلة، طبعة فاس الحجرية، الناصري: الرحلة طبعة فاس 60 - ابن غلبون : التذكار -نشر الزاوي ص 60/59-التازي : أمير مغربي في ليبيا أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة/المحمدية 1976، ص 15.



الرسم يمثل منسى موسى ملك مالي (rex Mely) عن الخارطة الكروية لدولسير (Dulcert) عام 1339
باريز المكتبة الوطنية Ge. Be 696

وقد زادت شهرة المنسى موسى اتساعا عندما قام 724=1324 بزيارة للشرق لأداء مناسك الحج حيث رحل في ركبه زهاء عشرة آلاف من مالي ! وحيث حمل معه الأكياس من الهدايا والتحف الذهبية ! وقد بلغ إلى مصر أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وعاد إلى بلاده يصحبه عدد من رجال الفكر من أمثال أبي إسحاق إبراهيم الساحلي الغرناطي المعروف بالطويجن الذي اختار (تنبكتو) محلا لإقامته...

وإذا كانت شهرة المنسى موسى قد طبقت الآفاق في السودان فإن إسم جاره السلطان أبي الحسن كانت قد دوّت عبر أطراف إفريقيا والأندلس وآسيا كذلك[1]. ولهذا فقد كان من الطبيعي أن تكون علاقات المملكتين قائمة على أساس الود المتبادل والمصالح المشتركة[2].

وهكذا نجد سفارةً من السلطان موسى في بلاط السلطان أبي الحسن لترفع التهنئة في أعقاب استرجاع تلمسان، رمضان 737= مايه 1337 وتقدم طائفة من الهدايا السّنية التي كان يهادي ببعضها أحيانا ملوك مصر والشام، وقد إستقبلهم العاهل المغربي وأعادهم إلى بلادهم مثقلين بالهدايا والتحف[3].

ويتعلق الأمر بالوفادة التي بعث بها السلطان موسى، مؤلفة من أعيان مملكته صحبة ترجمان (صنهاجي) يستطيع الإعراب عن مشاعر موسى، نحو السلطان أبي الحسن، الذي أرسل بدوره معهم سفارة مغربية برئاسة كاتب ديوانه أبي طالب بن محمد بن أبي مدْين صحبة مولاه عنبر.. إضافة إلى وفد هام من أعراب بني معقل، صحبوا السفارة في الذهاب والإياب، وكان هذا الوفد بقيادة علي بن غانم أمير أولاد جرّار...

وفي أثناء اتجاه السفارة إلى أرض السودان بلغتها الأخبار بوفاة السلطان موسى.. ومبايعة أخيه منسى سليمان، وحينئذ كان على السفارة أن ترفع التعزية في الملك الراحل وتقديم التهنئة للسلطان الجديد سليمان وتزويده بالوصايا الضرورية، وقد أحسن منسى سليمان إستقبال أعضاء

1) لا ننسى حديث الرحالة ابن بطوطة عن ملوك بني مرين طوال تنقلاته في ربوع تلك القارات...
2) كان مما رواه القلقشندي أن خطوط الرسائل الواردة من مالي على ملوك مصر، كانت بالخط المغربي.
3) الاستقصا ج 3، ص 152.

الوفد المغربي وأعظم موصلهم وأثقلهم عند العودة بالهدايا... وإمعاناً في التعبير عما يكنه من تقدير للسلطان أبي الحسن هيأ سفارة جديدة مؤلفة من كبار مالي لتقديم الاحترام للعاهل المغربي، ونعتقد أن هذه هي السفارة التي قدم فيها رسولا عن منسى سليمان، الحاج موسى الونجراتي الذي كان إذا دخل مجلس السلطان أبى الحسن تحمل معه حاشيته قفة تراب فيُتَرِّبُ عند ما يسمع كلاما حسنا على نحو ما جرت به العادة ببلاده[1]. وحدث أن توفي أبو الحسن فتأخر قدوم السفارة[2]...

ولابد أن نذكر هنا سفارة ابن بطوطة من لدن السلطان أبي عنان لدى منسي سليمان في المحرم 753= أوائل 1352... ولو أن الناس جميعهم أهملوها...

لقد عهد إلى ابن بطوطة على ما يتأكد، بمهمة لدى ملك مالي وبالرغم من عدم توفرنا على مايثبت بواعث تلك المهمة إلا أنه من خلال مذكرات المبعوث المغربي نستشف تلك البواعث التي لم تكن بعيدة عن تلك التي جعلت أبا عنان يبقى على صلة بتلمسان والتي تستخلص رأي الملاحظين في الاستفادة من تجارة الذهب والعبيد...

ولكن علاقات ابن بطوطة مع منسى سليمان لم تتم بسهولة، لقد كان عليه أن ينتظر نحو من ثمانية شهور لكي يجتمع بالملك عندما قام هذا بإقامة ذكرى بمناسبة وفاة السلطان أبي الحسن الذي كانت السفارة الإفريقية تتوارد عليه... لعلَّ جَعْلَ ابن بطوطة ينتظر كل تلك المدة كان يُشير إلى عدم رضى منسي سليمان على الطريقة التي عامل بها أبو عنان والده في آخر حياته.

مهما يكن فقد تم اللقاء... وقدم لنا ابن بطوطة تقريرا ضافياً عن تلك الرحلة-ويرى بعض المعلقين على مهمة ابن بطوطة أنه ربما كان ينوي أن يتابع مهمته حتى عاصمة (كانم) ليزور ملكه إدريس لولا أن السلطان أبا عنان بعث إليه يطلب منه العودة إلى فاس التي وصلها يوم 21 ذي الحجة 755= 6 يناير 1354.[3]

1) يُتَرِّب : يحثو التُّراب على رأسه ...
2) النفح ج 4، ص 402 - الاستقصا ج 4، ص 34.
3) رحلة ابن بطوطة، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الهادي التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية 1997 ...

وقد هلك منسى سليمان وصار الأمر إلى السلطان منسى ماري جاطة، الذي أُخبر بشأن السفارة التي كان يعتزم سلفه إرسالها إلى ملك المغرب، وحينئذ أمر بإنفاذها، وضم إليها الزرافة، هذا الحيوان الغريب الشكل العظيم الهيكل الذي اعتاد عظماء إفريقيا السوداء أن يتحفوا به أصدقاءهم في الشمال منذ حكم بني أمية بالأندلس على ما يفهم من ابن حيان...

وهكذا وصلت الوفادة السودانية في يوم مشهود -كما يقول إبن خلدون- إلى حضرة فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبعمائة (دجنبر 1360 - يناير 1361)

لقد جلس لهم السلطان في (برج الذهب) بمجلسه المعد لعرض الجنود، ونودي في الناس بالبروز إلى ظاهر المدينة فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غصّ بهم الفضاء وركب بعضهم بعضا من الإزدحام على رؤية الزرافة التي ظهرت لهم عجيبة الخلق!

فعلا كان اختيار هذا النوع من الهدايا -من الناحية الإعلامية- إختيارا ذكياً وموفقاً، وإن مشاهدة هذا النوع من الحيوان الذي تطول يداه على رجليه، والذي تميز بذلك العنق الطويل ... والزخرف الجميل، كل ذلك مما يدخل في باب الدعايات والتشهيرات التي تهدف إليها الحكومات ... ولقد حضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن إبطاء الهدية، بما كانت عليه الحالة في داخل المملكة، والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنَّزْع في أوتار قسيهم على العادة المعروفة لهم، وحيّوا السلطان بأن جعلوا يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوكهم، وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال. ثم ركب السلطان إلى قصره، وانفضّ ذلك الجمع وقد طار به طائر الاشتهار ...

واستقر الوفد تحت راية السلطان أبي سالم إى أن انصرفوا إلى مراكش ومنها إلى ذوي حسان من بني معقل، ومن هناك لحقوا بسلطانهم ...

وبالرغم مما نعرفه عن ابن خلدون من عدم ممارسته للشعر إلا أن هذه الوفادة السودانية بما صحبها من مشاهد وفرائد حركت من قريحته فأنشد قصيدةً دالية طويلة أتيتها في تاريخه[1].

1) ابن خلدون : كتاب العبر ... المجلد 7، ص 868، طبعة دار الكتاب اللبناني.

ولقد كان الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك موجوداً بمدينة فاس وقتها ضمن حاشية السلطان الغني بالله ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب أثناء لجوئهما السياسي بالمغرب .. فكان ابنُ زمرك ممن استجابوا لأمر السلطان أبي سالم الذي طلب إلى من يعاني الشعر من الكتاب أن ينشد في ذلك الغرض، وهكذا أنشد ابن زمرك في الموضوع قصيدة رائية من بدائع الشعر أوردها المؤرخون[1].

ولقد كان في الاستطاعة أن تتطور العلاقات بين المملكة المغربية وممالك السودان إلى أحسن أو بالأحرى أن تخرج من إطار المجاملات إلى ميدان التعاون والبناء بعد هذه السفارة التي أحدثت ضجة بفاس بما صحبها من مشاهد غريبة، بيد أن السلطان ماري (جاطة) تعرض للسسعة الحشرة الإفريقية المعروفة : (Tsé-tsé) فأسلمته إلى نومٍ مسترسل أزمانا متتابعة[2]، وكان بنو مرين من جهتهم قد دخلوا في سلسلة من الأحداث المحزنة التي أدت في النهاية إلى تدهور وضْعهم في الخارج نتيجة ضعفهم في الداخل !!

ولا نختم الحديث عن علاقات المغرب بجيرانه الأفارقة دون أن نشير لما يتردد في بعض الإفادات الرائجة لدى طائفة من الباحثين الأفارقة نقلاً عن الروايات الموثوقة من أن بعض الطلبة الأفارقة، وفيهم كاتم موسى ابن ملك مالي، التحقوا بمدينة فاس، حيث كانوا يتابعون دراستهم في جامعة القرويين ومدارسها منذ عهد بني مرين ... !

1) نفح الطيب ج 7، ص 151 - الاستقصا 4، ص 36 - التازي : الوثائق الدبلوماسية للمغرب كمصدر لتاريخ إفريقيا، مجلة البحث العلمي عدد 37 سسنة 1407=1987، ندوة اليونيسكو تـ. د. م. مجلد 7، ص 43.

2) سنرى أن محمد بن حدو سفير المغرب لدى إنجلترا عام 1093=1682 يلقي بيانا أمام الأكاديمية الملكية البريطانية حول موضوع يقرب من هذا ... التازي : محمد بن حدو، مجلة أكاديمية المملكة المغربية، يبراير 1985= ابن خلدون ج 6 ص 417.

الفصل الثالث

- علاقات المملكة المغربية بالجزيرة الايبيرية
- مع مملكة قشتالة
- موقف بني مرين من احتلال سلا من لدن قشتالة
- بنو مرين بين انشغالهم بمدافعة قشتالة وتربُّص يغمراسن
- معركة استجة 674=1275
- إبرام الصلح مع قشتالة 676=1278
- استنجاد الفونس العاشر بالمغرب ضدّ ولده شانصو
- لقاء قمة في الأندلس 684=1265

علاقات المملكة المغربية بالجزيرة الإيبيرية

مع مملكة قشتالة

لقد ظهرت أولى تحركات السلطان أبي يوسف بن عبد الحق لمقاومة الغزو الخارجي للبلاد في الحملة التي قام بها لتحرير مدينة سلا من جيوش ملك قشتالة في شوال من عام 658=1260، فلقد كان الأمير المريني أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد الحق ابن أخي السلطان أبي يوسف يعقوب - وقد استولى على قصبة رباط الفتح وعلى سلا - كتب إلى ملك قشتالة بطلب أن يمده بمائتين من المرتزقة : الروم ليستعين بهم على مقاتلة خصومه بمن فيهم عمه السلطان أبو يوسف الذي فوجئ وهو يسمع عن خلع ابن أخيه لطاعته ! ولما وردت مكاتبة صاحب سلا، رأى ملك قشتالة أن ينتهز هذه الفرصة وأن يرسل حملةً بحرية لافتتاح المدينة ! وبالرغم من إنذار صاحب سبتة الفقيه العزفي -في رمضان 658=1260 - فقد تمكنت السفن القشتالية بقيادة خوان كارسيه (Juan Garcia) من الرسوّ في ميناء سلا يوم ثاني شوال 658= 10 شتنبر 1260 مشحونة بالمقاتلة[1] الذين اعتقد

---

1) ورد في البيان المغرب لابن عذاري القسم الثالث : ظهرت في البحر قرقورة بعد قرقورة .. واجتمعت من القراقير إثنتا عشرة ومركبان إثنان وأساطيل وشلالير.. إلى أن انتهى عدد الأجفان إلى سبعة وثلاثين ... ابن خلدون : العبر ج 7، ص 366.

أهل سلا أنهم قدموا للمتاجرة، وكانت مذبحةً لم ينسها التاريخ حيث جمع المهاجمون السبايا من النساء والأطفال بالجامع واغتصبوا الفتيات الأبكار ! وقتلوا الشيوخ وخربوا المساجد !

وقد تبادل الفريقان الرمي بالنّبال والقذف بالأحجار بضعة أيام وقتل من المهاجمين عدد كبير ... ولما أيقنوا أنهم لا يستطيعون الصمود أمام المواطنين اضطروا لمغادرة المدينة يوم الأربعاء 14 شوال 658=22 شتنبر 1260 [1] ومعهم جماعة مهمة من أسرى المسلمين : الثلاثة آلاف، كان منهم أبو علي الحسن بن عشرة قاضي مدينة سلا...

وهكذا وجدنا السلطان أبا يوسف يبعث بسفارة خاصة برئاسة أبي بكر ابن يعلي أواسط ذي الحجة 658= نونبر 1260 إلى الأندلس للعمل على إفتداء الأسرى[2].

وقد فتحت تلك المحاولة أعين المغاربة على ما يُبيَّت لبلادهم من عدوان منظم اضطلعت به قشتالة ضد السواحل المغربية شمالا وغربا ... وأيقظ ذلك النصر على المغيرين المعتدين ضمير الأمير ابن الأحمر صاحب غرناطة [3] الذي كان يعتز بملك قشتالة ويسير في ركابه لفترة طويلة من الوقت !!

وهكذا اتجه هذا الأمير إلى إخوانه بعدوة المغرب يطلب النجدة والمدد خوفا على مملكته، ووردت سفارات تتلوها سفارات وقد كانت جميعها تعبر عن الواقع المؤلم الذي تعيشه الأندلس ...

---

1) كان يوم الأربعاء هذا : 14 شوال 658= 22 شتنبر 1260 من الأيام المحجلة في تاريخ سلا ولذلك فقد اتخذوه عيداً لهم ردحا من الزمان

2) بيت بني القاسم المعروف ببني عشرة بيتٌ مشهور بمدينة سلا، وقد كان من أعيان قضاتهم بها أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد بن عشرة الذي مدحه الشعراء على العهد الموحدي. ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، طبعة ثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987، ص 357، تعليق 6

3) هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي (ت 29 جمادى 2 سنة 671) ويرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، فهم بذلك من أعرق البطون العربية، وهو الذي ابتنى قصر الحمراء بغرناطة، وجعله دار الملك وجلب له الماء وسكنه بأهله وولده...

ومع أن المرينيين كانوا ما يزالون في بداية دولتهم فإن كتائب المجاهدين منهم والمتطوعين كانت تهب لنجدة الأندلس، وهكذا عبر القائد أبو معرف محمد بن إدريس البحر في ثلاثة آلاف مقاتل جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق [1] ...

ولعل من الطريف أن نشير مرة أخرى لبعض الرسائل الشعرية الدبلوماسية التي كان العلماء والشعراء والسفراء يرفعونها للملوك ما "وراء البحار" حثا لهم على تقديم المساعدة...

وقد كان منها قصيدة أبي الحكم ابن المرحل التي أنشدت بصحن جامع القرويين من فاس في يوم جمعة من أيام سنة 662=1264...

وقصيدة أخرى عندما تنازل ابن الأحمر مرة أخرى لملك قشتالة عن عدد جديد من الثغور والحصون، وهي المرثية الشهيرة لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي التي يتحدث فيها عن اغتصاب الطّفلات والشواب الأندلسيات من لدن الجيش القشتالي :

وطفلةٍ مثل حُسن الشمس إذْ طلعت	*	كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلجُ للمكروه مكرهة	*	والعين باكية والقلب حيران !!

لقد كان المغرب يستجيب فورا لهذه الاستصراخات ويتجه نحو الساحة الأندلسية ليخفف عن إخوانه من الضغط المتوالي والبطش المستمر، ورداً على هذه الاستجابات كانت العصابات من قشتالة تتحرش بالسواحل المغربية، وقد سارت حشود منهم في عام 666=1268 نحو العرائش وليكسوس (Lixus) مغتنمين فرصة إنشغال السلطان بفتوحاته الأولى... فأمعنوا في قتل الأبرياء وانتهاب الأموال وإضرام النيران وعادوا أدراجهم على قطع أسطولهم[2]....

1) الذخيرة السنية نشر الشيخ بن أبي شنب، الجزائر 1339=1920 ص 108-112 -التازي : جامع القرويين ج 1، ص 86/85/74.

2) الاستقصا ج 3، ص 31 - المكناسي : خريطة المغرب الإركيولوجية 1961 صفحة 21.

وقد إتجهت سفارة هامة من ابن الأحمر سنة 670=1272 نحو السلطان أبي يوسف يعقوب تطلب إليه نجدة الأندلس فوجدت العاهل المغربي في طريقه إلى المغرب الأوسط لمواجهة يَغْمُراسن بن زيان. وقد مضي أكثر من عامين قبل أن يتمكن أبو يوسف من تحقيق رجاء الأندلس، فلما تولى ملك بني نصر الأمير محمد الملقب بالفقيه بعد وفاة والده آخر جمادى الثانية 671=12 يناير 1273 أرسل وفدا من أكابر الأندلس إلى ملك المغرب يحمل رسالة إستغاثة مؤثرة[1]...

واستجابة للوعد الذي قطعه على نفسه قرر السلطان أبو يوسف أن يغادر مدينة فاس في رمضان سنة 673= مارس 1275 متجها نحو الأندلس بعد أن بعث في هذه الأثناء بسفارة جديدة إلى يغمراسن لحمله على عقد الصّلح توحيداً للكلمة وتعضيدا للجهاد، الأمر الذي تم على ما أسلفنا في العلاقات مع المغرب الأوسط...

وقد قدمت على السلطان أبي يوسف -وهو بطنجة- سفارة من إبن الأحمر برأسها وزيره ابن هشام لمرافقة العاهل المغربي الذي عبر البوغاز في صفر 674= يوليه 1275...

وكان استقبال أبي يوسف حافلاً سواء من ابن الأحمر أو ابن أشقيلولة، وبالرغم من أن أبا يوسف لم ينجح في التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره بني أشقيلوله، فقد قرّر أن يقوم بأداء رسالته... وكانت موقعة أستجة (Ecija) التي ردت الإعتبار للمسلمين في الأندلس (يوم 15 ربيع الأول 674= 9 شتنبر 1275)، بعد نكسة العقاب عام 609، وقتل قائد جيش ملك قشتالة وصهره الدون نونبو إلى عدد كبير من المقاتلين ... وقد بعث السلطان أبو يوسف إلى العدوة المغربية برسالة يشرح فيها تفاصيل الموقعة، وما انتهت إليه من نصر باهر، فعُملت المفرحات وقرئت الرسالة المذكورة على المنابر وفي صدرها منبر جامع القرويين بفاس [2]...

---

1) يراجع نصها الكامل في كتاب الذخيرة السنية ص 159-160-161.

2) أوردت الذخيرة السنية وصفا مسهبا لهذه الموقعة العظيمة، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص 174، ابن خلدون جزء 7، ص 389.

Rachel Arie : L'Espagne Musulmane au temps des nasrides, 1232-1492, Editions : E, De Boccard Paris 1973 P : 68...

وبهذه المناسبة نشرت رايات القشتاليين منكسة في أعلى منار جامع القرويين، ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعانيها الحاضر والبادي ... !

وفي مهل سنة 676= يونيه 1277 إستجاب السلطان أبو يوسف مرة أخرى لاستصراخ الأندلس. فكانت له بها جولات ظافرة، الأمر الذي حمل ملك قشتالة على طلب الصلح، وقد رأى السلطان أبو يوسف أن من السياسة والكياسة أن يحيل الوفادة القشتالية إلى ابن الأحمر تكرمة له... قائلا لرئيس البعثة: "إنما أناضيف، والضّيف لا يصالح على رب المنزل !!" فسارت الوفادة إلى ابن الأحمر قائلين : "إن السلطان يعقوب قد رد الأمر إليك، ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحاً مؤبداً لا يعقبه غدر ولا حرب" وأقسموا له بصلبانهم، إن لم يرضه ألفونصو خلعوه من سلطانه ! فأجابهم ابن الأحمر إلى الصلح بعد عرضه على أمير المسلمين والتماس إذنه... فانعقدت إتفاقية للسلم في آخر شهر رمضان سنة 676= 24 يبراير 1278 وعند العودة جعل أبو يوسف طريقه على غرناطة إحتفاء بابن الأحمر وإظهاراً لحسن النية متنازلا له عن سائر المغانم قائلا : "يكن حظ بني مرين من هذه الغزاة الأجر والثواب مثل فعل يوسف بن تاشفين رحمه الله مع أهل الأندلس يوم الزلاقة !!"

وعند عودة السلطان أبي يوسف توفي أبو محمد بن أشقيلولة، فتكونت سفارة هامة برئاسة ولده محمد واتجهت نحو عاهل المغرب آخر شهر رمضان فتنازلت له عن مالقة قائلة : "إن لم تحزها أعطيناها للفرنج ولا يمتلكها ابن الأحمر..." فحازها السلطان فعلاً ودخلها سادس شوال 676= 2 مارس 1272 ... ولم يكن هذا الحادث بالذي يمر دون أن يثير حفيظه الأمير ابن الأحمر الذي لم يتردد في مداخلة ملك قشتالة ضد السلطان أبي يوسف ! وكان هذا مما جرأ ألفونصو على نكث معاهدة الصلح لسنة 676=1278 وإعلان الحرب على سلطان المغرب، بل إن الإثنين معا : ابن الأحمر والفونصو قاما بالاتصال مع يغمراسن من أجل تشجيعه على مناوشة العاهل المغربي على ما ذكرناه في العلاقات مع المغرب الأوسط.

وقد صدرت أوامر السلطان يوسف يعقوب كرد فعل لتواطؤ هؤلاء الحلفاء الثلاثة - بإعداد الأساطيل وعمارتها وتوجيهها إلى ابنه الأمير يوسف بطنجة في مطلع سنة 678= مايه 1279، على ما نقرأه في ابن خلدون ...

وقد أبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة البلاء الحسن في تنفيذ خطة العاهل المغربي، فهيأ وحده خمسة وأربعين قطعة من الأسطول.. وكانت معركة بحرية هائلة انتصر فيها بنو مرين إنتصاراً باهرا تحدثت به الوثائق على إختلاف أنواعها، وأجاز الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب البحر إلى الأندلس واعتقل قائد الأسطول القشتالي الملَنْد حيث اقتيد أسيرا إلى فاس ...!

وقد حدث في هذه الأثناء أن ثار الأمير دون صانش (Don Sanche) على والده ألفونصو العاشر وآزره معظم النبلاء واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه... وحينئذ إتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبي يوسف المنصور يطلب مساعدته !

وهكذا أرسل غرة محرم 681= أبريل 1282 سفارة مؤلفة من عيون الأحبار إلى مراكش تحمل رسالة تلتمس من السلطان المدد والعون ضد ولده، فاستجاب السلطان للصريخ وعبر البحر في قواته إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة 681= يوليه / غشت[1] 1282، وقد هرع ألفونصو إلى لقاء العاهل المغربي بمحلته بالجزيرة الخضراء حيث رهن عنده تاجه الذي "كان ذخيرة عند أسلافه" على حد تعبير ابن خلدون [2] فأمده السلطان بمائة ألف دينار من الذهب ليستعين بها على حشد الجند.

وقد حقق العاهل المغربي إنتصارات ضد الأمير المتمرد : الذي استطاع أن يستميل إليه ابن الأحمر ضد أبي يوسف مستغلا شكوك هذا الأخير في أن يفعل أبو يوسف مع مملكة غرناطة مثل ما فعله يوسف ابن تاشفين مع مملكة بني عباد !! وقد كان مقام أبي يوسف بالأندلس مناسبة للقاءات عديدة مع ألفونصو العاشر حيث صدر على إثرها تصريحه بتاريخ 20 رجب 681= 24 أكتوبر 1282 [3] وخطابه التاريخي الذي يحمل نفس التاريخ والذي بعثه من شاطبه (XATIVA) إلى فيليب لوهاردي ملك فرنسا يقترح عليه عون ألفونصو العاشر، أو إذا شئت أن تقول عقد حلف

---

1) الاستقصا 3، 50 ص 115/109.

2) ابن خلدون 7، 224 ، وذكر المقري في أزهار الرياض (61،1) إضافات طريفة عن تقبيل ألفونصو يد أمير المؤمنين ... - أزهار الرياض 1، 61.

3) Gisèle, Chevin : aperçu ssur les relationsss de la France avec le Maroc... Hespéris 1957, p. 84-85.

ثلاثي على ما نقوله في (العلاقات المغربية الفرنسية[1].

ولقد اعتبرت هذه الوساطة بين أمتين مسيحيتين من الأحداث الدولية الهامة في تلك الفترة وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على ما بلغته الدبلوماسية المغربية من درجة عالية ترفعت معها على سائر الاعتبارات التي قد يُوحي بها الإختلاف في الدين بين ملك المغرب من جهة وملك فرنسا وإسبانيا من جهة أخرى كما قد يوحي بها وجود المغرب في حالة حرب مع قشتالة على ما صرح به يعقوب بن عبد الحق في رسالته التي أثبتنا نصها الكامل عند الحديث عن العلاقات المغربية الفرنسية.[2]

ولم تكن هذه هي الوساطة التي سجلناها للمغرب في هذه الفترة، ولكنا وجدنا وساطة ثانية من نوع آخر بين ملك مصر وملك قشتالة، ويتعلق الأمر برسالة أخرى إلى ملك قشتالة حول رسل مصر.

لقد كان قلاوون أرسل رسلا إلى الفونصو سنة 682= 1283 فوجدوه في حروبه مع ابنه وضجروا من طول الإقامة فطلبوا الإذن بالسفر فكان يصبرهم، وهنا بعث أبُو يوسف إلى الفونصوا العاشر رسولاً يقول له :

هؤلاء القوم حضروا من جهة سلطان عظيم وملك كريم ولا يحسن تأخيرهم فإما أنك تجهزهم ويرجعون، وإما إنك تسيرهم إليّ وأنا أجهزهم.. وأخدمهم خدمة تليق بحرمة صاحبهم ... وما وسع ألفونس إلا أن أجاب العاهل على ما ترويه المصادر التاريخية.[3]

وأمام هذا الحضور الجاد من طرف السلطان أبي يوسف على الساحة الأندلسية فقد وجدنا أن سفارة من ابن الأحمر تقصد في بداية عام 682= أبريل 1283 ، ولي عهد السلطان أبي يوسف

1) من الطريف أن نجد صدى لتلك السفارة في أرجوزة الملزوزي عندما يقول :

ثم أتى منصورنا كتاب	*	من عند ألفونصو له عتاب
يقول فيه : أيها المنصور	*	أنظر مليكا قلبُه مكسور ..!

2) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج7.

3) ابن عبد الظاهر : تشريف الأنام والعصور، تحقيق : مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة 1969، ص 114/112.

تتوسل إليه في أن يتوسط لدى والده حتى يصفح عنه عندما كان يغتر بمخادعات الأمير الإسباني المتمرد على والده، الأمر الذي إستجاب إليه ملك المغرب حفظاً لوحدة المسلمين حيث تجدد صلح بين المملكتين المغربية والغرناطية ...

وبمناسبة جلوس الملك صانشو الرابع على عرش قشتالة إثر وفاة والده الفونس العاشر، راحت سفارة مغربية إلى بلاط قشتالة مهل سنة 683=1284 لتقديم العزاء إلى الملك الجديد في وفاة والده وتهنئته هو بالمنصب الجديد...

ولم يلبث كبار مملكة قشتالة أن اجتمعوا بالملك صانشو وحملوه على مفاتحة العاهل المغربي لطلب الهدنة وإيفاد الملأ من كبار النصرانية على البلاط المغربي .. فاستجاب صانشو الرابع إلى ما دعوه إليه، وأوفد -كما يقول ابن خلدون- على أمير المسلمين- وهو بالجزيرة الخضراء وفدا من بطارقتهم وأساقفتهم يخطبون السلم ويرغبون في المهادنة .. ولقد رفض السلطان يعقوب في بداية الأمر ولم يسع ملك قشتالة إلا أن يجدد المحاولة ويكرر الرغبة معربا عن إستعداده لقبول سائر الشروط التي قد تعرض عليه من طرف أمير المسلمين.. وحينئذ أسعفهم العاهل وجنح للسلم ... واشترط عليه مسالمة المسلمين كافة سواء أكانوا تابعين للمناطق التي تحت حكمه أو المناطق التابعة لمملكة غرناطة، كما اشترط عليه موالاة من والاه ومعاداة من عاداه ورفع الضرائب عن التجار المسلمين الذين يوجدون بالمناطق الخاضعة لنفوذ ملك قشتالة، وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة على حد تعبير ابن خلدون[1].

وقد كلف السلطان يعقوب الشيخ أبا محمد عبد الحق ابن الترجمان بالمهمة وبعثه على رأس وفادة لإبلاغ الشروط المذكورة وإحكام عقدها فسار أبو محمد عبد الحق إلى ملك قشتالة صانشو وهو بإشبيلية، فعقد معه الصلح وفق الشروط المقترحة.

وقد صادف أن وردت سفارة من ابن الأحمر على إشبيلية في هذه الأيام بالذات لعقد إتفاقية للسلم والتعاون مع ملك قشتالة...

---

1) التاريخ الدبلوماسي ج 7، ص 433.

وتعبيراً عن العزم الصادق للسير في نفس الخطة التي سبق أن أعطى وفاقه عليها لسفارة السلطان يعقوب، تعبيراً عن ذلك أحضر الملك صانشو وفادة ابن الأحمر على مرأى ومسمع من السفير المغربي أبي محمد عبد الحق ابن الترجمان وأسمعها ما عقده مع أمير المسلمين سواء بالنسبة لمنطقته أو منطقة ابن الأحمر ...

ولما رأى السفير أبو محمد ابن الترجمان ميل صانشو إلى رضا السلطان أوعز إليه بالوفادة على العاهل لتتمكن الألفة وتستحكم الصداقة... فاستحسن الفكرة، وطلب إليه أن يمهد له لقاء مع ولي العهد الأمير يوسف كخطوة أولى للتوسل لمقابلة أمير المسلمين، وفعلا لقي الأمير على فراسخ من مدينة شريس (Jerez) .. وقد إرتحلا معا من الغد الموالي للاجتماع بالسلطان يعقوب ...

كان يوما حافلا خرج فيه الناس لاستقبال الموكب، وقد صدرت الأوامر من العاهل المغربي بأن لا يلبس الناس غير البياض فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا وفور الحامية... وقدم ملك قشتالة في جماعته التي كانت ترتدي على العكس اللباس الأسود.. فاجتمعوا بالأمير على مقربة من وادي لكة (Guadalete) وذلك يوم الأحد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة = 21 أكتوبر 1285 وتقدم صانشو فلقيه أمير المسلمين بأحسن ميزة وأتم كرامة يلقي بها مثله من عظماء الملل، وقد قدم ملك قشتالة بين يدي العاهل هدية من طرف بلاده أتحفه بها كما أتحف ولي عهده بهدايا أخرى، كان منها فيلان وحمارة من حمر الوحش إلى غير ذلك من الطرف، فقبل السلطان وابنه تلك الهدايا بالشكر والامتنان، بل أنهما أضعفا له المكافأة، وكمل عقد السلم، والتزم ملك قشتالة بتنفيذ سائر الشروط وانقلب إلى قومه يملأ صدرَه الرضى والمسرة، بعد أن تلقى إعانة نقدية هامة من العاهل المغربي.

وكانت هذه مناسبة طلب فيها العاهل المغربي من الملك القشتالي أن يبعث إليه بالمخطوطات التي بأيدي النصارى منذ إستيلائهم على مدن الإسلام، فأرسل إليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من المصاحف وعدد من التفاسير كابن عطية، هذا إلى عدد من كتب الحديث وشروحها وكتب الأصول والفروع واللغة والعربية والأدب وغير ذلك[1].

---

1) تذكر كتب التاريخ أن السلطان يعقوب أمر بإهداء تلك الكتب إلى خزانة "المدرسة اليعقوبية" التي شيدها بساحة الصفارين على مقربة من جامع القرويين.

- ابن خلدون : العبر ج 7، ص 434 - د. التازي : تاريخ جامعة القرويين ج 2 ص 450.

الفصل الرابع

مع مملكة غرناطة

- **موقف مملكة غرناطة المتأرجح من المغرب**
- **سقوط طريف** 698=1292
- **مصرع الأمير ابن مالك وسقوط الجزيرة الخضراء** 242=1342
- **توالي السفارات والمهادنة بين فاس وغرناطة لمحاولة انقاذ الموقف**
- **طائفة من الاتفاقيات الثنائية والمتعددة الأطراف**
- **زيارة ابن بطوطة لغرناطة**
- **محاولة غرناطة الاستفادة من المنافسات بين القادة في قشتالة**
- **توجه غرناطة للمغرب .. وشعار لا غالب إلا الله**
- **التجاء الوزير ابن الخطيب إلى المغرب ومصرعه**
- **الجزر الخالدات وبنو مرين**

مع مملكة غرناطة

سقوط طريف 691=1292 والمقايضة بالجزيرة الخضراء !

دشن السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق أيامه الأولى باجتماع قمة مع السلطان محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه أملا في اتحاد أقوى، وهكذا راحت سسفارة مغربية لغرناطة لهذا الغرض، وتم لقاء القمة فعلاً بين العاهلين أوائل ربيع الأول 685= أبريل -ماي 1286 بظاهر مربلة (Marbella) حيث عولجت سائر المشاكل العالقة...[1]

بيد أن ابن الأحمر لم يلتزم بما تعهد به ! وهكذا انخدع أمام إغراءات ملك قشتالة صانشو متواطئا معه على أن يسنده في إحتلاله أي ملك قشتالة لمدينة طريف ذات الموقع الاستراتيجي الهام، وكانت تابعةً لمملكة بني مرين... !! وهكذا اضطر سكان المدينة لمراسلة ملك قشتالة في النزول عن البلدة فتملكها آخر يوم من شوال سنة 691=13 أكتوبر 1292.[2]!

---

1) تقع مربلة على البحر المتوسط وتعتبر اليوم من أكثر المصطافات استقبالا للزّوار من مختلف جهات العالم وقد ورد ذكرها في رحلة ابن بطوطة وهو في طريقه إلى غرناطة .

2) عشت عصر الأحد 28 نونبر 1999 مع أطلال طريف التي وصفها السفير المغربي المهدي الغزال عام 1775 والتي أمست اليوم كعبة للذين يزورون الأندلس...

عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية -الطبعة الرابعة 1417=1997 ص 278 ومابعدها ص 364.

ويدرك إبن الأحمر أن ملك قشتالة كان يستعين به لتحقيق أهدافه الخاصة ! ولهذا نراه يبعث بسفارة هامة إلى السلطان يوسف على رأسها ابن عمه الرئيس أبو سعيد، صاحب مالقة ووزيره عبد العزيز الداني راغبة في الصلح ومعتذرةً عما حصل بشأن طريف ! وقد نزل الأسطول الذي أقل السفارة بمرسى غساسة في الشمال الشرقي من المغرب.

وقد أبرم عقد للصلح من جديد .. وعادت السفارة إلى الأندلس سنة 692=1293 مبشرة ابن الأحمر برضى العاهل المغربي وتغاضيه عن قضية طريف وما أدراك ما طريف ! وهنا عزم إبن الأحم على الرحلة إلى السلطان عبر البحر في ذي القعدة من سنة 692= أكتوبر 1293.

ولما علم السلطان بمقدم أمير غرناطة خرج من فاس للقائه والاحتفاء به ولم يكن يسعه غير ذلك !!، فوافاه بطنجة فقدم ابن الأحمر بين يدي نجواه عدداً من الهدايا التي قبلها العاهل وعاد ابن الأحمر إلى أندلسه سنة 692= نونبر 1213 ورافقته عساكر السلطان يوسف للأندلس برئاسة وزيره عمر بن السعود لمحاولة تحرير طريف [1] من جديد الأمر الذي حال دونه خرط القتاد كما يقولون !

استرجاع الجزيرة الخضراء

وقد استمرت العلاقات طيبة بين محمد الفقيه وأبي يعقوب يوسف تدل على ذلك رسالة طويلة وجهها الأول للثاني يخبره بغارة ناجحة وصل المسلمون في نهايتها إلى أرباض (جيان) واستولوا على عدد من المواقع، وتصف الرسالة بتدقيق محكم مراحل الغزوة إبتداء من يوم الأربعاء الرابع من شوال 699= 23 يونيه 1300 ، وقد نعتت الرسالة سلطان المغرب بعدد من الأوصاف والألقاب التشريفية، مثل أمير المسلمين وناصر الدين "ابن محل والدنا الذي أعلى الله على يده دين الإسلام ..." وهنا تنازل ابن الأحمر للعاهل المغربي عن الجزيرة الخضراء التي كانت تابعة له فصلّح بذلك هفوته السابقة بمساعدة قشتالة على تفويت طريف.

1) توالت المحاولات التي كانت تسفر عن العدد الكثير من القتلى واعتقد أن أخا الشريف أبى غرة نقيب الأشرف بالعراق المسمّى بقاسم والمتنقل إلى غرناطة إنما استشهد في اشتباك من هذه الاشتباكات. ابن بطوطة I، 429.

وقد وقف على هذه الرسالة ابن الحاج النميري الأندلسي عند دخوله إلى فاس في شهر صفر عام 745= يونيه / يوليوز 1344 وقال : إنها كانت بخط خاله أبي عبد الله ابن عاصم... ولا أعرف -يقول ابن الحاج - هل هي من إنشائه أو إنشاء ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الحكيم[1]...

وعندما جلس محمد بن الأحمر الملقب بالمخلوع، على عرش غرناطة بعث إلى السلطان يوسف بن يعقوب بسفارة لتجديد عهد المودة، وكانت تتألّف من عدد من الأعيان كان علي رأسهم وزير والده أبو عبد العزيز الداني ووزيره الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي من مشايخ رندة. وقد إستقبل السلطان سنة 703=1303 سفارة غرناطة -وهو بتلمسان- بالمبرة والقبول، وجدد لها إحكام الود والولاية...

لكن "المخلوع" لم يلبث أن انخدع هو الاخر بدسائس ملك قشتالة فانتفض على ملك المغرب، وأحكم العهد مع ملك قشتالة ! واستولى على سبتة .. !

سقوط جبل طارق 709=1311

وكان من أثر خذلان إبن الأحمر أن خطّط ملك قشتالة للاسستيلاء على جبل طارق ! وهكذا أرغم المسلمون بالجبل على التسليم بعد أن أضناهم الحصار وسقط هذا الثغر المنيع أول مرة أواخر عام 709= مايه 1311 [2]، وهنا استيقظ الأمير نصر ابن الأحمر الذي كان قد عوض أخاه "المخلوع" ليبعث بدوره بسفارة إلى السلطان المغربي أبي الربيع سليمان ابن عبد الله تسأله الصفح وتطلب منه الصلح، ولكن بعد أن استرجعت قوات بني مرين مدينة سبتة، وما وسع العاهل إلا أن استجاب للمطلب هذه المرة أيضا ! وأملاً في توثيق وشائج المودّة خطب السلطان أبو الربيع سليمان

1) Premare (Alfred Lanis de) : Les notes de Voyage d'un andalou du Maroc 1344-1345, P.U. de Lyon. 1981.

2) بعد أن سقط جبل طارق في هذا التاريخ تمكّ ن الأندلسيون من استرجاعه عام 733=1333 بمساعدة العاهل المريني أبي الحسن الذي بعث بابنه أبي مالك على ما سنرى ولكن ليسقط بعد زهاء، القرن عام 867=1462

710/708=1311/1309 أخت ابن الأحمر، وبعث بهدية فيها المال والخيول، وعلى رأس الوفادة عثمان بن عيسى اليرنياني[1] وعادت العلاقات حينئذ إلى سابق عهدها [2] إلى حين.

وفي أيام السلطان أبي سعيد المريني الأول (710-731=1311-1330) شعر ملك غرناطة الجديد : أبو الوليد إسماعيل بالخطر المحدق به من قبل القشتاليين الذين صمموا العزم على إحتياج غرناطة ذاتها فوجه إلى فاس بسفارة تتألف من وجوه الأندلس عرف منهم الشيخ أبو عبد الله الطنجالي، والشيخ ابن الزيات البلشي، والشيخ أبو إسحاق ابن أبي العاص وغير هؤلاء...

وقد رأينا أن غرناطة تعرف أميراً جديداً هو أبو عبد الله محمد ابن أبي الوليد إسماعيل الذي رأى بدوره أن يتجه إلي بني مرين...

وهكذا عبر الأمير البحر أواخر سنة 732= شتنبر 1332 إلى عدوة المغرب وقصد بنفسه إلى فاس مستنجداً بملك المغرب الذي أصبح هو السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان (731-752=1330-1351).

ولقد استقبل العاهل المغربي سفير غرناطة بحفاوة وأنزله بروض المصارّة لصق داره، وشرح له ابن الأحمر ما انتهت إليه الأندلس ... وما ترتب على سقوط جبل طارق من قطع الصلة بين المملكتين ... ولما كان السلطان أبو الحسن واعياً بمسؤولياته، استجاب لدعوة ابن الأحمر وبعث معه الأمداد بقيادة ولده الأمير أبي مالك عبد الواحد لاسترجاع جبل طارق.. وتلاحقت في إثرهم السفن تحمل المدد والعدد والمؤون.

---

1) كان القاضي الزّرويلي ضمن الوفد، ابن خلدون 7، 499 - روضة النسرين ص 23.

2) توثقت العلاقات ردحا من الزمان بين السلطان سليمان وبين ابن الأحمر، وغدت مدينة فاس كعبة الزوار من غرناطة، الأمر الذي لم يخل من إثارة بعض المشاكل، نذكر منها قضية إقدام القاضي أبي الحسن الزّرويلي المعروف بالصّغير، وهو أحد رجال الفتوى بجامع القرويين، إقدامه على جلد أحد سفراء الأندلس بسبب سكره، الأمر الذي كان محل استنكار. يذكر أن الزرويلي هذا حفظ كتاب فصيح ثعلب في ليلة واحدة... منافسة لسفير بجاية ابن المسفر .

-ابن خلدون ج 7، ص 500، الاستقصا ج 3، ص 101.

وهكذا إحتل أبو مالك الجزيرة الخضراء واستولى عليها وطوق المسلمون جبل طارق بحراً وبراً، وحالوا دون وصول الإمدادا إلى من كان بالجبل إلى أن تم فتحه الجبل سنة 733=1333.

وقد عثر المجاهدون في جبل طارق على ناقوس كبير قاموا بحمله إلى فاس حيث حولوه إلى ثريا وعلق بجامع القرويين في البلاط الأوسط الممتد من المحراب إلى العنزة في القبة الثامنة من جهة المحراب.

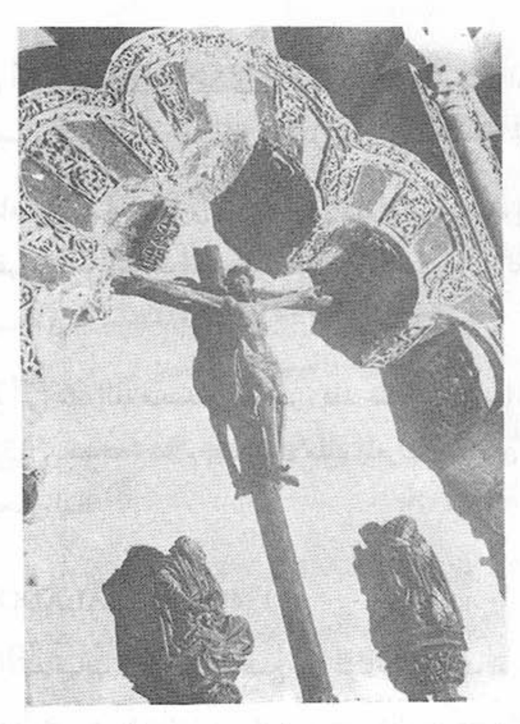
ولم تظل أيام أبي عبد الله محمد بن الأحمر، فقد خلفه أخوه أبو الحجاج يوسف الذي رأيناه يعقد عام 734=1334 معاهدة سلام بينه وبين ملك المغرب السلطان أبي الحسن الذي وقعها بالفعل نيابة عن "محلٍّ ولده" [1]

كائنة طريف (SALADO) 741=1340

وبالرغم من الاتفاقيات التي كانت تجمع بين غرناطة وقشتالة وخاصة منها هذه التي أمضاها أبو الحسن وأقرها أبو الحجاج فإن الفونصو ما انفك يضاعف ضغطه على غرناطة الأمر الذي جعل أبا الحجاج يبعث بسفارة جديدة إلى ملك المغرب أبي الحسن يطلب بواسطتها النجدة والعون...

وقد إستجاب العاهل المغربي فعلاً إلى مطلب ملك غرناطة وأرسل بجيش تحت قيادة ابنه المجاهد الأمير أبي مالك سالف الذكر عند استرجاع جبل طارق، ولقد واجه أبو مالك هناك حلفاً ثلاثياً باركه البابا على ذلك العهد : جمع قشتالة وأراغون والبرتغال كذلك، في أسطول مشترك بقيادة الدون تنورْيو (Tenorio) يهدف لمنع الإمداد على الجيش المغربي حيث استشهد الأمير الشاب !!

1) راجع نص المعاهدة في : Documentos P :61
- انظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج7، ص ؟



لقد أقدم المقاتلون الإسبان على إثبات وجودهم عن طريق نصب هذه الكنيسة في قلب الجامع الأعظم بقرطبة ليقولوا للزائرين اليوم : لقد كنا هنا !!



وكان رد الفعل المغربي أن أقدم المجاهدون على اقتلاع النواقيس من الكنائس وتعليقها في البلاط الأوسط من جامع القرويين بفاس لتذكير الواردين بأن المغاربة كانوا هناك !!

ولقد ألهبت أخبار استشهاد الأمير أبي مالك غضب والده السلطان أبي الحسن الذي بعث بعددٍ من السفارات والرسائل إلى قادة أقطار المغرب. وهكذا اجتمعت في سبتة قطع من الأسطول ناهزت المائة وصلت من طربلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية...

وكانت معركة بحرية أخرى هائلة بالأساطيل ذكرت بمثيلتها عام 678= 1279، وإذا كانت المعركة السابقة إنتهت بأسر الملند، على ما أسلفنا فإن هذه إنتهت بمصرعه! وجلس العاهل لتقبل التهاني يوم السبت 6 شوال 740= 15 أبريل 1340...[1]

وبعد هذا شرع السلطان في إجازة المتطوعة والمرتزقة، فكان هناك جسر بحري بين العدوتين لم يشهده التاريخ ثم أجاز هو آخر سنة 740 نازلا بظاهر طريف حيث وافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل.

... بيد أن أمم النصرانية إحتشدت جميعها لإحكام الحصار على الجيش المغربي والأندلسي! وكانت المحنة الكبرى المعروفة بموقعة سالادو (Salado) صحوة الإثنين 7 جمادى الثانية 741= 28 نونبر 1340 عندما انتهى ملك قشتالة إلى فسطاط السلطان نفسه... وفي أثناء هذه النكبة أسر الأمير تاشفين ابن السلطان أبي الحسن، كما تم الإستيلاء على المصحف العثماني من لدن البرتغال، وعلى راية السلطان أبي الحسن المريني وهي توجد إلى الان في كنيسة طليطلة إلى جانب علم الموحدين في موقعة العقاب...! وفي أعقاب هذه النكبة إستأسد القشتاليون على الجماعات الإسلامية بالأندلس، وأيضا على الجزيرة الخضراء ... وأجاز السلطان أبو الحجاج نفسه إلى السلطان يفاوضه في شأن السلم مع ملك قشتالة إنقاذاً لما يمكن إنقاذه ..

---

1) تعرف هذه الموقعة بموقعة الملند -ابن مرزوق : المسند ص 439
-ابن خلدون : 7، ص 543.

سقوط الجزيرة الخضراء 742=1342

وسرعان ما ضاقت أحوال أهل الجزيرة فسألوا ملك قشتالة الأمان على أن ينزلوا له عن البلد.. وهكذا خرجوا وأجازوا إلى المغرب سنة 742=1342...

وكانت هذه الأحداث الخطيرة بين الجيوش النصرانية والجيش الإسلامي موضوعا لمكاتبات سياسية بين بلاط فاس وبلاط مصر والشام حيث بعث السلطان أبو الحسن بسفيره أبي المجد بن أبي مدين يحمل مصحفا بخط أبي الحسن ورسالة بتاريخ 26 صفر 745= 9 يوليه 1344 تبسط ظروف استسلام الجزيرة الخضراء وتأهب العاهل المغربي للكرة مرة أخرى...

حيث تلقى ملك المغرب رسالة جواب من ملك المشرق بتاريخ 6 رمضان 745= 11 يناير 1345 يبدي فيها أسفه لنكبة الأسطول المغربي ويقوي عزمه في المستقبل مما نتحدث عنه عند التعرض للعلاقات بين المغرب والمشرق على عهد بني مرين.

وكان من ذيول كائنة طريف أن توجهت سفارة إلى ملك قشتالة برئاسة ابن مرزوق (الجد) (ت 781=1379-1380) الذي كان يسعى لاستنقاذ الأمير تاشفين الماسور في كائنه طريف والذي وصلت الأخبار بإصابته بمرض نفساني نتيجة لما تعرض له من تغريب وتعذيب[1]...

العلاقات أيام السلطان أبي عنان

وقد وردت سفارة في مطلع عام 750 تحمل رسالة عن الأمير أبي الحجاج يوسف بن نصر من حمراء غرناطة إلى السلطان أبي عنان من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب بتاريخ 13 محرم 750= 3 أبريل 1340، وكان موضوع الرسالة " أن هذه الجزيرة الأندلسية تعاني من مضايقة القشتاليين ما تعاني ...

---

1) نفح الطيب 5، 390 وما يليها -الاستقصا3، 163-

ويظهر أن سفارة ثانية اتجهت من الأندلس نحو المغرب بعد شهرين أو ثلاث تحمل رسالة أخرى في هذا المعنى، وكانت تتألف من قاضي غرناطة وخطيب جامعها الأعظم وقائد للسلطان أبي الحجاج، وهي تحمل تاريخ 10 ربيع الثاني من عام 750= 13 يونيه 1349 وتتلخص في أن العدو ازداد تكالبا على الجماعة الإسلامية !

ونقف هنا عند خبر من الاخبار التي تتصل بعلاقات المغرب بالأندلس...

ويتعلق الأمر بالزيارة التي قام بها الرحالة المغربي لغرناطة في أعقاب عودته إلى وطنه ومثوله بفاس أمام السلطان أبي عنان أواخر شعبان من عام 750= منتصف نونبر 1349...

ومن غير أن نبحث حول ما إذا كان ابن بطوطة ذهب إلى الأندلس في مهمة سياسية على ما يقول البعض [1]، فإن المهم بالنسبة إلينا أن نذكر أن ابن بطوطة أعطى وصفاً بهذه المناسبة لأهمية جبل طارق الدفاعية وما بذله السلطان أبو الحسن في سبيل تحصينه وتجديد أسواره وحصونه الموحدية وإنشائه لدار الصناعة، وما قام به ولده السلطان أبو عنان من تقوية جهاز الدفاع في الجبل وشحنه بالعدد والأقوات، وللأهمية الكبرى التي كانت لأبي عنان بالجبل نجده يحتفظ في قصره بفاس بصورة مجسمة (ماكيط) لجبل الفتح يرسم ما يحتويه الثغر المذكور من أبراج ومخازن ومساجد وأسوار [2] ولعلها أقدم صورة مجسمة يتحدث عنها التاريخ المغربي...

ولا ندري لمَ لم يستقبل ابن بطوطة من لدن ملك غرناطة الذي قال عنه إنه كان مريضاً؟

مهما يكن فقد استمرت العلاقات بين بلاط غرناطة وبين المملكة المغربية في شخص عاهلها الجديد السلطان أبي عنان الذي خلف والده السلطان أبا الحسن...

---

1) د. التازي : تحقيق رحلة ابن بطوطة نشر الأكاديمية المقدمة أولا ثم ج4 ص 353.

2) كان ممن تحدث عنهم ابن بطوطة أبو زكرياء يحيى السراج خطيب جامع جبل طارق، والقاضي عيسى البربري، الرحلة ج 4، ص 354 نشر أكاديمية المملكة المغربية

ملوك بني الأحمر







في ردهة الملوك الموجودة بساحة الأسود بالحمراء (غرناطة) هناك ثلاث قباب، رسمت عليها بعض الرسوم. في قبة الوسط تظهر عشر شخصيات تتبادل الحديث ... هناك نظرية تقول بأن هذه الرسوم تمثل ملوك الدولة النصرية (مع العلم أن الملوك النصريين كانوا اثنى عشر...)

الصور الثلاثة التي نثبتها هنا نقلتها عن المستشرقة الإسبانية الدكتورة الزميلة خواكينة ألبراثين (Joaquina Albarracin) وتوجد ضمن المعرض الذي أقامته عن الحمراء، أما عن الذين وضعوا هذه الرسوم فيذكر أنهم ربما كانوا مسلمين وربما أيضا كانوا مسيحيين...

وهكذا فبعد عدة مراسلات أندلسية تتحدث عن الوضع في الأندلس وخاصة الوضع في جبل طارق الذي هلك عنده ملك قشتالة الفونصو بالوباء، بعد ذلك نجد سفارة هامة بمدينة فاس برئاسة الوزير لسان الدين بن الخطيب من أجل تعزية السلطان أبي عنان في وفاة والده وتقديم التهاني في الوقت ذاته باعتلائه العرش المغربي.. فأدى الرسالة وجلى في أغراض تلك السفارة، وقد اغتنم السفير ابن الخطيب هذه الفرصة أيضا -على حد تعبير صاحب الاستقصا - لتقديم عرض عن الحالة التي وصل إليها المسلمون بالأندلس، وأنهم لا يزالون يعانون من غارات النصارى ... ومن أجل ذلك فإن الأندلسيين لا غنى لهم عن معونة إخوانهم أهل العدوة.[1]

وقد كان إسترداد السلطان أبي عنان لمدينة تلمسان فرصة لملك غرناطة أبي الحجاج ليبعث سفارة إلى عاهل المغرب لزف التهنئة على ما وصله من أخبار عن انتصارات أبي عنان التي كانت - حسب خطاب أبي الحجاج - انتصارات وقوة له هو[2].

وتبعت هذه الرسالة والسفارة، رسالة وسفارة أخرى برئاسة مولًى لأبي الحجاج إسمه (غالب) وكانت إلى جانب تأكيدها التهنئة بما تواصل من علائم النصر في المنطقة تحمل معها فواكه من الأندلس وبعض العدة التي قد يحتاج لها عند الحركة، وقد حررت فقرات الكتاب علي حروف المعجم... [3].

وقد كان السلطان أبو عنان بدوره يبعث بتفاصيل تحركاته بالأندلس ... ولهذا نجده يخبر بمصير الزعيم أبي ثابت من بني زيان.... ونجد أبا الحجاج يجيب على هذه السفارة بأخرى تحمل رسالة من إنشاء ابن الخطيب كذلك، ويؤكد فيها أن مكاسب أبي عنان هي كسب للأندلس برمتها[4].

1) الاستقصا ج 3، ص 182 وما بعدها ...
2) كناسة الدكان، تحقيق د. شبانة ص 73/64 .
3) نفس المرجع ص 79 .
4) كناسبةالدكان ص 84 .

وتبعث هذه الرسائل رسالة أخرى يعرب فيها أبو الحجاج عن إغتباطه للانتصارات المرينية علي الولايات التي ثارت ضد السلطان أبي عنان والتي تمكن العاهل من إخضاعها لحكمه [1]...

وأخيرا يورد ابن الخطيب في (كناسة الدكان) نص الرسالة في شأن التنويه باستيلاء السلطان أبي عنان على مدينة بجاية: ثغر إفريقية، وتحمل هذه الرسالة على الخصوص تاريخ 12 ربيع الأول 754=17 مارس 1353 [2].

وفي الوقت الذي كان أبو الحجاج يتتبع العاهل المغربي الذي كان يوفيه أولا بأول بسائر مايجري من تطورات، نراه، في أعقاب استقرار الاحوال بتلمسان، يكاتب السلطان أبا عنان مخبرا إياه بما تجدد من صلح بينه وبين ملك قشتالة إثر تردد السفارات عليه من هذه المملكة، وهو يقترح في هذه الرسالة على العاهل المغربي أن يعين لجنة تنضم الى اللجنة الاندلسية لتصفية المشاكل المعلقة مع قشتالة من أجل التمتع بهدنة شاملة تمكن المسلمين من استرجاع أنفاسهم...

كما وردت سفارة إلى أبي عنان تحمل رسالة من أبي الحجاج تخبر أولا بوصول السفير الفقيه أبي العباس ابن الخطيب ثم ملاحقته بآخر هو القائد أبو عبدالله بن غروق.

كما وردت رسائل أخرى تنوه بإمداد السلطان أبي عنان للأندلس بالمعونات الحربية من الرجال والعتاد، وتشير الى اللجنة المقترح تكوينها لتصفية الأمور [3].

ورسالة أيضا تخبر بالاتصال بملك قشتالة في شأن حقوق المسلمين الذين يقيمون بأرضه وكانت مصحوبة بهدية أندلسية من ملك غرناطة وكل ذلك يدل على تفهم الحكام التامّ للخطر المحدق بهم [4].

---

1) نفس المرجع ص 88 – القلقشندي: الصبح 7، ص 63.
2) كناسة الدكان ص 94- corresp-Diplama
3) كناسة الدكان ص 113 .
4) المصدر السابق ص ؟ .

وتبعت هذه الرسالة أخرى في الاغراض السابقة صحبة هدية عبارة عن عدد من الجرافين [1] والبزاة على سبيل المهاداة نظرا لمعرفة ملك غرناطة بهواية السلطان أبي عنان في الصيد وولوع المغاربة به على العموم على نحو ما كان يتم من مهاداة من هذا النوع بين ملك أراغون ملك غرناطة[2].

وجوابا على هدايا الصقور والبزاة بعث السلطان أبو عنان لصديقه أبي الحجاج سفارة صحبة خيول عديدة مجهزة على سبيل الهدية، فشكره أبو الحجاج في رسالة جوابية مغتنما الفرصة لاطلاع على العاهل المغربي على العلاقات السياسية مع قشتالة [3].

وبعد اغتيال السلطان أبي الحجاج يوم عيد الفطر 755= 19 أكتوبر 1354 جلس على عرش غرناطة ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالغني بالله الذي استهل نشاطه السياسي بإرسال وزيره ابن الخطيب سفيرا عنه الي السلطان أبي عنان على رأس بعثة هامة كان منها عدد من وزراء الأندلس وفقائها نذكر منهم الشيخ القاضي أبا القاسم الشريف، وقد أعرب ابن الخطيب عن تجديد الولاء وطلب المساعدة العسكرية على عادة سلفه في ذلك [4].

وفي يوم حافل من أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة تقدم ابن الخطيب بمن معه من علية القوم بين يدي السلطان أبي عنان واستأذنه بادئ الأمر في إنشاده شيئاً من شعره فاهتز السلطان لشعره وأذن له في الجلوس وقال له : «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم « ثم أدى الرسالة ودفع الكتاب ولما عزموا على الإنصراف أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع طلباتهم.

---

1) الجرافين جمع جرفون (جرفون Girfon) والأصل باللاتينية (Girfalco) وهو ذكر الصقر، والجرافين غير الزّراجين... ابن القطان: نظم الجمان، تحقيق د محمود علي مكي ص 85 .
النميري: فيض العباب ص 37. د. التازي: القنص بالصقر بين المشرق والمغرب، المطبعة العصرية، الرباط 1980 ص 83/88 .

2) Docume ntos arabes p78

3) كناسبة الدكان ص 119 .

4) كناسة الدكان ص 145/146 - الاستقصا 3، ص 191 .



... وأما بزاته (السلطان أبي عنان، فهي المرسلة في كل طالع سعيد... المعدود عند صيادتها كل يوم بعيد، من كل فعم المنسر غائر العينين ... أسرع من مروق السّهم إلى الرمية...

عن (فيض العباب) لابن الحاج النّميري (758=1337)

ولقد كانت أولُ سفارة اتجهت إلى المغرب من الأندلس بعد وفاة السلطان العظيم أبي عنان هي التي توجهت برئاسة أبي البركات محمد ابن الحاج البلفيقي بقصد تقديم تعازي ملك غرناطة في العاهل الراحل ورفع التهنئة والمتمنيات لأمير المسلمين أبي بكر بن أبي عنان الجالس الجديد على العرش أوائل محرم 760 أواخر 1358..

ويذكر أن السفير المذكور أنشد - في نفسه - لما أبصر القصر غاصاً بجمهورٍ لم يكن يعرفه من ذي قبل

لما تبدلت المجالس أوجهاً * غير الذين عهدتُ من جلسائها!
ورأيتها محفوفة بسوى الأولى * كانوا حماةَ صدورها وبنائها
أنشدت بيتاً سائراً متقدماً * والعين قد شرقتْ بجاري مائها
أمّا القبابُ فإنها كقبابهم * وأرى نساء الحي غير نسائها [1]!

أما من الجانب المغربي فقد كانت أولى سفارة توجهت الى غرناطة هي التي راحت أواخر سنة 760= نونبر 1359 أيام السلطان المستعين باللّه أبي سالم ابراهيم ابن السلطان أبي الحسن راحت برئاسة أبي القاسم الشريف يقصد التوسل الى السلطان إسماعيل بن أبي الحجاج الذي كان ثار على أخيه الغني بالله محمد ابن يوسف واستبد بالحكم.. التوسل اليه لكي يخلي طريق الغني بالله للمقام بالمغرب صحبة وزيره السفير ابن الخطيب ...

وقد نجح أبو القاسم الشريف في سفارته، وهكذا قدم على المغرب في يوم مشهود 6 محرم 761=28 نونبر 1359 الملك السابق الغني بالله صحبة وزيره ابن الخطيب فأجل العاهل المغربي مقدمه، ووقف الوزير ابن الخطيب علي قدميه فأنشد السلطان أبا سالم قصيدته الرائية واستعطف واسترحم بما أبكى الحاضرين شفقةً ورحمةً.

1) النفح 5، ص 486/489 .

وبعد هذه الاحتفالات الرسمية غادر الغني بالله إلى منزله المعد له بمدينة فاس ورتبت لـه الجرايات وزوده السلطان أبو سالم بالجياد والمراكب وبعث له بالكسمر الفاخرة، وشمل الإكرامُ سائر حاشيته بمن فيهم العلوج المرافقون له، وكان من بين من عين للأخذ بيده الكاتب ابن زمرك الذي كان آنئذ مقيماً بفاس وكاتباً للامراء...[1]

وقد اختار ابن الخطيب المقام بمدينة سلا مُنصّباً نفسه محافظاً لضريح السلطان أبي الحسن بشالة ليمتّ بذلك إلى الملك أبي سالم كيما يقضي له ما بقي من مآربه المعلّقة بالاندلس !

وفعلاً بعث ابن الخطيب برسالة رقيقة إلى السلطان المستعين بالله من شالة يرجوه في أن يتشفع له عند أهل الاندلس في رد متاعه الذي استولوا عليه أيام النكبة مستعينا بصداقة الوزير ابن مرزوق..

وقد اسعف المستعين بالله طلبه، وبعث برسالة يحملها سفيران عنه هما أبو البقاء بن تاشكورت وأبو زكرياء بن فرقاجة، وقد نجح السفيران في مهمتهما بالاندلس ورد لابن الخطيب ما تأتى رده مما كان ضاع له وأتلف عليه، واستمر مقيما بمدينة سلا.

وقد حدث أثناء مقام الغني بالله انقلاب أودى بحياة العاهل المغربي[2] أبي سالم، وذلك بتدبير من وزيره وحاجبه عمر بن عبد الله الياباني[3]، وكان ذلك بتاريخ 21 ذو القعدة 762=22 شتنبر 1361

1) طلب ابن زمرك العِلم بفاس وترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أبي سالم ثم عن السلطان، ولما التجأ ملك غرناطة السابق لفاس انقطع إليه ابن زمرك وبقي علي اتصال به الى أن دالت الايام وعاد اللاجئ الي عرشه... - النفح 7، ص 146/147 .

2) Documentos Arabes p.407.

3) نظم ابن الخطيب قصيدة على قبره كان منها البيت الشهير بعَجُزه:

بَنِي الدنيا! بَنِي لمع السَّراب * لدُو للمَوْت! وابنُوا للخراب!

هذا ويجدر التذكير بأن كتاب زهرة الآس ألف حوالي 766=1365 على شرف عمر بن عبد الله الياباني هذا.

وحتى تتيسر للوزير المذكور أسباب السلطة كاملة عمد الى تنصيب الأمير تاشفين بن السلطان أبي الحسن، بيد أن الشعب لم يلبث أن تحرك ضد هذا التنصيب، الأمر الذي دفع بالوزير إلى إرسالة سفارة خاصة لملكة قشتالة تطلب مقدم أمير آخر من بني مرين كان لاجئاً هناك، هو الأمير أبو زيان المتوكل على الله محمد ابن أبي عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن... وقد نجحت هذه السفارة وسمح ملك قشتالة لابي زيان بعد «إشتراطٍ واشتطاطٍ[1]» على حد تعبير المؤرخين وكان هذا بتاريخ صفر 763= دجنبر 1361 .

وفي هذه الأثناء تمكن الغني بالله من استرجاع عرشه بغرناطة فعاد اليها صحبة حاشيته... وهنا توجه إليه بالأدنلس العلامة ابن خلدون – بعد أن استوحش من الوزير الخطير عمر الياباني[2] فاستقبل باحتفاء بالغ ودخل غرناطة يوم 8 ربيع الأول 764 =26 دجنبر 1362 . «وقد اهتز السلطان لقدومه وهيأ له المجلس من قصوره بفرشه وماعونه وأركب خاصته للقائه تحفياً وبراً ومجازاةً بالحسنى، «ثم دخلت عليه فقابلني بما يناسب ذلك وخلع علي وانصرفت،وخرج الوزير ابن الخطيب فشيَّعني إلى مكان نزولي»، يقول ابن خلدون.

ومن الطريف ان نسمع أن ابن خلدون يعهد اليه 765=1363 من طرف الغني بالله بالقيام بسفارة عنه إلى بيدرو الرابع ملك قشتالة في بلاد إشبيلية لابرام عقد الصلح، وقد أدى ابن خلدون سفارته ببراعة وحظي بتقدير ملك قشتالة وإعجابه، وقد قدم إلينا ابن خلدون تقريرا جيدا عن هذه السفارة في مذكراته[3]...

---

1) الاشارة الى تعهد ابي زيان بقطيعة المتغلب على الاندلس وقد ورد في لامية ابن الخطيب مايشير الى دور ملك قشتالة في هذه الأحداث الداخلية:

والروم لاسترجاع حق شمَّرت * هذا هو النصر المُعِم المخوِل!

الاستقصا 4، 38/44

2) يذكر التاريخ أن ابن خلدون اعتذر بعد هذا للسلطان عبد العزيز المريني الذي عنف عليه مفارقة فاس، واعتذر له بما كان من الوزير عمر اليباني والحقيقة ان رحيل ابن خلدون عن فاس لم يكن عن اختيار منه ...

3) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا تآليف عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنجي، مطبعة مصر 1370= 1951، ص 79/8481. د. التازي: ابن خلدون سفيرا... محاضرة بكلية الآداب (الرباط) بمناسبة أيام ابن خلدون، مجلة المناهل المغربية، العدد 16 محرم 1400= دجنبر 1979 – مجلة الثقافة، الجزائر، شتنبر / أكتوبر 1983 .

Cheddadi, Hesp. 1982,83.

وعندما جلس السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن [1] علي كرسي الحكم بفاس يوم 22 ذي الحجة 767=30 غشت 1366 كان في صدر ماقام به تخلصه من بعض المتعطشين الي الحكم وكان في صدر هؤلاء الوزير الخطير عمر بن عبدالله الياباني!

ويظهر أن الغني بالله تنفّس الصعداء بغرناطة وقد بلغه أن الأحوال بالمغرب تبشر بالعودة الى الاستقرار، وهكذا نراه يبادر بإرسال وفد هام الى السلطان أبي فارس يصف الأحوال الداخلية بالأندلس ويتحدث عن الحرب الأهلية التي نشبت بين بيير بيدرو ملك قشتالة وبين أخيه غير الشرعي الكونت هنري[2] ترانستمار (TRANSTA MARE.H) وبخاصة حوادث شعبان 768 = أبريل 1367 ويجدد طلب النجدة لجبل طارق، ويعقد الآمال التي كان يخيبها - في نظره - عمر الياباني...

وإن المتتبع لتسلسل كل هذه الاحداث ليدرك جيدا ان كلا من ملك غرناطة وملك المغرب كان يتتبعان باهتمام زائد تطورات الوضع الداخلي في قشتالة، وأن الغني بالله كان يرى فيها متنفسا له قد يساعده على الاحتفاظ بمواقعه بل يساعده على استرجاع بعض الحصون والمدن الاندلسية الضائعة.

1) نذكر هنا ان السلطان أباب فارس عبد العزيز هذا هو الذي ألف ابن حلدون تاريخه الشهير على شرفه وبرسمه، وأهداه بواسطته لخزانة جامعة القرويين 799، 1397، راجع التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7، ص 105 التعليق 61. ونحن نعرف ان زهرة الآس ألفها الجزنائي على شرف الوزير الياباني، وبما أننا نعرف أن مشاعر ابن خلدون لم تكن علي مايرام حيال الياباني فلا عجب أن نرى ابن خلدون يقبل علي من أراحه من خصمه الياباني ...! بل إنه يجيب عن «كُتَيّب» زهرة الآس بهذا الكتاب الضخم الذي ظل مفهرة للمغرب، وكم من نقمة في طيها نعمة كما يقلون ذلك التنافس لما تحركت خمة ابن خلدون لتآليف مثل ذلك التاريخ... ذ. التازي: تاريخ جامعة القرويين 2، 452.

2) فصل ابن الخطيب حوادث الحرب الاهلية في قشتالة على ذلك العهد في كتابه، الاحاطة (راجع ج 2، ص 24/ 26).

ولابد أن نشير لنشاط الاتصالات الدبلوماسية مع المغرب من جهة ونشاط التحركات العسكرية في اتجاه أطراف مملكة قشتالة اغتناماً لفرصة تلك الحروف الاهلية، وهناك طائفة من الرسائل التي طيرت للمغرب حول انتفاضة المسلمين بتلك الديار وطموحهم الى استرجاع ما ضاع بالامس بما في ذلك قاعدة قرطبة التي كانت على وشك أن تقع في أيدي المسلمين لولاسيل من المطر أفسد على المجاهدين خطتهم وأرغمهم على التراجع! مما جعل الغني بالله يجيب عن سؤال: كيف غلبت على أمرك؟ فكانت كلمته التي ظلت عبر التاريخ شعار الاندلس الذاهبة والتي جاءت لأول مرة في رسالته الثالثة الى العاهل المغربي أبي فارس« **لاغالب إلا الله**[2]!!».

والمهم في الأمر أن تلك الحروب الاهلية التي دارت رحاها بالاندلس انتهت بمقتل بيدرو حليف الغني بالله..! ومن هنا يمكن ان نتصور موقف ملك قشتالة الجديد هنري من مملكة غرناطة التي كانت تناصر خصمه بالامس.!!

وفي أعقاب مصرع بيدرو راحت سفارة مغربية في مهمة الى غرناطة تحمل الى الغني بالله ما عقد السلطان أبو فارس العزم عليه من استرجاع مدينة الجزيرة الخضراء التي نعرف انها سقطت عام 742=1342 ، وقد طلب العاهل المغربي من الغني بالله أن يزحف اليها بالجند، والتزم هو بالامداد بالمال والاساطيل.. وقد استجاب ملك غرناطة، وبعث اليه السلطان عبد العزيز بأحمال المال وأوعز الى الاساطيل بسبتة فأقلعت وقصدت خليج الجزيرة لحصارها وزحف الغني بالله بعساكر المسلمين وأطبق الجيشان على الجزيرة.. ولم يسع الحامية القشتالية إلا الاستسلام والمطالبة بالصلح الامر الذي أجابهم اليه الغني بالله سنة 770 هـ وقد عهد أبو فارس الى ملك غرناطة بولايتها ولو أن الاختيار وقع بعد عشر سنوات علي تهديمها قطعا لطمع الافرنج فيها [2].

1) انظر التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7، ص 107، تعليق 65/64 .

2) وقفت يوم 28 نرنبر 1999 على أطلال موقع مريني يحمل اسم البنية: Antonio Torrenocha Silva: AL-BINYA, la cindad palatina menini de Ageciras 1999. ابن خلدون 7، 687 - الاستقصا 4، 57.

التجاء الوزير ابن الخطيب الى المغرب ومصرعه

بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال سئم لسان الدين ابن الخطيب من الحياة المضطربة التي اصبح يعيشها، وقرر أن يعتزل السياسية ويلتحق بالديار المغربية... فلقد خبر ظروف الوظيف وصروفه، وشاهد عن كثب، مايتطلبه الوصول الى الحكم من جسيم المغامرات وجحيم المنافسات مما تكشف عنه تلك الجملة القصيرة التي علق بها في تأليفه (إعمال الإعلام فيمَن بويع قبل الاحتلام) على اغتيال أحد الأمراء بطريقة شنيعة عندما قال : **ولا تستغربنّ ذلك فتلك بضاعة في سوق الملك رائجة فمن عوفي فليحمد الله »**!!

وبعد أن توفي السلطان أبو فارس يوم 23 ربيع الثاني 774 =22 أكتوبر 1372 تجددت الحركة الأندلسية في شأن ابن الخطيب مع العاهل الجديد أبي زيان محمد بن عبد العزيز بيد أن السفارة الأندلسية أخفقت هذه المرة الثانية بالرغم مما حملته من عطايا وهدايا !

وهنا لجأت غرناطة إلى التآمر على المغرب ... وكان أن أغرى عامل ثغر سبتة سلطان أبي زيان بالبيعة لأبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن الذي كان مقيما بسبتة .. على أن يسلم ابن الخطيب لملك غرناطة الذي التزم بتمويل المؤامرة بالمال والرجال ! وقد نجحت المؤامرة وبويع السلطان المستنصر بالله أبو العباس الذي أمر باعتقال ابن الخطيب وتقديمه للمحاكمة التي كنا نعلم سلفا عن القرار الذي ستتخذه ! .. إلى جانب هذا نجد أبا العباس يتنازل عن جبل طارق لابن الأحمر الأمر الذي كان يعني إلغاء إسم بني مرين فيما وراء البحار لأول مرة !! لقد أتى دور ابن الخطيب الذي وجهت إليه أفظع التهم وأمسى في السجن، بل واقتحموا عليه سجنه وخنقوه، بل وأخرجوه من القبر وأحرقوه !!

وقد كان مصرعه وصمة في جبين آخر ملوك دولة بني مرين، لم ينسها التاريخ ! حتى لقد علق أحد ملوك الفرنج على ذلك الحدث بقوله : لأحد سفراء بني الأحمر : "مثلُ هذا الرجل كان ينبغي أن لا يقتل"!!

وقد استحكمت -بعد مصرع ابن الخطيب- أواصر الوحدة بين الغني بالله في غرناطة وبين أبي العباس في فاس وأصبح المغرب وكأنه ولاية أندلسية بحيث أصبح الإبرام والنقض بيد غرناطة التي كان يقيم فيها عدد من أبناء الأسرة المرينية بالمغرب للتشغيب بهم على الحاكمين بالعدوة المغربية عند الإقتضاء !!

وفعلاً فقد اغتنم الغني بالله طموح أبي العباس لاسترجاع تلمسان عام 785=1383 فنصب ملكا على المغرب الأمير موسى بن أبي عنان الذي كان يقيم عنده بغرناطة، وذلك لأن الأمراء الأندلسيين – ومن ورائهم حلفاؤهم المسيحيون- كانوا لا يرضون عودة بني مرين للمغرب الأوسط. وهكذا أخذ أبو العباس إلى الأندلس للإقامة الجَبرية، ودشن السلطان الجديد موسى إمارته منذ 20 ربيع الأول 786=12 مايه 1384 بالتنازل للغني بالله عن سبتة!![1]

وبهذه المناسبة وردت على المغرب سفارة تهنئة العاهل الجديد برئاسة الوزير أبي عبد الله ابن زمرك الذي كان في صدر من خذلوا استاذهم لسان الدين ابن الخطيب !

وقد أجاب السلطان موسى بن أبي عنان عن هذه السفارة الأندلسية بوفادة مغربية ذهبت إلى غرناطة سنة 787=1385 برئاسة الكاتب محمد ابن محمد بن أبي عمر التميمي[2].

وقد حدث أن عاد إلى العرش المغربي السلطان الواثق بالله أبو زيان سالف الذكر 15 شوال 788= 9 نونبر 306 ففوض إلى وزيره الأول ابن ماساي أن يفاتح الغني بالله في إرجاع مدينة سبتة إلى الإيالة المغربية معرباً عن عدم اعتراف المغرب بما كان فعله موسى ابن أبي عنان... وقد قوبلت مطالب المغرب بالرفض من لدن ابن الأحمر الأمر الذي أدى إلى حصار المدينة والإستيلاء عليها بالقوة ...

وقد كان هذا الصنيع من ابن ماساي سببا في الافراج عن السلطان السابق أبي العباس بن أبي سالم وإرساله من غرناطة للتشغيب على المطالبين بإرجاع الثغر المغربي : سبتة ...

---

1) سنرى أن المغرب لم يرض هذا التصرف من الأمير موسى بن أبي عنان وأن الحكومة المغربية طالبت أيام الواثق بالله عام 788 بعودة سبتة .. ابن خلدون 7، 728.

2) كان التميمي هذا كاتبا لدى السلطان السابق أبي العبا، فأمسى مع السلطان موسى الذي عوضه ... وحدث أنه عندما كان يذهب لغرناطة في مهمات يتجنب لقاء أبي العباس اللاجئ هناك، الأمر الذي نقمه هذا عليه، فأوقع به بمجرد ما عاد للملك وأمر -بعد قتله- بسحله في شوارع فاس !! - استقصا 4، 75.

الجزر الخالدات وبنو مرين

مع انهيار حكم الرومان من المغرب وظهور الإسلام كان إسم هذه الجزر مختفيا[1] إلى أن إكتشفها العرب في بداية القرن الخامس الهجري 406-1016 في عصر الوجود الأموي بالأندلس، وهم الذين سموها : الخالدات ...

ونرى من المفيد أن نسوق نصاً أورده المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) يتعلق بترجمة ابن خلدون،[2] قال :

"حدثنا أبو زيد أنه في حدود سنة أربعين وسبع مائة، دخل السلطان أبو الحسن المريني إلى سبتة فاجتار به قوم من الفرنج في غرابين بالبحر وأخبروه أنهم خرجوا من جنوة، وقد أعدوا زاد سنتين وساروا في البحر يريدون الإحاطة بمعرفة ما فيه، فمروا فيه بالجزر الخالدات، وإذا أهلها عراة لا يعرفون من الثياب ما يعرفه الناس، وإنما يوارون عورتهم بشيء تافه ! وعندما نزلوا إلى هذه الجزيرة خرج أهلها إليهم ليدفعوهم عنها، فلم يطيقوا السهام وفروا عنهم، فملكوا، (أي الجنويون) الجزيرة ...

ولم يجدوا عندهم مالاً ولا ثياباً، فاستقوا من مائهم، وأسروا منهم، وساروا عنهم، فلم يزالوا في البحر حتى كاد ماؤهم ينفذ، فخافوا الهلاك، ورجعوا وأنهم كانوا لا يفارقون البر إلا بمقدار ما يمكنهم العود إليه، قال : فسألهم السلطان المريني عند ذلك ان يمكنوه من بعض ممن أسروه من تلك الجزائر، فقدموا إليه رجلين جعلهما مع خدامه حتى عرفا اللسان العربي، وصارا يحدثان عن حالهم بأمور، وذكروا (ان) أهل تلك الجزائر لم يبلغهم قط خبر دعوة الإسلام ولا سمعوا له ذكرا !

1) تذكر بعض التقارير الدبلوماسية نقلا عن دراسة أكاديمية جرت عام 1878 من قبل لجنة متخصصة، أنَّ هذه الجزر كانت تُكون في الأزمنة الغابرة جزءا من القارة الإفريقية، وتأكيدا لهذه النظرية يمكننا أن نلاحظ تشابها بين طريقة حياة السكان في هذه الجزر وبين سكان الأطلس. ونعيد للذاكرة ما قلناه في الباب الأول عن البردي.

2) د. محمد الجليلي : مرض ابن خلدون وتأثيره على تأليفه، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث عشر 1965=1385.

فلما مات السلطان وقام من بعده ابنه أبو عنان، تاقت نفسه إلى أخذ الجُزُر الخالدات، فجهز قائد الأسطول بناحية أزمور في غراب مشحون بالأزودة والرجال، فغاب في البحر شهرين وعاد من غير أن يعرف لها خبراً. قال أبو زيد : فأخبر هذا القائد السلطان أبا عنان -بحضوري- أنه سار في البحر وأخبر عن عجائب شاهدها، وأقام مدة هناك فاتفقت أنه حكى للسلطان في بعض الأيام أخبار ما وقف عليه في مدة غيبته في البحر إلى أن قال : ومر بنا طائر أخضر ... وهنا غضب السلطان وقال ويلك ! هناك كانت الجزائر !! فإن الطير لا يكون إلا حيث الماء والمرعى وهما في تلك الجزائر فتلكأ في الجواب، وأمر به السلطان فجرد من ثيابه وضرب زهاء خمسمائة سوط عقوبة له على تقصيره في الطلب".!!

الفصل الخامس

العلاقات بين المغرب وأراغون والبرتغال

- اعتماد المغرب على أراغون واتفاقية 672=1274
- تبادل السفارات للحدّ من جشع قشتالة
- المغرب يفضل هدم سبتة على أن يحتلّها الغير !
- مساعدة المغرب العسكرية للأراغون
- تنكر أراغون للمغرب بعد اتفاقها مع قشتالة !
- الكارثة البحرية ومراسلة ابي الحسن مع أراغون ...
- مراسلة أبي عنان للملكة دوناليونور
- العلاقات مع البرتغال بعد كائنة طريف
- معركة لاقش واحتلال سبتة ...

العلاقات بين مملكة المغرب
وبين مملكة أراغون

يتجلى من خلال رصد الوثائق السياسية والدبلوماسية التي وقفنا عليها فيما يتصل بعلاقات المغرب مع الجزيرة الإيبيرية أن رصيدنا الإيجابي مع مملكة أراغون كان أكثر وأوفر، وعلى العكس من ذلك كان الحال مع قشتالة والبرتغال، بل إن ما نتوفر عليه من وثائقنا مع هاتين الدولتين كان غير ذي بال بالنسبة لحجم ما لنا مع الأولى ...

وميلاً للاختصار المفروض علينا نكتفي بالإشارة إلى الأهم من تلك الوثائق التي تمس مباشرةً المملكة المغربية، وهكذا نجد بتاريخ 18 نونبر 1274= 6 جمادى الأولى 672 الاتفاقية التي أبرمت في برشلونة بين السلطان أبي يوسف يعقوب ملك بني مرين الذي كان حاضرا شخصيا في برشلونة، وبين جاك الأول (خايمي) ملك أراغون وميورقة، سيد مونبوليي[1] الذي وعد ملك المغرب بعشر سفن وخمسمائة فار لمساعدته من أجل استرجاع سبتة من هيمنة ملك غرناطة..!

I) نقل الكونط دوماس لاتري النص الكامل للاتفاقية باللغة الكاطلانية في قسم الوثائق ص 285-286، نقلا عن أرشيف أراغون في برشلونة أنظر ترجمتها إلى العربية في المجلد السابع ص 122 من تأليفنا (التاريخ الدبلوماسي للمغرب).

وبتاريخ 27 أكتوبر 1276= 17 جمادى الأولى 675 وجدنا إذنا بالمرور من پيير الثالث أمير أراغون، قبل أن يتوج ملكا على البلاد إلى بيرنار بورطي (B. Porter) المرسل إلى إفريقيا لإبرام إتفاقية مع ملك المغرب أبي يوسف يعقوب ...

وقد شاهدنا سفارةً من ملك أراغون، كان على رأسها غرسيس لشبين و(Garsis Lesbin) وقد كان هدف السفارة إقامة أسس للتعاون بين مملكة أراغون ومملكة المغرب ضد حركة التوسع التي تتزعمها قشتالة حسبما تدل عليه رسالة العاهل المريني من حضرة تلمسان بتاريخ 15 شعبان 703= 24 مارس 1304. وقد ختمت الرسالة بالعلامة المعهودة عند ملوك بني مرين: (وكتب في التاريخ).

ثم وجدنا بعد هذا رسالة أخرى من تلمسان بتاريخ 18 ذي القعدة 703= 23 يونيه 1304 من السلطان أبي يعقوب يوسف إلى جاك الثاني المذكور وهي تكشف عن العلاقات الغير الحسنة بين ملك أراغون وبين ملك قشتالة، واستعداد المغرب لمساعدة أراغون.

وعقب شهر ذي القعدة عام ثلاثة وسبعمائة = 5 يوليه 1304 وجدنا رسالة هامة حررت بتلمسان ووجهت من السلطان أبي يعقوب يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق إلى جاك الثاني ملك أراغون في موضوع ما ترتب على صاحب سبتة من مائة ألف دينار ذهبي، وقد طلب العاهل المغربي مساعدة الملك جاك الثاني على فتح سبتة في مقابلة أن يسلمه النصف من المبلغ المستحق ...

ولعل من الطريف أن نسجل هنا أن السلطان أبا يعقوب يوسف بن يعقوب أعرب عن عزمه على هدم مدينة سبتة بكاملها ومحوها من الخريطة إن لم تُرجع لاصحابها الشرعيين.

وبتاريخ 20 ذي القعدة 707= 13 مايه 1308 وجدنا رسالة حررت بفاس من السلطان أبي ثابت عامر بن أبي عامر إلى جاك الثاني ملك أراغون وبلنسية وهي جواب عن خطاب سابق من ملك أراغون، ويخبر العاهل المغربي بإرسال السفير القائد برنارط شيجي (Bernart Segui) مصحوباً بالترجمان أبي العباس ابن الكماد ...

وقد ظلت قضية سبتة مشغلة لبلاط بني مرين، وهكذا نرى السلطان أبا ثابت عامر بن عبد الله الذي خلف يوسف بن يعقوب يقوم بعمل ديبلوماسي مزدوج بعد أن بذل محاولات لحماية



رسالة عاهل بني مرين بتاريخ 15 شعبان 703=24 مارس 1304
ونلاحظ في أعلاها علامة دولة بني مرين التي هي (وكُتب في التاريخ)

سبتة بالطرق العسكرية، فقد أرسل أوائل 708= يونيه 1308 بواسطة سفارة مهمة إلى بني الأحمر برئاسة كبير الفقهاء بمجلسه الشيخ أبي يحيى بن أبي الصبر لغرض حمل أبي سعيد بن الأحمر على إرجاع مدينة سبتة إلى بني مرين على نحو ما كانت عليه في السابق وكان أبو ثابت في هذه الأثناء يحصّن مدينة تطاوين التي كان يريد أن يجعل منها موقعاً للأخذ بمخنق سبتة ...

وبتاريخ 3 مايه 1309= 22 ذي القعدة 708 وجدنا رسالة من جاك الثاني ملك أراغون وسردينية وكورسيكا إلى السلطان أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف رابع ملوك بني مرين يقترح عليه العناصر الأساسية لاتفاق دفاعي وهجومي ضد كل الملوك والأمراء وخاصة ملك غرناطة، ويوضح الشروط وكذلك التعويضات النقدية التي يطلب بها ملك أراغون للاستمرار في محاصرة سبتة المحتلة دائما من طرف ملك غرناطة ...!

وتتضمن هذه الوثيقة كذلك تعليمات موجهة إلى دون جاسبيركا سطِلْنو (Jaspert Castalnau) الذي كلف بالالتحاق بالمغرب صحبة أسطول أراغون ليسلم إلى السلطان أبي الربيع الرسالة التي وجهها إليه الملك جاك، وكذلك ليوقع على معاهدة حلف بتاريخ 25 محرم 709= 5 يوليه 1309 [1]

وقد فتحت بالفعل مدينة سبتة من جديد بتاريخ يوم 10 صفر 709= 20 يوليه 1309.

هذا إلى موضوع أطماع ابن الأحمر وترامیه على الجزيرة الخضراء "وهتك مالها عندنا من الحرمة، وقد كان ممن توفي فيها جدنا وبها إلى الآن قبره[2]..!" على حدّ تعبير أبي الربيع سليمان...

1) دوماص لاتري ص 297 - التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج7، ص 128.

2) يتساءل عن القصد من جد أبي الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ذلك الجدّ الذي كان قبره بالجزيرة الخضراء بتاريخ 709=1309 مع العلم أن قبر يوسف يوجد بشالة - الاستقصا 3، 85.

ومن جهة لأخرى فقد وجدنا بتاريخ 24 أبريل 1319= 3 ربيع الأول 719 رسالة خطيرة من جاك الثاني ملك أراغون إلى أبي تاشفين الأول عبد الرحمن ملك تلمسان ... وفيها تعليمات من الملك إلى بيرنار ديسبّوينْك (B. Despuing) وبيرنار زَبيلا (B. Zapila) المبعوثين إلى تلمسان لعقد إتفاقية للسلام والتجارة بين ملك تلمسان وملك أراغون. والقيام إلى جانب هذا بجردلائحة للقوات المسيحية المخصصة لخدمة أبي تاشفين ملك تلمسان سواء في البحر أو البر، وأخيرا مفاتحة ملك تلمسان أبي تاشفين الأول في موضوع ما يطلبه منه ملك أراغون من القيام بمناوشات عسكرية على الحدود المغربية لإلهاء ملك المغرب أبي سعيد عثمان في حالة ما إذا قام ملك أراغون بالهجوم على ملك غرناطة على ما أشرنا إليه في قسم العلاقات مع المغرب الأوسط !

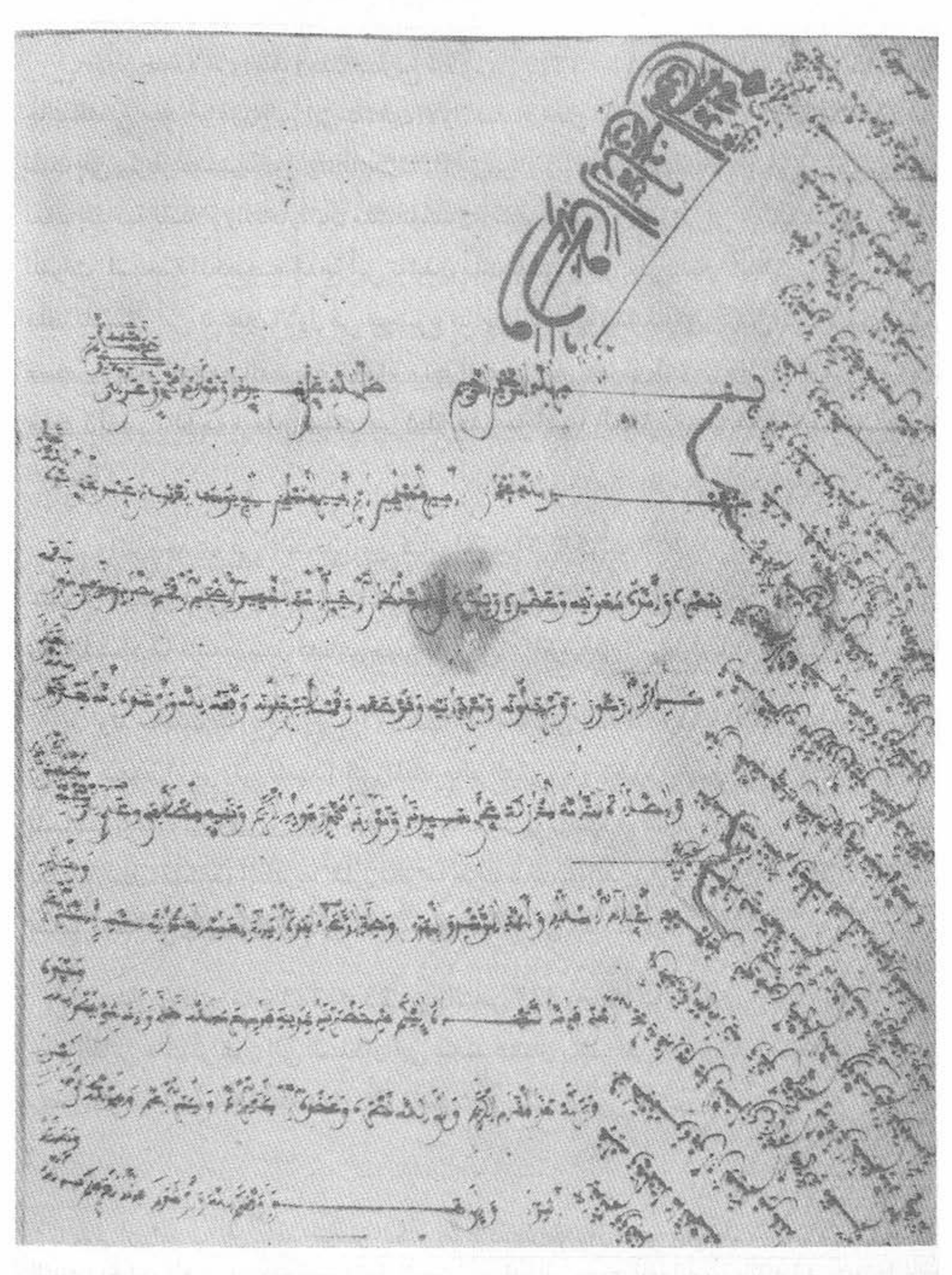
وأثناء حديثة في (المدخل) من كتابه المفيد أكد الكونت لاتري أن السفير الأراغوني كان عليه أن يحصل على ثلاثة أشياء ثالثها : إذا ما أعلن ملك أراغون الحرب على ملك غرناطة فإن أمير تلمسان أبا تاشفين يبذل قصارى جهده لمنع سلطان المغرب من إرسال المساعدات إلى الأندلسيين!!

وقد سجلت بتاريخ 5 ربيع الأول 723= 14 مارس 1323 : رسالة للأمير أبي الحسن علي بن أبي سعيد (وهو ولي للعهد) إلى الملك جاك الثاني ... يخبره بوصول كتابه الذي يطلب فيه المساعدة بإعادة مائة فارس يحتاجهم الملك جاك الثاني برسم الحركة إلى سردانية، والأمير المغربي يعده بإرسال المساعدة المطلوبة "على نحو ما جرت بذلك عوائد أسلافنا الكرام مع الملوك أمثالكم مثلما فعلنا مع ملك قشتالة دون شانجه حين احتاج إلى إعانتنا إياه ...! [1]"

وبتاريخ فاتح ماية 1323= 23 ربيع الثاني 723 وجدنا رسالة أخرى - على ما يظر - من جاك الثاني ملك أراغون إلى السلطان أبي سعيد عثمان ملك المغرب، مع التعليمات الصادرة إلى رومان دو كوزبيير (R. de Coriére) المبعوث في سفارة إلى المغرب ...

---

1) يذكر أن المغرب كان ساعد الفونص العاشر .. ثم ساعد ابنه دون شانجه بمبلغ هام من الدنانير المرابطية د. التازي: الحضور العربي في جزيرة سيردانية، البحث الذي قدم إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورته الثامنة والخمسين 27 يناير-10 يبراير 1992 - مجلة البحث العلمي، العدد 41، ص 10 وما يتبعها -1413=1992-1993 . 1412



رسالة من السلطان عثمان حول مساعدة أراغون لاحتلال سردينية
وهي بتاريخ 5 ربيع الأول 723=14 مارس 1323

وبتاريخ 21 جمادى الثانية 723= 27 يونيه وجدنا رسالة من السلطان أبي سعيد عثمان أمير المسلمين بن أمير المسلمين إلى جاك الثاني ملك أراغون يخبره بوصول السفير رومان دو كوربيير والرسالة تؤكد مساعدة المغرب للعاهل الأراغوني وتحمل السفير الأراغوني رسالة شفوية...

وقد تميز عهد السلطان أبي الحسن الذي خلف والده السلطان أبا سعيد ببعض المستجدات الطارئة على صعيد العلاقات بين مملكة المغرب ومملكة أراغون فقد طرأت تغيّرات في الساحة السياسية بين المغرب وبين القادة المسيحيين في الجزيرة الإيبيرية، وهكذا تم عقد تحالف بين پيير الرابع ملك أراغون والفونص الحادي عشر ملك قشتالة أول مايه 1339= 20 شوال 739، وكان الهدف من هذا الحلف إعلان الحرب على ملك المغرب، وكذلك ملك غرناطة الذي تنتهي فترة الهدنة معه في شهر مارس 1342= شوال 742 ! [1]

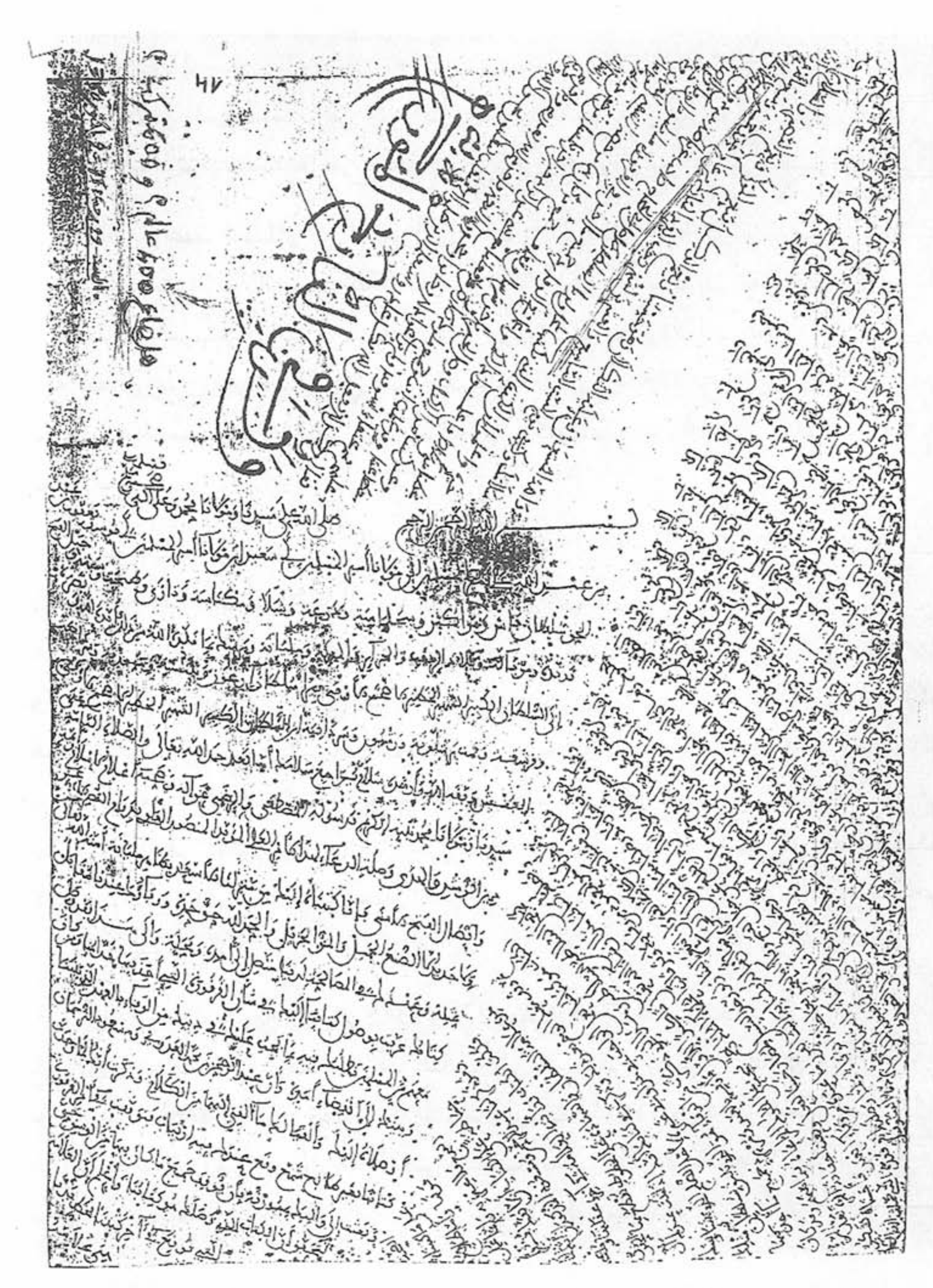
ومن جهة أخرى فإنه بتاريخ 18 أكتوبر 1344= 9 جمادى الثانية 745 سجلنا وثيقة دبلوماسية هامة، ويتعلق الأمر بالرسالة التي بعث بها من فاس السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد، إلى أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد .. "لقد عرّفتم بما كان انبرم بينكم وبين الجنويين من الصلح وما رأيتموه في شمول ذلكم جهتنا وأردتم صدور الإذن من جهتنا فيما نمضيه من تلكم العقدة، ونلتزم الوفاء به من شروط تلك العهدة. وتعلمون أنا أمضينا الصُّلح المنعقد مع قشتالة على ما فيه من الشروط، وأن الجنويين والقطلانيين شملتهم تلك الربوط فإن أحبت الطائفتان إمضاء ذلك العقد المذكور وانبرام الصلح على ما فيه من الحكم المسطور، فنحن قد أمضينا ذلكم وكملناه، ومتى أردتم بعث كتابنا بتمام ذلكم الإذن بعثناه، فموالاة الإسعاف بما فيه مصلحة المسلمين موصولة ...

وفي يومياته بتاريخ 1 يبراير 1345= (27 رمضان 745) تحدث پيير الرابع عن علاقاته مع ملوك المغرب عندما قال : وَصَلَنا في هذا التاريخ إلى قصرنا في بيرْپينْيان (Perpignan) القائد أبو القاسم (Abelkacem) مبعوثا من السلطان يوسف (غرناطة)، وكانت للسفير صلاحيات الحديث عن يوسف وعن السلطان أبي الحسن (المغرب) لعقد اتفاقية للسلام معنا، وفي يوم الجمعة الموالي أكدنا اتفاقية عشر سنوات مع مبعوثي ملك غرناطة وملك المغرب[2].

---

1) دوماص لاتري : التكملة ص 63.

2) لاتري (المدخل) ص 229/181.



رسالة من علي بن أبي سعيد إلى أبي الحجاج بتاريخ 9 جمادى الثانية 745=18 أكتوبر 1344

وقد سجل التاريخ رسالة كتبت في تلمسان بتاريخ 24 ذي الحجة 746= 17 أبريل 1346 من السلطان أبي الحسن ... إلى ييير الرابع ملك أراغون... يخبر بوصول التاجر أرناو دو قادراش (Arnau de Cadiras) حول بعض القضايا التي كان أخبر بها ييير الرابع السلطان أبا الحسن والتي يبدو أن معلوماته حولها كانت ناقصة ...

وقد كان من العبارات التي أجاب بها العاهل المغربي الملك ييير : "... ولكن تعلمون أن كبار الناس -وأولى بذلك السلاطين- ينبغي لهم أن يحققوا في المسائل التي ترفع لهم، وحينئذ يكتبون بما لا مدفع فيه..." وبعد أن تبرئ الرسالة الجانب المغربي، تذكر أن ذلك الذي وجه اللوم إلى المغرب لم يكن عذره إلا أنه كان في ذلك يتحرك عن هوى وغرض !!

وقد سجل تاريخ 28 ذي القعدة 750= 27 دجنبر 1349 رسالة للأمير (أبي عنان) فارس بن السلطان أبي الحسن -أثناء وجود والده خارج المغرب إلى ييير الرابع ملك أراغون تعلن عن إرسال سفير للمفاوضة في شأن عقد إتفاقية للسلام ويخبر بوصول المبعوث الأراغوني التاجر مجيل القطلاني (Miguel de Catalan) الذي أتى عن جيل ألبير ميورقة (Gil Albert de Mallorca) في شأن إصلاح ذات البين وتهدين الملتين، وقد أسعفنا الطلب يقول الخطاب السلطاني، وتشير الرسالة إلى ما بين أراغون وقشتالة من عداوة، وإلى أن ملك المغرب يلتزم بمساعدة أراغون... وأخيرا تخبر الرسالة بإرسال منصور بن علي بن سليمان الياباني وإبراهيم ابن محفوظ ...

وقد سجل تاريخ 29 رجب 751= 14 شتنبر 1350 رسالة هامة من السلطان أبي الحسن علي بن أبي سعيد إلى ييير الرابع، كتبت بظاهر مليانة والسلطان في طريق عودته من تونس في أعقاب الكارثة الشهيرة التي تعرض لها أسطوله بعد أن غادر تونس[1]!!

1) يذكر المقري في النفح أن الحادثة وقعت بعيد الفطر 750= يناير 1350 وأن الأسطول كان يتألف من 600 قطعة! وأن عدد الذين كانوا يرافقونه من العلماء بلغ 400 عالم ! ذكر منهم ثلاثة : السطي وابن الصباغ والزواوي... ويتأكد لدي أن هناك مبالغة كبيرة في تلك الأرقام، الأمر الذي تؤكده الرسالة المذكورة التي جرت بين أبي الحسن وبين ييير الرابع بتاريخ 29 رجب 751 راجع فصل العلاقات مع أقطار المغرب الكبير.

لقد تناولت الرسالة حادث القرقورة التي أخذ فيها خدامنا ومن كان معهم من لدن ميورقة .. لقد توجه لهذا الغرض عبد الرحمن بن محمد العدوي، ومسعود الترجمان .. وقد كان من العبارات الدالة الواردة في هذا الكتاب قول الحكماء "**الملك رحم**" فتجب على الملوك المراعاة فيما بينهم ... وأعلم أن في بلادنا الساحلية، من تجار النصارى القطلانيين، من **يفي في المكافأة بأضعاف تلك القرقورة**، ولكنا وقفنا عنهم هذا الأمر وفاء بعهد الصلح ...

وبعد أن يخبر ملك أراغون باستيلاء ولده الأمير الناصر على المدية يخبره بما قر عليه العزم من "استرجاع بلادنا الشرقية والغربية ...".

وبتاريخ 25 رمضان 751= 26 نونبر 1350 وقفنا على نص اتفاقية السلام بين السلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن... وبين بيير الرابع لمدة من أربعة عشر شهرا من شهر تاريخه.

وهذه رسالة بتاريخ 7 شوال 751= 8 شتنبر 1350 من الأمير أبي عنان فارس بن السلطان أبي الحسن إلى بيير الرابع يخبر بوصول السفير افرانسيس برتيل (Francisco Portelle) الذي كان يحمل رسالة للعاهل المغربي حيث أمضى ملك المغرب اتفاقية مع ملك أراغون تضمن السلام والأمن لكل التجار الواردين...

وقد سجل تاريخ 28 رجب 752= 20 شتنبر 1351 رسالة من السلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن إلى الملك بيير الرابع حول موضوع يتعلق بقرصلة ارتكبها "خدامك الذين اخذوا الشياطي بمقربة من جبل الفتح، وتجارك هم الذين تعدوا على أخذ القرقورة ...

وهذه رسالة بتاريخ 3 شعبان 752= 25 شتنبر 1351 حول قضية الشيطي الذي أخذه ابن الخطيب، وقد اقتضى نظر العاهل أن يتوجه السفير المغربي إبراهيم بن محفوظ لتقديم التوضيحات، ويؤكد ثبوت الصلح بين الطرفين ...

وقد وجدنا رسالةً حررت بفاس بتاريخ 2 ذي الحجة 755= 18 دجنبر 1354 ؟ من الأمير عبد الرحمن بن السلطان أبي الحسن إلى صاحب أراغون... ويتحدث هنا الكتاب عن السفير الأراغوني جليام مَرينير (Guillem Mariner).

وفي مدخل تأليفه، أفادنا دوماص لاتري (De mas Latrie) أن العلاقات بين أراغون والمغرب التي ظلت على العموم آمنة، عرفت أيام السلطان أبي عنان بوادر أكثر دلالةً على الاتصال الحميم والتقدير المتبادل وذلك في أعقاب الأضغان العميقة التي نشأت من الظروف السياسية والعائلية التي عمقت الخلاف بين بيير الرابع ملك أراغون وبين ملك قشتالة الذي يحمل نفس الإسم: بيير القاسي.

وهكذا ففي ظروف لم تحدد، بعث بيير الرابع بالقاضي العام لمدينة بلنسية بيير بوال (P. Boil) إلى السلطان أبي عنان ليقترح عليه حلفاً دفاعياً أو على الأقل محايدا متبادلا بين الجانبين في حالة حرب محتملة بين أراغون وقشتالة، وقد أجاب السلطان بتشجيع هذا الإقتراح، وثمت حررت أول معاهدة .. ووجدنا أن الملك بيير يصادق المرة الأولى على الاتفاقية في سرقسطة لفترة خمس سنوات ويمددها بُعَيد ذلك لفترة جديدة لخمس سنوات في كارينينا (Carinina) (بأراغون) بحضور السفير المغربي الذي تسلم الرسالة التي تحمل تاريخ 10 غشت 1357= 22 شعبان 758 السالفة الذكر.

وقد حلى بيير الرابع العاهل المغربي بوصف الصديق والأخ... وقد وعده بأنه في حالة ما إذا شنت حرب -طوال العشر سنوات- التي تمتد فيها الاتفاقية، بين المغرب، وبين قشتالة، فإن أراغون لا تقدم أية مساعدة للملك المسيحي، وهو يتعهد بملازمة الحياد إزاء ملك غرناطة، لقد كان الاتفاق، في الوقت الواحد، يتناول الشؤون السياسية والتجارية، وكان يضمن للمسلمين المغاربة والأندلسيين الأمان التام في سائر الموانئ والجزر التابعة للتاج الأراغوني.

لقد كان التجار والمسافرون متأكدين من أنهم يجدون في المواقع المذكورة العون والحماية، وقد أعطيت في هذه الاتفاقية الضمانات فيما يتعلق بما قد ينتج عن العواصف البحرية من تَعويق للمراكب حيث نجد أن الأطراف المعنية تلتزم بالحفاظ على الأموال والأشخاص ...

وقد ورد في كتاب فيض العباب لابن الحاج النميري حديث أصيل عن علاقات السلطان أبي عنان بملك أراغون، يعتبر من الإفادات الهامة التي تتفق مع ما أعطاه الأرشيف الأراغوني من معلومات ...

وقد حاول ملك قشتالة في السنة اللاحقة 1358=759 أن يعمل على كسر الاتفاقية المغربية الأراغونية لكنه لم يفلح، وقد فاتح في هذا الموضوع عبثاً السلطان أبا عنان ...

وبتاريخ 4 صفر 759= 16 يناير 1358 وجدنا رسالة من السلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن إلى الملكة دونيا ليُونور (Dona Leonor) جوابا على طلبها أن يعقد السلام مع أخيها الحاكم بصقلية على ما نقف عليه في العلاقات المغربية الصقلية.

وبتاريخ 11 صفر 759= 23 يناير 1358، وجدنا رسالة من الوزير الشريف محمد الحسيني إلى پيير الرابع حول "الصلح المبرم بين الطرفين وفيها يقرر أن بني مرين أمروا بأن تقضى سائر أغراض ملك أراغون : "ومخازنهم الواسعة مملوءة بجميع ذخائر الدنيا ... وجميع الحوائج واردة عليك .. وهي مفسرة في الزمام الوارد عليك في بطن هذا الكتاب ... وأما حديث السر الذي تحالفت فيه معك في منزلك فقد قررته لمولانا في خلوة بحيث لا يسمعنا أحد ... فوافق نظره على أن توجهوا من ثقاتكم الذي تفضون إليه بأسراركم له من يتحدث مع مولانا فيه سرا...".

ويتساءل المرء حقاً عن طبيعة هذا السر في هذا التاريخ الذي كانت فيه العلاقات بين قشتالة وأراغون تزداد توتراً...

وبتاريخ 20 صفر 759= 1 يبراير 1358 نجد رسالة حررت بالمدينة البيضاء : فاس الجديد تخبر بوصول كتاب من النائب بميورقة حول تسريح "البشيل" الذي كان متجها لبجاية مشحوناً بالزرع ...

ووجدنا بتاريخ فاتح يونيه 1358= 22 جمادى الثانية 759 رسالة من پيير الرابع ملك أراغون إلى السلطان أبي عنان ملك المغرب ... تتضمن التعليمات التي سلمت إلى ماثيو ميرسي (M. mercer) وأرنو دو فرانس (A. de France) وبيرتران دو پينو (B. de Pinos) المبعوثين من لدن ملك أراغون في سفارة لدى العاهل المغربي ليصرفوه عن منح المساعدة التي طلبت إليه من لدن ملك قشتالة .. سواء أكانت المساعدة بالرجال أو بالخيول ...

وبعد وفاة السلطان أبي عنان عرف المغرب حالة من الاضطراب ظهر أثرها في شحة الوثائق الدبلوماسية التي تربط المغرب بأراغون ومع ذلك فقد سجل تاريخ 7 شعبان 761= 24 يونيه 1360

رسالة من أمير المسلمين أبي سالم إبراهيم ابن أبي الحسن إلى بيير الرابع، وقد حررت من تلمسان حيث يخبر ملك أراغون بفتح عاصمة المغرب الأوسط، وتتحدث عن عدوان وقع على قطع بحرية مغربية .. وبهذه المناسبة يؤكد أنه باق على "الصلح الذي كان بين ملك أراغون وبين أسلافنا في جميع بلادنا...".

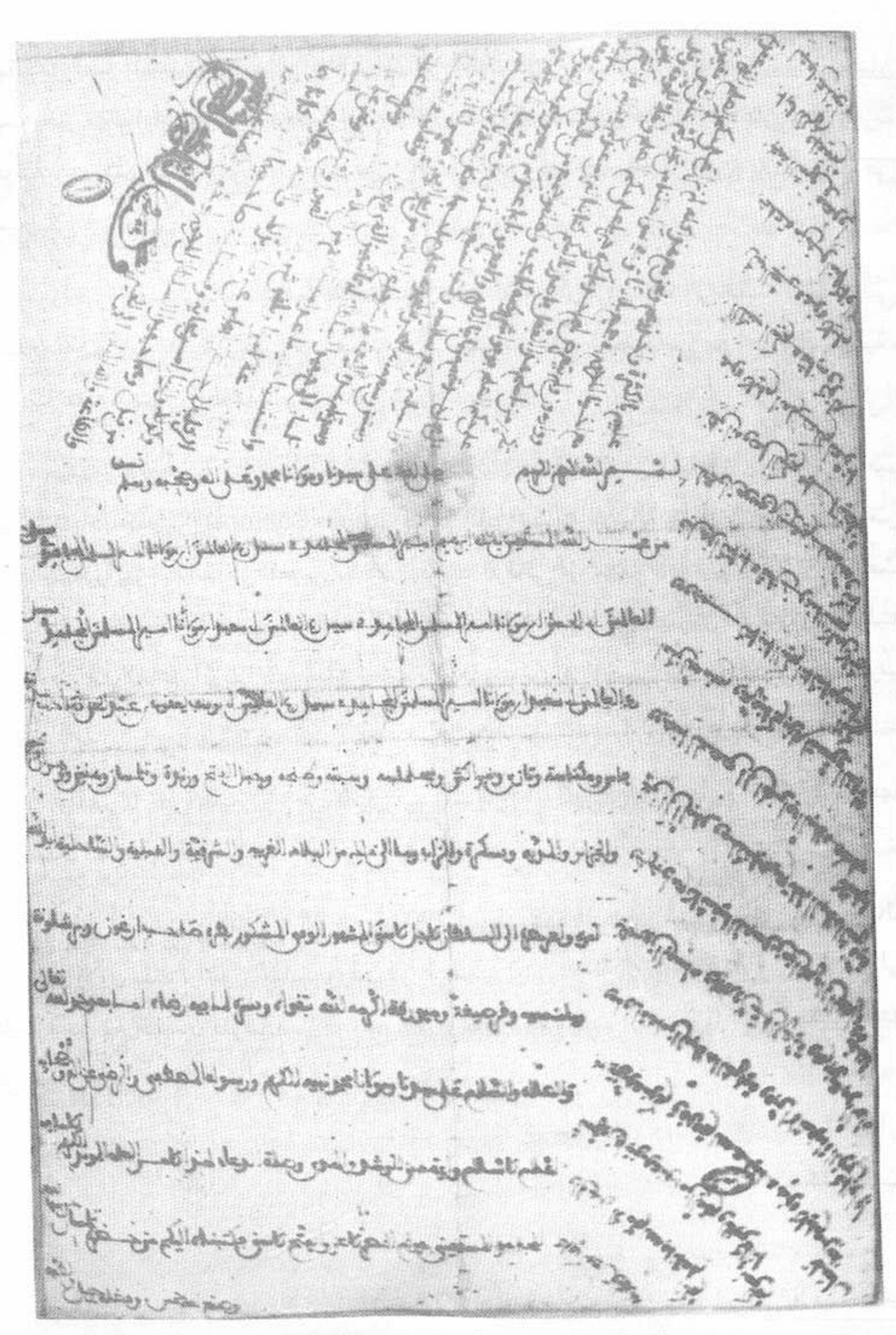
وأخيرا تخبر الرسالة بأنه بعد فتح تلمسان رأى العاهل أن يرد أمرها إلى حفيد السلطان أبي تاشفين "الذي ربى بدارنا وتقلب في نعمتنا، وقد استثنينا عليه (مستغانم) من البلاد الساحلية، وشرطنا عليه السمع والطاعة لأمرنا وتلقى شروطنا بالقبول[1]...

وهذه رسالة أخرى بتاريخ 10 شعبان 761= 27 يونيه 1360 من السلطان أبي سالم إبراهيم إلى بيرنار دو كابريرا (Bernart de Cabrera) الذي تسميه الرسالة برناط قبريرة، كتبها من تلمسان يخبر بتوجيه العاهل المغربي للسفير يعقوب الرّقاني في مهمة لدى ملك أراغون وقد بعث بيير الرابع بتاريخ 17 دجنبر 1361= 18 صفر 763 إلى إفريقيا بيرنار المذكور وعهد إليه بالتفاوض مع العاهل المريني أبي زيان محمد بن يعقوب بن أبي الحسن حول العلاقات بين المغرب وبين أراغون.

والمهم مما نص عليه دوماص لاتري في (المدخل) أن العلاقات الآمنة بين أراغون من جهة وبين ملك المغرب وملك غرناطة من جهة أخرى ظلت مستمرة على العموم ...

وفي أول شتنبر 1368= 28 شعبان 790 أي في عهد السلطان أبي العباس بن أبي سالم أذن جان الأول ملك أراغون لجيلبير روڤين دو طرطوس (G. Rovin de Tortose) بأن يذهب إلى مملكة فاس مع خمسين فارساً مسلحاً ومع عشرة نساء عموميات ! ليلتحق الجميع بخدمة عاهل بني مرين لأجل أن يشاركوا في الحرب ضد مناوئيه ...

1) مجموع الوثائق الأراغونية ص 224-225.



الرسالة بتاريخ 7 شعبان 761=24 يونيه 1360

وقد علق دوماص لاتري على وجود المومسات في الجيش الأراغوني بهذه الكلمات :

"إن سان لوي نفسه لم يسعه إلا أن يغض الطرف عن وجود هذا الداء العضال الذي ليس له علاج ! وفي إسبانيا أيضاً كان الجيش لا يخلو من هذا النوع من البشر ممّن نعت عندهم بالمكملات (Les accessoires).

وقد سجل التاريخ أن فيرناندو الأول [1] تلقى،بمجرد اعتلائه عرش أراغون، سفارةً من ملك المغرب السلطان أبي سعيد الثاني (800-823=1397-1420)، وإذا كنا نجهل لحد الآن أسماء أعضاء هذه السفارة فقد رأينا فيرناندو يجيب عن السفارة المغربية بسفارة أخرى على رأسها أنطونيو كاشال (Antonio Cachal) والنبيل رامون دي كونصا (Ramon de Cachal).

وبالإضافة إلى هذا فإننا نجد في السجلات الخاصة بمملكة أراغون مجموعة من الرسائل الموجهة من فيرناندو الأول إلى السلطان أبي سعيد الثاني باللغة القشتالية فيها ما يتعلق بالتوصية خيرا ببعض الأشخاص، وفيها ما يتناول بعض المطالب التي يرفعها ملك أراغون إلى العاهل المغربي...

ويلاحظ أن معظم الرسائل كانت تفتتح بديباجة لائقة بعظمة العاهل المغربي حيث نجدها تسبغ ألقاب الملك والتجلة والإكبار والأخوة والود، وكثيرا ما تختم بنفس العواطف مضيفة إلى كل هذا، الإعراب عن إستعداد فيرناندو الأول لتقديم أية خدمة لجانب السلطان وتلبية رغباته[2].



علامة ملوك دولة بني مرين

1) يلاحظ أن الملك فيرناندو الأول تميز بالتمهيد لبناء الدولة الإسبانية والتوحيد بين قشتالة وأراغون الذي تم في عهد فيرناندو الثاني الذي تزوج ملكة قشتالة إيزابيلا الكاثوليكية (1451-1504) حيث مكن هذا التصاهر من توحيد المملكتين الذي اكتمل ذلك بسقوط غرناطة عام 1942...

2) Mariano Arribas Palau :
Cartas de recomentacion cursadas Al Sultan Abu Said 'Utman III de Marruecos Por el Rey de Aragon, Fernando I, el de Antequera, Hesp. 1980, p. 387.

العلاقات المغربية البرتغالية على عهد بني مرين

بعد التطورات التي شهدتها العلاقات بين الجانبين على عهد الموحدين لاحظنا منذ ذلك التاريخ أن البرتغال تكتفي بالوقوف عند الحدود التي توصلت إليها بعد التغلب على إقليم الغرب...

ولكن البرتغال لم يلبث في عهد بني مرين أن تحرك ضد العاهل المغربي أبي الحسن حيث وجدنا ملك البرتغال ألفونص الرابع -معتمدا على قطع من أسطول جنوة- يتفق مع خصمه بالأمس ملك قشتالة، على نحو ما فعل ملك أراغون، للمشاركة معهم في كائنة طريف (741=1340) التي كانت نذير شؤم على الدولة المرينية على ما أسلفنا...

إسترجاع المصحف العثماني من البرتغال ...

في معرض حديثة عن تحركات السلطان أبي الحسن، ذكر ابن مرزوق في (مسنده) أن مصحف سيدنا عثمان كان يتقدم بين يدي العاهل تيمناً به...

وبعد أن يعرض لتاريخ هذا المصحف العثماني منذ أن كان بالمدينة المنورة إلى أن إنتقل إلى الأندلس ضمن المصاحف الأربعة التي بُعث بها للكوفة والشام.. حيث صار إلى عبد المؤمن إلى أن حمله الخليفة السعيد معه في حملته على تلمسان .. فصار إلى بني عبد الواد إلى أن افتتحت تلمسان من لدن السلطان أبي الحسن حيث حصل على المصحف الذي ضاع مرة أخرى أثناء كائنة طريف.

وقد وصل الخبر باستقراره ببلاد البرتغال فتلطف رضي الله عنه في توجيه من يخلصه بما يطلب فيه من المال، فتولى ذلك التاجر أبو علي الحسن بن جمي من مدينة أزمور (مولاي بوشعيب) فورد به على مولانا رضي الله عنه في شهور سنة خمس وأربعين (وسبعمائة) (45-1344) ونحن بمدينة فاس، يقول ابن مرزوق ...

حديث ابن الحاج النُّمَيري عن العلاقات المغربية البرتغالية

وشاهدت أيام أبي عنان بعض الأحداث التي تتصل بالعلاقات المغربية البرتغالية، والتي لم يتعرض لها -حسب علمنا- أي مصدر من المصادر المغربية باستثناء ابن الحاج النُّميري في كتاب (فيض العباب).

والجدير بالذكر أن هذه الأحداث لم تتعرض لها المصادر البرتغالية كذلك حسب علمنا، ربما كان سبب ذلك استسلام البلاد لحروبها الأهلية، في أعقاب إجهاز ملك البرتغال ألفونصو الرابع على إينيش (INES) بعد أن اكتشف صلتها الغرامية بابنه الأمير دون بيدرو. !

ويتعلق الأمر بالمعركة التي حملت في إفادة النميري إسم (معركة لاقش) (Lagos)[1] التي كانت من أكبر المعارك التي عرفها التاريخ بين السلطان العظيم أبي عنان والملك "الأحوذي" ألفونص الرابع حيث اقتلعت النواقيس وكسرت الصلبان[2]...

ولا يمكن أن يأخذنا الشك فيما استأثر بذكره ابن الحاج النميري بالرغم من أنه لا يوجد في أي مصدر آخر ... لأن مركز أبي عنان على ذلك الوقت (شوال 757= أكتوبر 1356) كان من القوة والعظمة، على نحو ما قرأناه في علاقاته مع الجهات الأخرى[3].

لقد كشف لنا ابن الحاج النميري عن معلومات تتعلق بالمغرب والبرتغال أو بالأحرى بالسلطان أبي عنان ملك بني مرين وبين الملك ألفونص الرابع ملك البرتغال، "وإن خبر هذه المعركة قد تقدم في "الديوان"، وأوردناه مشروحاً على قواعد الإيضاح والتبيان" على حد تعبير النميري.

---

1) لاقش : مدينة شاطئية جنوب البرتغال كانت لها أهمية كبيرة، وقد نعتها النميري بالزمردة الخضراء (Lagos) وسنسمع بها في وقعة وادي المخازن بمناسبة تحرك الأسطول البرتغالي منها في اتجاه المغرب ...

2) يبدو لي أن جرساً من هاته الأجراس كان من نصيب المسجد الأعظم في أزمور مولاي بوشعيب، بينما الباقي كان من نصيب جامع القرويين من فاس أو نصيب الجامع الأعظم بتازة... أنظر تأليفي عن تاريخ جامع القرويين وعن التاريخ الدبلوماسي للمغرب.

3) د. التازي : غارة أبي عنان على لاقش والسفارة المتبادلة لإبرام الصلح بين الدولتين، محاضرة يوم 25 نونبر 1986 بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بفاس : الأيام الجامعية المغربية البرتغالية.

وقد تقفينا -كما قلنا- إثر هذه المعركة في المصادر المغربية منثورها ومنظومها، وكذا المصادر الأجنبية وخاصةً منها البرتغالية فلم نعثر لها على أثر .. ! وقد زاد من حيرتنا إحالته على ماسماه "الديوان" الذي لم نعرف ما يقصد به، هل إنه كتاب خاص له أم إنه جانب مفقود من كتابه (فيض العباب)...

إن ابن الحاج هو المصدر الوحيد حول هذه "المعركة" وهو المصدر الوحيد الذي أخبرنا بوصول وفد الروم في شوال 757= (30 يوليه - 27 غشت 1356) طالباً الصلح من السلطان أبي عنان، ومن جملتهم وفود ملك البرتغال (ألفونص الرابع (1325-1357) الذي هزمته الجيوش المغربية في السنة الماضية 756=1356 في (لاقش Lagos)[1]...

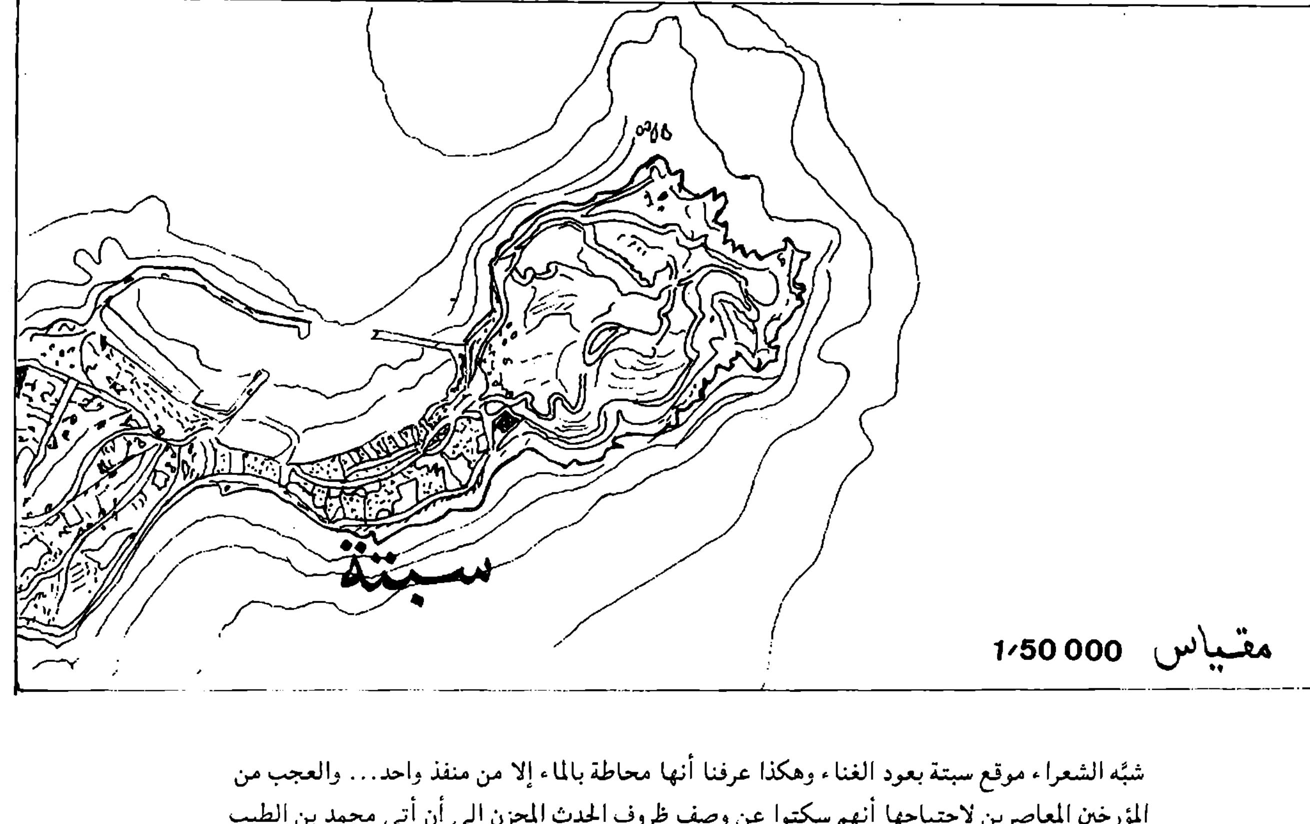
إحتلال سبتة

لقد أكدت الحوادث التي مرت بها المملكة المغربية عبر تاريخها الماضي، وخاصة منذ أيام يوسف ابن تاشفين، أن مصير سبتة يتقرر من جهة البحر، وبعبارة أخرى أن مصيرها إنما يفصل فيه من يملك الأساطيل !!

... وإذا ما عرفنا عن ضعف الأسطول في أواخر العهد المريني عرفنا إذن أنه كان مقدراً على سبتة أن تقع في يد القراصنة الذين يملكون الأسطول !

وهكذا فقد ألحت البرتغال سنة 818=1515 في عهد ملكها جوان الأول على سواحل المغرب الأقصى ولستولت عَلى مدينة سبتة بعد حصار طويل بأسطول بلغ عدد قطعه إلى 120 قطعة حيث حاصروها من جهاتها البحرية الثلاث قبل أن يتمكنوا من اقتحامها يوم 7 جمادى الثانية 818= 14 غشت 1415 في وقتٍ كانت فاس تعيش محنها التي أتت على المعالم الحضارية لبني مرين أيام السلطان أبي سعيد الثاني الذي كان على حروبٍ متوالية مع ملك غرناطة ...

1) النميري : فيض العباب، دراسة وإعداد د. محمد بن شقرون المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط.



شبَّه الشعراء موقع سبتة بعود الغناء وهكذا عرفنا أنها محاطة بالماء إلا من منفذ واحد... والعجب من المؤرخين المعاصرين لاجتياحها أنهم سكتوا عن وصف ظروف الحدث المحزن إلى أن أتى محمد بن الطيب القادري بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف ليروى لنا في كتابه نشر المثاني ما روى !!

لقد كان البرتغال يهدفون باستيلائهم على سبتة، أن يحققوا لهم الامتداد فيما وراء البحار بعدما عجزوا عنه في داخل الجزيرة الإيبيرية كما هدفوا به إلى نيل الحظوة عند البابا الذي كانت كفتا الميزان تتأرجح عنده بين إسبانيا والبرتغال...!

لقد كانت سبتة تتحكم في المضيق، كمركز لإغاثة دول الإسلام بالأندلس، كما كانت من الناحية التجارية المركز الأول في المضيق الذي تؤمه سفن التجارة من جل المرافئ، فكان الاستيلاء عليها إذن يغري البرتغاليين الطامعين في الأسواق الخارجية ...

وقد تبع احتلال سبتة شنُّ سلسلة من الغارات من طرف الفونصو الخامس كان في أولها إستلاء البرتغال سنة 863=1459 على (قصر المجاز) المعروف في التاريخ القديم بقصر مصمودة[1] أو القصر الصغير الذي كان منه جواز طارق بن زياد والذي ظل المعبر الأقرب المفضل للجيش الإسلامي.

وبعد سقوط قصر المجاز قصد عام 869= 1465 وليّ عهد البرتغال دون فيرناندو على رأ خمسين سفينة على ظهرها عشرة آلاف من الجند قصد مدينة (أنفا) التي كانت عاصمة تامسنا حيث كان ابن بطوطة قاضياً[2] فدكها دكا أزالها من الوجود قبل أن يعود إليها ليجعل منها قلعةً من قلاعه تحمل أولا إسم (كازا برانكا) : الدار البيضاء .. قبل أن تصبح كازا بلانكا[3]

---

1) قصر مصمودة أسسه أمير مصمودة أيام ولاية طارق بن زياد، وهو الآن خراب خلا بعض الأطلال البرتغالية، راجع التعليق الخاص بالموقع عند الحديث عن عبور طريف بن مالك وطارق بن زياد لديار الأندلس دوكاستري : السعديون والبرتغاليون ج 4، ص 108.

2) ابن حجر : الدُّرر الكامنة ج 4 ص 1000. تحقيق رحلة ابن بطوطة للدكتور التازي المجلد الأول ص 81.

3) عاد البرتغاليون إلى الدار البيضاء بعد مرور نحو من أربعين سنة فأقاموا بها حصنا لكن مصيره كان نفس مصير جميع الممتلكات البرتغالية على سواحل المغرب، فقد اضطروا لتركه بعد الحملات الوطنية على سائر الأجانب المحتلين للسواحل المغربية، وقد عرفت الدار البيضاء باسم (أنفا) وكانت فعلاً من معاقل سلاطين بني مرين وحاضرة علمية كبرى من حواضرهم... وكان لها دور في تاريخ غارات السفن على شواطئ أوربا، الكراسي : عروسة المسائل، مطبوعات القصر الملكي ص 13. - الاستقصا 4، ص 116.

وبعد سبتة وقصر المجاز وأنفا زحف البرتغال أيام السلطان عبد الحق بن أبي سعيدآخر ملوك بني مرين، وأيام الفونصو الخامس الملقب بالإفريقي، زحفوا على مدينة طنجة سنة 841=1438 بعدد كبير من الجند المنظم تحميهم المراكب والسفن، فضربوا حصاراً على المدينة وضيقوا على أهلها...

وهنا عاجلهم السلطان عبد الحق بما كان يتوفر عليه من عدة، واستطاع المغاربة -بالرغم من الإمكانات المحدودة- أن يوقعوا بالمغيرين ويقبضوا على كبير عسكرهم الأمير (ضون فيرناندو Don Fernando) في جماعة من أصحابه حملوهم أسرى إلى مدينة فاس حيث تمَّ عرض الأمير على الجمهور بعد أن أعدت له بناية مرتفعة[1]...

وقد لجأ البرتغال إلى إرسال سفارة هامة لتفاوض ملك فاس في شأن عقد الصلح وتحرير الأمير البرتغالي، وقد قبل المغرب العرض البرتغالي ولكن على أساس إرجاع سبتة للتاج المغربي والتعهد -في مقابلة ذلك- بتحرير الأمير الأسير ومن معه من الجند، وقد قبل البرتغاليون المقترح المغربي وانعقد الصلح فعلا بين الطرفين على ذلك الأساس بتاريخ 15 ربيع الثاني 841= 16 أكتوبر 1437 على ما يقتضيه ملخص الوثيقة[2]...

بيد أن الأمير المذكور أدركته وفاته 5 يونيه 1443= 6 صفر 847 وهو بمعتقله من مدينة فاس وقبل أن يصادق ملك البرتغال على الاتفاقية، وهنا نسفت حظوظ السلم بين الدولتين !



الأمير البرتغالي دون فيرناندو
الذي اعتقله المجاهدون المغاربة
أثناء الهجوم البرتغالي على طنجة

1) S.I.H. M. Portugal T.I. PIX-XII

2) لم نقف مع الأسف على نصوص الاتفاقية المذكورة فيما أمكن الحصول عليه من وثائق سواءً في البرتغال أو سيمانكاس (إسبانيا) أو المغرب، وقد ذكر. ابن عزوز في مؤلفه : وزارة الأمور البرانية أنه يوجد ملخص لهذه الاتفاقية...

الفصل السادس

المغرب ودول أوربا

- هدية جنوة إلى العاهل المغربي ...
- مع البندقية وتطلعها لأخبار المواقع الجغرافية بالمغرب
- العلاقات بين المغرب وبيزة
- اتفاقية 759-1358 ذات البنود المرتَّبة والهامَّة...
- اتفاقية صقلية مع المغرب
- الكرسي البابوي والميليشيات المسيحية بالمغرب
- صدى فرنسا في مصادر الحروب الصليبية بالمغرب الأدنى
- صورة اتفاقية المغرب ميورقة 739=1337

المغرب ودول جنوة، البندقية، فلورانسا، بيزة صقلية، الكرسي البابوي، انجلترا، فرنسا وميورقة

جمهورية جنوة :

لقد سجل التاريخ عدداً من الآثار التي تترجم عن نوع العلاقات التي كانت تربط جمهورية جنوة بأقطار المغرب الكبير بالرغم من المنافسة الحادة التي كانت للبندقية مع جنْوة ! وميلاً للاختصار سنكتفي بالإحالة على ما يحتضنه أرشيف جنوة - وهو كثير- حول المغرب الأدنى مقتصرين على ما يتصل بالمغرب الأقصى :

هدية من جنوة إلى أبي يعقوب المريني . . .

وقد سجلت المصادر المغربية لقطةً تاريخية عن صلاتٍ مبكرة للدولة المرينية بجمهورية جنوة، وكانت تمثل، على ذلك العهد أقوى دولة بحرية في شرق البحر المتوسط.

وهكذا نجد أنها، أي جنوة، في عز سلطانها على المتوسط تبعث سنة 692=1293 سفارةً إلى السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق وهو يحاصر قلعة تازوطا، من أرض الريف، لتطويق فصيلة مرابطية من أعقاب يوسف بن تاشفين.

فهناك قدم على العاهل المغربي- على ما يذكر ابن أبي زرع وتنقله عنه المصادر الإيطالية -مبعوث من فرنج جنوة بهدايا ثمينة جليلة كان منها شجرة جللت أغصانها المعدنية بالذهب الخالص، وعلى تلك الأفنان طيور تغرد بحركات هندسية على نحو ما صنع للمتوكل العباسي عام (232هـ) مما كان أصلاً -فيما يبدو- للقصر الذي كان يحمل في عهد المقتدر إسم دار الشجرة[1].

ولا شك أن هذه الوفادة التي كانت تتميز بهذه الهدية الغريبة إنما كانت تستهدف إحكام العلاقات مع المملكة المغربية، الأمر الذي يعبر عن المكانة التي كانت تحتلها دولة بني مرين منذ فجر ظهورها ...

وقد رد في كتاب "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة" أنه في حدود سنة أربعين وسبعمائة =1339 - 40 دخل السلطان أبو الحسن المريني إلى سبتة فاجتاز به قوم من الفرنج الجنوية في غرابين، بالبحر وأخبروه أنهم خرجوا من جنوة، وقد أعدوا زاد سنتين وساروا في البحر يريدون الإحاطة بمعرفة ما فيه ودور ما أحاط بالمعمور فمروا بالجزر الخالدات... إلى آخر النص الذي أوردناه عند الحديث عن اهتمام بني مرين بالجزر الخالدات ...

ومن خلال ما أورده ابن الحاج النميري في كتابه "فيض العباب" نقف على معلومات جد هامة حول العلاقات المغربية الجنوية على عهد السلطان أبي عنان، وهكذا فبعد أن استقلَّ السلطان من مرضه في شوال 787= أكتوبر 1356 أتت إليه أرسال الجنويين ترغب في إبرام اتفاقية سلام مع المغرب، الأمر الذي رحب به العاهل المغربي حيث نراه -حسب ما يقوله النُّميري - يبعث بدوره سفارته إلى جنوة لاتمام عقد الصلح حيث إمتلأت بتجارة جنوة دواوين الأقطار المغربية ...

وينبغي أن نضيف إلى هذه الإفادة ما أشار إليه الحسن ابن الوزّان في كتابه "وصف إفريقيا" من حديث عن التجارة التي كان يمارسها الجنويون في مدينة سلا ...

---

1) ابن الكازروني : مختصر التاريخ ص 202 - علي بن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس طبع دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973، ص 382.

العلاقات بين أقطار المغرب وبين جمهورية البندقية

إن إلمامة قصيرة بأرشيف الدولة في "فيسينا" كافية لإعطائنا فكرة عن أن العلاقات بين البندقية وبين بلاد المغرب لم تعرف انقطاعاً ولا توقفا ، فإن مآت الوثائق المحفوظة من التي وقفنا عليها هناك باللغة العربية والتركية وإن مئات الرسائل المكتوبة بمختلف الأساليب لتجعلنا نتساءل عن أسرار الماضي الجميل الذي عرفه التاريخ الدولي لبلاد المغرب وتونس وطرابلس... وسنكتفي بالإشارة إلى الجرد التي يتضمن بعض ما صمد من أوراق ووثائق مما يتصل بهذا العهد محيلين، لمن يريد التفصيل، على ما دُوِّن في هذا الصدد من لدن المهتمين بتاريخ علاقات البندقية مع الخارج وفي صدرهم الكونط دوماص لاتري ...

ومن الطريف أن نقف، ضمن هذه الوثائق، على وثيقة جغرافية ترجع لعهد السلطان أبي سعيد عثمان من بني مرين.

ويتعلق الأمر بسجلٍ لأسماء عدد من مدن الساحل الإفريقي وهي من وضع بيير فيكسونتي الجنوي (Portulan de Pierre Vixonti de Géne) وقد أرسله إلى البندقية عام 1318= 717= 718...

هنا في هذا السجل عدد من أسماء المواقع المغربية : مرسى سوسة -بنغازي- الأراضي البيضاء - تاجوراء- طرابلس الغرب-زواوة- جربة-قابس-سقاقس-إفريقية-بونة-بجاية-الجزائر-تَنَس-وهران-هنين-الجزر الجعفرية-مليلية-جزيرة الطيور-(الصويرة)-المزمة-بادس-سبتة-القصر-طنجة-سبارتيل-أصيلا-العرائش-المعمورة-سلا-فضالة-أنفى أزمور-مازاكان-آسفي-الصويرة[1].

وكان من جملة الوثائق البندقية وثيقة تحمل تاريخ 3 مارس 1321= 2 صفر 721 وهي تتضمن كشفا بثمن بيع الملح المستوردة من إفريقيا إلى البندقية...

---

1) تجدر الإشارة إلى أن أحد الرهبان الإسبان زار المغرب في عهد دولة بني مرين وترك مخطوطا بعنوان كتاب لمعرفة جميع الممالك والأراضي والإمارات الموجودة في العالم مع الإشارة إلى الرموز والشعارات الخاصة بكل أرض وإمارة، وقد عثر عليه المؤرخ الإسباني ماركوس خيمينيث دي لا أستبادا سنة 1875 ونشره في مجلة الجمعية الجغرافية بمدريد :ج محمد المسطاسي : مختارات من التشديات في علم وفن الشعارات وزارة القصور الملكية والتشريفات والأوسمة الرباط 1419 1998.

بين المغرب وجمهورية فلورانسا

لقد عثرنا على نسخة من احتجاج يحمل تاريخ 1 يبراير 1363= 15 ربيع الثاني 764 الاحتجاج أرسل من لدن أحد أعيان فلورانسا باسم بعض شركاء مؤستين تجاريتين : كوكو (Cauco) وڤيتوري (Vituri) من البندقية، ضد عدد من الفلورانسيين الذين كانوا عملاء لهؤلاء في الديار المغربية من الذين رفضوا أن يسددوا لهم حساباتهم...

مع جمهورية بيزة

وإذا ما أشرنا إلى بعض الآثار التي تدل على وجود صلات بين بيزة وبين ملوك تونس وبجاية، فإننا سنجد طائفة من الوثائق التي تتصل -على الخصوص- بالمملكة المغربية.

وهكذا شهدت أيام دولة بني مرين، وبخاصة أيام السلطان أبي عنان إبرام إتفاقية من الأهمية بمكان بين المملكة المغربية وبين جمهورية بيزة تحمل تاريخ 28 ربيع الثاني عام 759= 9 أبريل 1358، وينبغي أن نرجع إلى نصها الكامل لنقف على عدد من المبادئ التي تعتبر اليوم أساساً للقانون الدولي العام فهي تنص على الطرفين المتعاقدين أولاً، ثم تدون المواد فصلاً فصلاً وتنص البنود على اعتماد المسؤولية الشخصية وعلى استحقاق الوارث لمال الأجنبي المتوفى في أرض المغرب... وعلى التعاون في ميدان الملاحة البحرية.. وعلى تعيين مقام خاص بالواردين الأجانب وعلى الالتجاء إلى العدالة عندما يحدث ما يستدعي الالتجاء إليها وعلى عدم الالتجاء إلى الإكراه في المعاملات التجارية وغيرها، وعلى المعاملة بالمثل في كل الشروط المنصوص عليها.. إلى آخر البنود الواردة.

وتنص الاتفاقية في الأخير على أن السلطان أبا عنان وضع خاتمه كما وضع علامته كذلك على الاتفاقية...

وقد نصت ديباجة الاتفاقية على تحلية العاهل المغربي بأنه سلطان فاس وتلمسان والجزائر وبجاية وقسنطينة وبلاد العنّاب وبسكرة وبلاد الزاب وإفريقية وقابس وجربة وطرابلس وسبتة.

لقد استمرت علاقات المملكة المغربية بجمهورية بيزة قائمة على أسس التعاون سواء في المجال الإقتصادي أو في الميدان البحري إلى أن هددت الجمهورية ببعض التكتلات، ثم مزقت

In nomine omnipotentis Dei patris et filii et spiritus sancti amen. Quoniam ...

اتفاقية السلطان أبي عنان مع جمهورية بيزا بتاريخ 28 ربيع الآخر 759= سابع أبريل 1958 وهي تحتوي على بنود مرقمة...

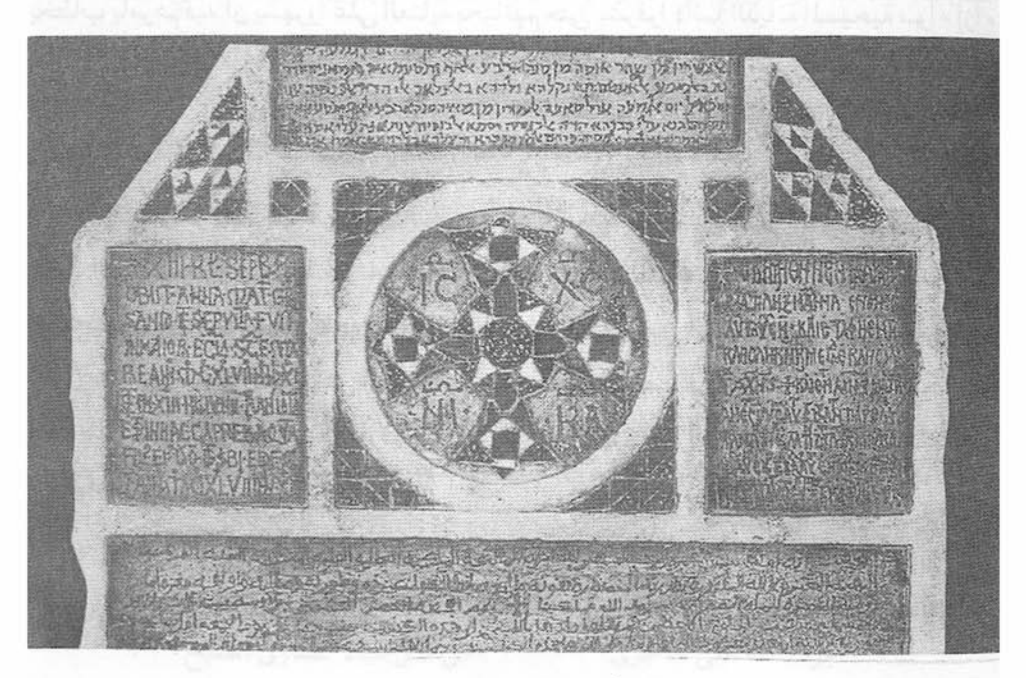
بسبب الصراعات الداخلية فآل أمرها -عام 1399، أواخر عهد بني مرين، إلى ولاة ميلان الذين باعوها لفلورانسا حيث وجدنا المدينة بالرغم من مقاومتها للحصار الشهير عام 1405-1406 تستسلم وتعيش تحت وصاية فلورانسا ولو أن الملك شارل التامن-بابطاليا- أعاد لها استقلالها بعض الوقت 1494-1509 قبل أن تزدهر ليڤورنو فنفقد بيزا أهميتها البحرية.

المغرب و صقلية

وإلى جانب الوثائق التي يحتضنها الأرشيف الوطني مما يتصل بعلاقات صقلية مع تونس وطرابلس نجد عدداً آخر من المصادر التي تمس التاريخ الدولي للمغرب، وسنبدأ بتوسل زوجة ملك أراغون بالسلطان أبي عنان في أن يعقد اتفاقية سلام مع أخيها صاحب صقلية على ما سبقت الإشارة إليه...

لقد سجلت العلاقات بين المملكتين حادثاً طريفا نرى من المناسب التعرض إليه، ذلك أن الملكة دونيا لينور (Doña Leonor) زوجة سلطان مملكة أراغون بعثت إلى العاهل المغربي السلطان أبي عنان فارس بن السلطان أبي الحسن تتوسل إليه أن يعقد إتفاقية سلام وصلح مع أخيها فادريج (Fadrique) صاحب مملكة صقلية، وقد رأى السلطان أبو عنان أن يرضي رغبة الملكة التي كانت تلقّت من أخيها تفويضا حول الموضوع، وهكذا عثرنا على رسالتين هامتين : أولاهما صادرة من الملك أبي عنان إلى الملكة دنيا يستجيب فيها لعقد صلح مع أخيها والثانية من وزيره الحُسيني إلى الملكة أيضا وهو يؤكد ما صدر عن السلطان أبي عنان على ما ذكرناه في (العلاقات بين مملكة أراعون وبلاد المغرب)[1].

1) Docum, Arab p.277



شاهد قبر بأربع لغات في باليرمو عاصمة صقلية
فيليب وخوان بن الحاج، ويوسف ابن سـ ....

علاقات المملكة المغربية بالكرسي الباباوي على عهد الدولة المرينية

لقد احتفظت وثائق الفاتيكان بعددٍ من التقارير التي تتحدث عن الصلات التي كانت تربط الكرسي البابوي بديار المغرب على عهد دولة بني مرين، وبالذات في بداية أيام أبي يعقوب بن عبد الحق، وبالتحديد بتاريخ تاسع يبراير عام 1290= 27 محرم 689.

لقد وجدنا أن البابا نيكولاس الرابع يتوجه إلى "البارونات" وإلى المواطنين وسائر "الميليشيات المسيحية" التي تحمل السلاح ضمن جيوش ملوك المغرب وتونس وتلمسان، يتوجه إلى هؤلاء بخطاب يأمرهم فيه أن يسهروا على العناية بحياتهم حتى يشرفوا دائماً الديانة المسيحية سواء إزاء باقي المسيحيين أو إزاء الذين يعيش المسيحيون بين ظهرانيّهم !

وقد أورد دوماص لاتري النص الكامل لهذا الخطاب في قسم الوثائق من كتابه الموسوعة.

وفي أواخر عهد بني مرين، وبالذات بتاريخ 4 مايه 1419= 8 ربيع الثاني 822 أيام أبي سعيد الثاني وجدنا أن البابا مارتان الخامس يصيخ بسمعه للشكايات التي وجهت إليه من لدن المسيحيين المقيمين بالمغرب، تلك الشكايات التي لها صلة بإبعاد الأسقف پيير الذي -بالرغم مما يُطوق به من واجبات- يستمر في المقام خارج أسقفيته وبعيداً عن إفريقيا كما أن لتلك الشكايات صلةً بتنصيب "الأخ" مارتان دوكارديناس، من هيئة "الإخوة" الفرانسيسكان، كقُس للأسقفية ليقيم فيما بينهم.

وقد تولى إيراد نص هذه الوثيقة المتعلقة بالمغرب الكونت دوماص لاتري في قسم الوثائق من كتابه.

بين المغرب وانجلترا والفلامنك على عهد بني مرين

في معرض حديث الحسن ابن الوزان (ليون الإفريقي) عن مدينة سلا وعن أهمية مينائها بالنسبة للعلاقات الخارجية ذكّر بالنشاط التجاري الذي كان يتم بين الميناء -باعتباره باباً للعاصمة فاس وبين التجار الإنجليز... والفلامنك (هولاندا) كذلك.

العلاقات المغربية الفرنسية

لقد كانت المشاركة في الحرب الصليبية من أبرز الأماني الأساسية لملك فرنسا لويس التاسع أو (سان لوي)... ومن هنا نراه ينزعج من روح التسامح التي انتشرت في الأراضي المقدسة بين المسلمين والمسيحيين في أعقاب حملة الامبراطور فريدريك الثاني 1227-1229 (الحرب الصليبية السادسة)، وهكذا ففي أعقاب مرض خطير ألم به نذر لله أن يقوم بالحرب ! ومن ثمت غادر باريز في يونيه 1248 = صفر 646، وقصد مصر بهدف القضاء على الإسلام هناك (الحرب الصليبية السابعة) بيد أنه انهزم ووقع في الأسر في معركة المنصورة 8 يبراير 1250= 4 ذي القعدة 647، ولقد عامله المسلمون بنبل وشهامة، ثم افتدى وأجلى الجيش (اتفاقية 2 مايه 1250). لقد قضى أربع سنوات في سوريا ثم عاد لفرنسا، لكن فكرة الحرب الصليبية لم تدع ذاكرته ! ومن هنا قصد تونس (المغرب الأدنى) بهدف تنصير الأمير الموحدي الحفصي المستنصر !! وتحريكه لمقاتلة ملك مصر بايبريس (BAÏBARS)، وقد احتل ملك فرنسا قرطاج 17 يوليه 1270=26 ذي القعدة 668 .... وهناك لقي مصيره 669=1270!...

وقد فصل ابن خلدون الحديث عن هذه الغارات مذكرا بالحلف الذي تم بين مختلف الممالك النصرانية بمؤازرة البابا...

ويسوق ابن خلدون، بهذه المناسبة، القصيدة المشهورة وهي من قول جمال الدين يحيى بن أبي مطروح شاعر السلطان بمصر.

قل للفرنسيس إذا جئتَه * مقال صدق من وزير نصيح
آجرك الله على ما جرى * من قتل عباد نصارى المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملكها * تحسب أن الزّمر بالطبل ريح !
فساقك الحَين إلى أدهم * ضاق به عن ناظريك الفسيح

ولقد احتفظت الأرشيفات الأوربية كذلك بنص الاتفاقية المؤرخة بتونس 21 نونبر 1270= 5 ربيع الثاني 669 والتي تتعلق بالسلم والتجارة...[1]

ومن جهة أخرى فقد وقفنا على وثيقةٍ في منتهى الأهمية ولا نجد لها نظيرا - حسب علمنا- في جهة أخرى من جهات العالم ! وقد جاءت أهميتها من حيث إنها تدل دلالة قوية على مدى إسهام المملكة المغربية على ذلك العهد، في بناء السلام العالمي، وفي إيجاد تفاهم صادق بين الأمم، إلى جانب أنها، أي الوثيقة، تعبر عن مدى تشبث المملكة المغربية بالشرعية وبالاخلاق... ويتعلق الأمر بالمساعي الحميدة التي قام بها العاهل المغربي عام 681=1280 لدى ملك فرنسا فيليپ الثالث حتى يعود لعلاقته الطيبة مع ألفونس العاشر ملك إسبانيا ويقول في رسالته تلك بأنه بالرغم من مخالفته في العقيدة لكل من الملكين، وبالرغم من أنه أي ملك المغرب في حالة حرب مع ملك إسبانيا إلا أنه يقف إلى جانب الشرعية والسلام. "...ويختم خطابه لملك فرنسا بهذه العبارة : فإن أصابكم ما غيَّر خاطركم من قبل الملك المذكور أو غيَّر خاطره من قبلكم فنحن نضمن لكم زوال ذلك حتى تعود المودة على أكمل ما تقر به العيون...[2]"

ومن الطريف أن نقف في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي = نهاية القرن السابع الهجري أو آخر أيام السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق على جرد للجهات التي كانت تأتي منها البضائع الأجنبية التي تباع في أرض فلاندر (FLANDRE) أواخر القرن الثالث عشر.

فمن مدينة فاس بإفريقيا يأتي الشمع والجلد والفراء... ومن إقليم سجلماسة التمور والشب الأبيض، ومن المملكة المغربية الكمون والسكر...

---

1) أتى زميلنا الراحل السفير خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام على صورة لها عرضاً عند ترجمة القاضي عبد الحميد بن أبي البركات الصدقي، راجع النص الكامل للرسالة في التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7، ص 189 وما بعدها.

2) التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7، ص 192/191/190.



2 . حب 681

نص الظهير الذي أصدره السلطان أبو الحسن للقيام بالمساعي الحميدة بين ملك فرنسا وملك إسبانيا 1280=681 بالرغم من أن المغرب يخالف الملكين المذكورين في العقيدة، وأنه كان في حالة حرب قشتالة!

وبالرغم من الظروف القاسية التي كانت تعيشها المملكة المغربية في الدور الثاني لأيام بني مرين والتي كانت تصادف أيضا أيام فرنسا في حرب المائة سنة فقد سجل التاريخ عددا من الزيارات التي كان يقوم بها بعض النورمانديين إلى الديار المغربية على عهد السلطان المريني أبي العباس[1] بن أبي سالم (789=1387-1393).

وقد شهدت 804=1402 أيام السلطان أبي سعيد الثاني وفادة وردت على مدينة فاس العاصمة تتألف من طائفة من الفرنسيين ومعهم عدد من القشتاليين من أجل تسلم مائتين وخمسين أسيراً وأفق المغرب على تحريرهم.

وبعد بضع سنواتٍ من التاريخ المذكور وبالذات في سنة 813=1411 تدخل العاهل المغربي من أجل إنقاذ حياة أحد الباريزيين يحمل إسم سيفيران (Séverin) كان على وشك أن يشنق في أعقاب متابعة...

شارل السابع ملك فرنسا والمملكة المغربية

وعلى عهد السلطان عبد الحق بن أبي سعيد آخر ملوك بني مرين وفي سنواته الأخيرة حوالي سنة 860=1456 بعث شارل السابع إلى ملك فاس برسالة وردت مع الباخرة التي تحمل إسم (Notre Dame et Saint-Jacques) مع أحد أهل مونبيليي : بيرنارد دوفو (Bernard de Vaux) الذي غادر بها ميناء إيك مورط (Iques-Mortes) في نيم (Nîmes).

لقد أعرب ملك فرنسا للعاهل المغربي المذكور عن نيته في عقد علاقات إقتصادية مع المغرب وطلب إليه أن يساعد على إستقبال السفن التي يبعث بها وأن يضمن لها السلامة والأمن بالنسبة إليها وبالفرنسيين الذين يرحلون معها، وتعهد ملك فرنسا بدوره بنفس الالتزامات التي اقترحها على ملك المغرب وقد قال شارل السابع على الخصوص :

1) Pierre de Cenival : Les Relation Commerciales de France avec Le maroc au XVe Siècle, in Revue d'histoire des colonies 1932, N. 5 P. 453/454.

إن ما أنعم الله به على خلقه من مختلف النعم دعانا إلى أن نفكر في إيصال هذه الخيرات إلى شتى الجهات، ولهذا قررنا أن نبعث ببواخرنا إى الموانئ الشرقية والجنوبية لتمارس التجارة بمعونة الله القادر على كل شيء، ولهذا نلتمس منكم ونترجاكم بإلحاح أن تقدموا لنا يد المساعدة باستقبال هذه السفن بعناية وتكريم، وكذلك ركابها وملاحوها بحيث يتمتع الجميع بحصانتكم وحمايتكم على نحو ما نتعهد به نحن بالنسبة للسفن والتجار والملاحين (المغاربة) عندما يتجهون نحو أراضينا[1]..."

علاقات المغرب بميورقة

إحتفظ لنا أرشيف المكتبة الوطنية بباريز : ملف ميورقة بنص الاتفاقية الهامة التي أبرمت في مدينة تلمسان يوم 15 أبريل 1339= 5 شوال 739 ، إتفاقية للسلام والتجارة، لفترة عشر سنوات بين جاك الثاني ملك ميورقة، كونط روسيون وسردينية، سيد مونبوليي من جهة، وبين السلطان أبي الحسن عليّ ملك المغرب الذي كان، وقتها، يقيم بتلمسان... وقد تمت الاتفاقية وذلك بواسطة وعناية السفير أماليك دوناربون (Amalric de Narbonne) ومبعوثين آخرين عن ملك ميورقة هما : دالماس دوكاسطيلنو (D. de Castelnau) وثانيهما هيكيسس دوطوطزو (H. dc Totzo).

وقد حررت هذه المعاهدة باللغة العربية التي كتبت على رق الغزال، في عمود على اليمين وباللغة الكاطلانية التي كتبت في عمود اليسار، وقد ختم النص العربي بالتوقيعات والاختام كذلك... كما أن النص الكاطلاني ختم بتوقيعات وأختام الذين فاوضوا حول الاتفاقية وللشهود عليها كذلك ...

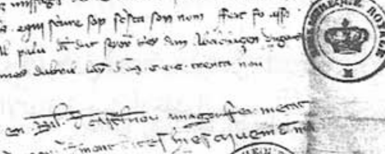
ومن المهم أن نؤكد إلى أن السلطان أبا الحسن كان يتوفر -علاوة على العلامة المعروفة التي دأب على استعمالها ملوك بني مرين- كان يتوفر على طابع، هو الذي يوجد أسفل الاتفاقية، إلا

1) المصدر السابق بيير دوسونيفال ...

اتفاقية للسلام والتجارة وقعت بإحدى قواعد المغرب: تلمسان يوم 5 شوال 739=16 أبريل 1939 أبرمت لمدة عشر سنوات بين جاك الثاني ملك ميورقة، كونط روسّيُّون وسيردَاني، سيد مونبوليي، وبين السلطان أبي الحسن ملك المغرب بواسطة وعناية "أماريك دُونارْبون" وعدد من مبعوثي ملك ميورقة، وتعتبر أقدم اتفاقية أبرمها العاهل المغربي أبو الحسن مع الممالك المسيحية، وهي تهدف إلى التعاوُن بين المغرب وبين حكام ساحل الحوض المتوسط في مجال الملاحة البحرية كما تهدف إلى تحديد المواد التي يؤذَن بالاتجار فيها وفق ما جرت به العادة في «**سالف الزمن**» على حد تعبير الاتفاقية المذكورة.

عن الأصل المكتوب بالعربي والكاطالاني، المكتبة الملكية باريز (صندوق ميورقة)

وقد أورد دوماص لاتري في كتابه : «معاهدات بين المسيحية والعرب في العصور الوسطى 1866» ترجمتها إلى الإيطالية والفرنسية ص 192-195.



أنني لم أتمكن من قراءة ما كان يحتوي عليه الطابع من كلمات بالرغم من وقوفي على عين الاتفاقية المذكورة[1]

وبعد أن تعرف الاتفاقية المذكورة بالذين حضروا إبرامها تؤكد أن مفعولها يستمر طوال عشر سنين شمسية أولها ماية الوشيك الحلول... وتنص على أن حرية التنقل بين الدولتين مضمونة، وعلى أن التعاون في المجال البحري وحماية الأساطيل بين الجهتين كل ذلك مامون، كما تنص الإتفاقية على حظر وسق الموادَ الاستراتيجية من المغرب وما عداها مباح على ما هو معروف في سالف الأزمان، ومن المهم أن نذكر أن هذه الاتفاقية تنص على تحريم القرصلة[2] وترويع المسافرين من الجانبين ... وأخيرا يلنزم الطرفان بإعلان هذا الإتفاق الإعلان التام حتى تعرف مضامينه من الجميع... ومن الطريف أن نجد التاريخ الهجري للاتفاق يحتوي على مقابله بالتاريخ العجمي...

---

1) يظهر لي أن الطابع والختم المتحدث عنه كان عبارة عن قطعة صغيرة من الجلد في شبه دائرة لكن سيورا أربعة صغيرة تتصل بها، هي التي وضعت في آخر الاتفاقية حيث أدخلت السيور المذكورة في ثقاب لتنفذ من الجهة الخلفية وتثبت.

2) هكذا ترسم كلمة "القرصلة" باللام عوض النون في سائر الوثائق الدبلوماسية المغربية القديمة ج قرصال والمصدر قرصلة) وهي كذلك باللام في الأصل اللاتيني، ومن هنا ساغ لي أن أكتب إلى المجامع العربية التي أنتسب إليها في بغداد، ومصر وعمان والمغرب ودمشق، حول هذا المصطلح مقترحاً عرضه على اللجان المتخصصة بالألفاظ الحضارية.

الفصل السابع

العلاقات بين المغرب والمشرق

- سفارات وخطابات متبادلة
- دور ركب الحج في دعم العلاقات
- علاقات أشراف المشرق بالمغرب
- تبادل المعلومات حول القضايا ذات الاهتمام المشترك
- مذكرات ابن بطوطة عن الديار المشرقية
- حج الأميرة المغربية مريم وما صاحبها من هدايا
- صدى كائنة طريف وسقوط الجزيرة الخضراء في المشرق
- الرايس إبراهيم التازي يحرر الإسكندرية
- المغرب وظهور الدولة العثمانية

العلاقات بين المغرب والمشرق

لقد كانت الصلات في الواقع بين ملوك بني مرين وملوك الديار الشرقية امتداداً لما كان عليه الحال في عهد الموحدين، وهكذا فقد استأثر كل بناحيته مكتفياً بها عن التطلع لما عند غيره، واستمر -مع ذلك- تبادل السفارات واستمزاج الرأي بين جناحي العالم الإسلامي حول المشاكل الطارئة.

وقد كان في صدر السفارات التي وردت على المغرب منذ فجر أيام بني مرين، تلك التي بعث بها صاحب الديار المصرية والشامية و"محيي الدولة العباسية" الملك المنصور قلاوون إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وكانت برئاسة الأمير قلج[1]، وكان الهدف منها توسيط ملك المغرب بين مملكة مصر ومملكة الفرنج في أمر يتعلق بالمشاكل التي تثيرها الملاحة في البحر المتوسط... وهكذا فقد أرسل قلاوون رسلا إلى الفونش صاحب إشبيلية سنة 682=1283 فوجدوه مشتبكاً في حرب مع ابنه حيث ضجر الرسل من طول الإقامة واشتكوا إلى ملك المغرب أبي يوسف الذي بعث رسولاً لملك قشتالة يقول فيها :

---

1) قلج أو كلج بالتركية تعني سيف يعني سيف الدين، وقد نعت بالمنصوري نسبة للمنصور بن قلاوون وقد حرفت بعض المصادر إسمه إلى فليج أو مليج... مخطوطة للشيخ الطيب بن كيران على ألفية العراقي في السيرة : شرح على الدرة السنية في نظم السيرة النبوية، الخزانة العامة، الرباط، رقم 2992.

هؤلاء حضروا من جهة سلطان عظيم وملك كريم ... فإما أنك تجهزهم ويرجعون وإما أنك تسيرهم إلي وأنا أجهزهم وأحمل هذه الخدمة عنك إلى آخر الخبر.

ولعل لهذه السفارة علاقةً بالسفارة التي تحدث ابن حجر عنها عندما نقل عن السفير المصري قوله : أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الأفرنج في شفاعةٍ فقبلها.[1]

وقد توالت السفارات المتبادلة فيما بين ملك المغرب وملك مصر والشام ابتداء من مطلع القرن الثامن الهجري، وهكذا توجهت سفارة مغربية عام 700=1301 من السلطان أبي يعقوب إلى أبي الفتح الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون كانت برئاسة وزير مغربي اجتمع بالناصر.

وقد ذكر القلقشندي (821=1418) وصول هذه السفارة، ونقل أن السفير المغربي لاحظ أن الحكام بالمشرق يخالفون الشرع بمبالغتهم في تدليل النصارى بالديار المصرية ! وأن الأمر في المغرب يختلف عنه في المشرق ... فإنهم عندنا لا يعملون في الدواوين الحكومية !!

وقد ذكر ابن إياس (930=1594) أن ذلك المغربي لما دخل على السلطان وفاوضه في أن يغير زي أهل الذمة في بلاده، أجابه الملك الناصر إلى ذلك وأمر بإشهار النداء في القاهرة : أن اليهود يلبسون العمائم الصفر والنصارى العمائم الزرق[2]...

---

1) تشريف الأنام والعصور لابن عبد الظاهر، تحقيق مراد كامل، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1969، ص 112-114 حمادة : الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا ج/، مؤسسة الرسالة 1400=1980 ص 449-550.

2) ذكر إبن إياس أن السبب في ذلك يرجع لكون المغربي كان جالسا بباب القلعة فدخل عليه بعض كتاب الديوان وهو بعمامة بيضاء فقام إليه ذلك المغربي وبالغ في تعظيمه ظانا أنه مسلم فتبين له أنه من النصارى !

وقد كانت توجهت سفارة من بلاد المغرب تحمل رسائل مؤرخة في آخر ربيع الأول عام 701= دجنبر 1301 إلى بلاد المشرق تبشر بامتلاك الجزيرة الخضراء : باب الأندلس، وقد كانت من إنشاء لسان الدين ابن الخطيب الذي حرر رسالة مماثلة إلى صاحب مكة الشريف أبي نُمَي الأول[1].

وقد شهدت البلاد المشرقية عام 703=1304 سفارة مغربية هامة كانت برئاسة القاضي محمد بن زغبوش والعلامة أبي عبد الله القصار وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اليقُّوري.[2]

ويتعلق الأمر بالركب الذي بعثه السلطان يوسف بن يعقوب أثناء حصاره لتلمسان إلى الحرمين الشريفين وعهد إليه في نفس الوقت بتأدية مخاطبات لصاحب الديار المصرية على عهده الملك الناصر محمد بن قلاوون ...

وقد إعتنى العاهل المغربي بشأن هذا الركب فبعث معه حامية من زناتة تناهز خمسمائة من الأبطال وخاطب الملك الناصر مستوصياً إياه بحجاج أهل المغرب، وأتحفه بهدية استكثر فيها من الخيل العراب والمطايا الفارهة بلغت على ما قيل إلى أربعمائة ! إلى غير ذلك مما يناسب من طرَف المغرب وتحفه، وقد بعث معهم إلى حرم مكة مصحفاً عظيماً إعتنى به واستكتبه وجعل له غشاءً مكللا بنفيس الدّرر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار، نمقه أحمد بن حسن على ما يقول ابن خلدون، وقد دشن السلطان يوسف بهذا الركب وهذه الهدية السبيل لركب الحاج الذي كان تعثر بسبب الفتن القائمة في المنطقة.

ومن هنا أقبل الناس على الحج سنة 704=1304 فاجتمع عدد وافر وركبٌ ضخمٌ عقد فيه السلطان يوسف على دلالتهم لأبي زيد الغفائري وأبي الحسن التنسي، وأرسل ضمن الركب المذكور سفارةً برئاسة أي دوغدى [3] الشهرزوري، وفصلوا عن تلمسان في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وفي شهر ربيع الآخر عاد حجاج الركب الأول الذين كانوا حملوا المصحف والهدية...

---

1) (Correp Diplomatica p.336) الاستقصا ج 3، ص 84/83، د. علي الوردي لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ملحق الجزء السادس بغداد 1979، ص 26 -ابن خلدون : العبر، 469.

2) العبر 7، 467 - نفح الطيب 2، 53، دعوة مارس 1965.

3) أي دوغدي : كلمة تركية مركبة من أي بمعنى قمر، دوغدي بمعنى ميلاد، أي ميلاد القمر، وقد رسمت في كتب التاريخ القديمة هكذا أيد غدى - العبر 5، 903-904.

وقد وفد على السلطان السيد لبيدة بن أبي نُمى نازعاً عن صاحب مصر هذا لما كان قد قبض على أخويه حميضة ورميثة بعد مهلك أبيهم أبي نمى الأول صاحب مكة فاستبلغ السلطان يوسف في إكرام الوفد المكي والتنويه بقدره وأمر بتنظيم جولة سياحية لشريف مكة والوفد المرافق له فقاموا بالتنزه في أطراف المغرب والطواف على معالم المملكة وقصور بني مرين، وقد تبارى عمال الأقاليم المغربية في البرور بالضيف والعناية به وإتحافه بما يناسب قدره.

وبعد انتهاء زيارته للمغرب رجع شريف مكة إلى حضرة السلطان بتلمسان سنة 705=1305 ثم فصل منها إلى بلاده.

وفي شعبان من هذه السنة 705= يبراير –مارس 1306، عاد أبو زيد الغفائري وأبو الحسن التِّنسي دليلا ركب الحاج الماضي يحملان معهما بيعة أشراف مكة للسلطان يوسف وكأنهم يؤكدون شكاة مكة بصاحب مصر[1]، لقد كان محتوى بيعتهم –فيما يبدو– على نهج البيعة التي رفعها شريف مكة إلى المستنصر صاحب إفريقية... وقد بعثوا مع البيعة بقطعةٍ من كسوة الكعبة سُرَّ بها السلطان يوسف واتخذ منها ثوبا للبوسه في الجمعة والأعياد كان يستبطنه بين ثيابه تيمناً به.

أما الملك الناصر صاحب مصر فقد أحسن استقبال السفير أي دو غدي الشهر زوري وكافأ السلطان يوسف على هديته بأن جمع من طرف وتحف بلاد المشرق ما يستغرب جنسه وشكله من الثياب والحيوانات الأليفة: (الفيل والزرافة)، وأوفد مع هذه الهدايا بطائفة من عظماء دولته كان على رأسهم أميران يحملان نفس لقب (أي دوغدي): هما أي دوغدي التليلي الشمسي، وأي دوغدي الخوارزمي... وذلك ليمحوا ما قد تكون خلفته زيارة أشراف مكة[1] وبيعتهم من آثار في نفس العاهل المغربي! وفصلوا من القاهرة آخر سنة 705=1306 فوصلوا في جمادى الأخيرة سنة 706=1306 إلى السلطان يوسف وهو في المغرب الأوسط بمدينة (المنصورة) التي شيدها

1) لم تكن العلاقات بين الحكام وبين الأشراف في المشرق على ما ينبغي دائماً، ولهذا نلاحظ أنه – بعد فرار الأدارسة من نقمة العباسيين– التجأ بعض أشراف ينبع إلى المغرب، عقب صدام بينهم وبين الأيوبيين أواسط القرن السابع بينما رأينا آخرين يلجأون كذلك للمغرب لينصفهم من المماليك... د. التازي: يَنْبُع في المصادر المغربية قيد الطبع.

سنة 702=1303 فاهتز السلطان لقدومهم وأركب الناس للقياهم وأكرم وفادتهم وبعثهم إلى المغرب للتجول بنواحيه على نحو ما فعل بأشراف مكة...

وقد حملت هذه السفارة بالإضافة إلى الهدية السنية، المشار إليها آنفا، جملة من مغانم الملك الناصر التي أحرز عليها في المعارك التي كانت له مع التتار بظاهر دمشق سنة 702=1303 وذلك إشهاراً بأمر الفتح، وقد كان في جملة تلك الهدايا عشرون كديشاً من كدش[1] التتار وعشرون أسيرا منهم وطائفة من طبولهم وقِسيهم على نحو ما رأينا من ملوك المغرب عندما كانوا يبعثون إلى أمير المدينة النبوية وإلى الأمير عجلان سلطان مكة بوفادات مصحوبة بعدد من "النواقيس" المقتلعة من الكنائس، وكل ما تأتي حمله وأمكن نقله "حتى تعرض بمجتمع تلك الوفود تذكرة تستدعي الإمداد بالدعاء[2]."

وقد أدركت السلطان يوسف بن يعقوب منيته سنة 706=1307 والوفد المصري بالمغرب، فأمضى الأمر إلى حفيده السلطان أبي ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف فأحسن منقلبهم وملأ حقائبهم وفصلوا من المغرب إلى بلادهم في ذي الحجة من سنة 707= يونيه 1308 وقد خلصوا إلى مصر... ومن هنا استمر إيفاد رجال الدولة بانتظام لبلاد المشرق حيث ظلو يتبادلون المخاطبات والمهاداة والمكافآت[3].

ولا بد أن نذكّر قبل المضيّ في الحديث عن العلاقات الرسمية بين ملوك المغرب وملوك مصر، نذكر بالرحالة المغربي العظيم ابن بطوطة الذي كتب عن مصر ومفاتن مصر ومعالمها ورجالها منذ أن وطئت قدماه تلك الديار عام 725=1325 إلى أن مر بها عائدا إلى بلاده عام 749=1348 بعد أن شاهدت عدداً من الوفادات والسفارات[4].

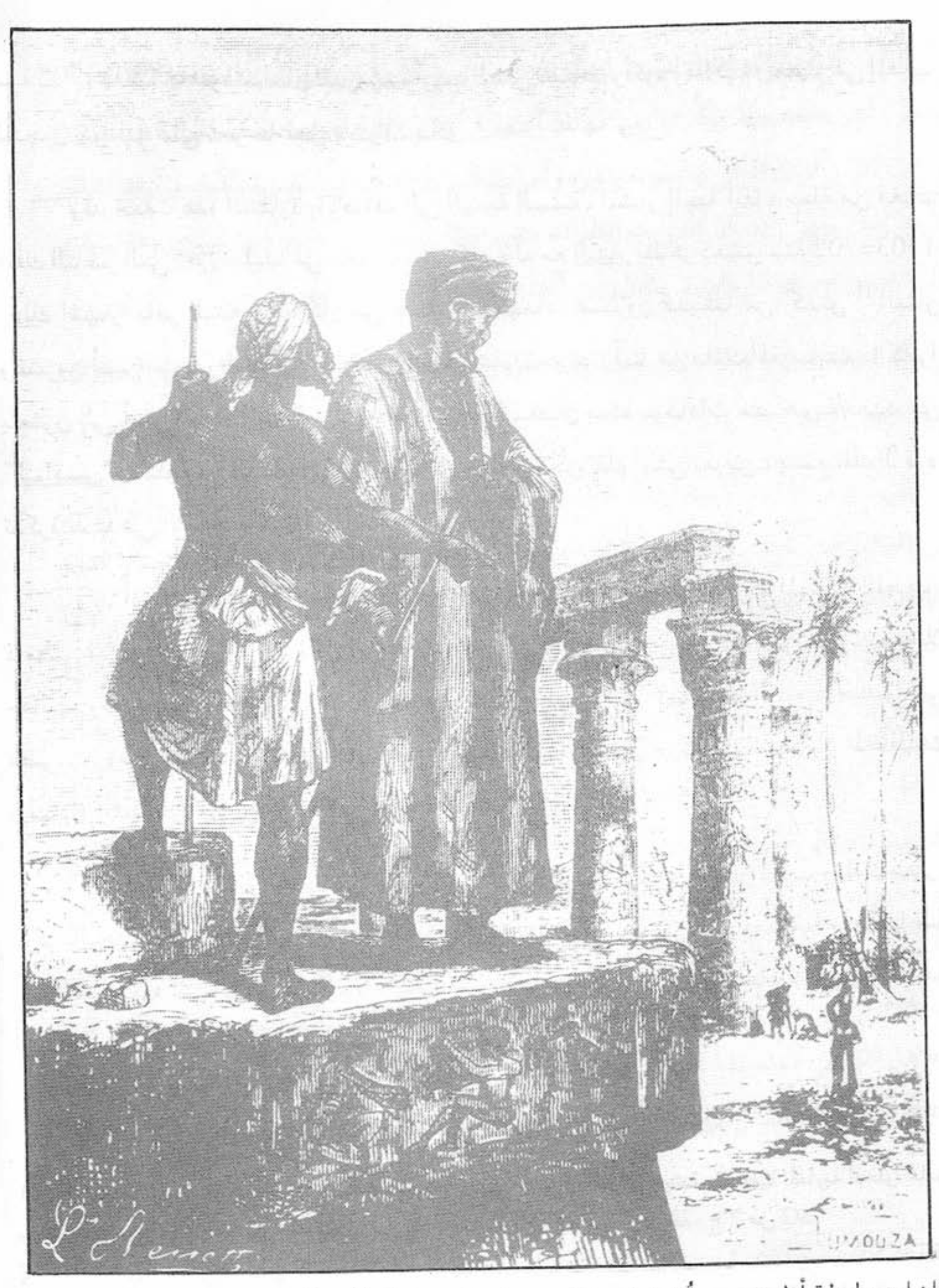
---

1) الكديش من الخيل خلاف الجواد، كلمة عامية وتجمع على كدش، والمؤنث كديشة ولما نقلها المغاربة أدخلوا عليها ما تقتضيه عاميتهم أيضا فقالوا أكديش بإضافة الهمزة أولها. رحلة ابن بطوطة، ج 2 ص 3/2.

2) القلقشندي : الصبح 7، ص 55/54/48/47.

3) د. التازي : بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية، محاضرة ألقيت في مؤتمر بلاد الشام (عمان من 20 إلى 25 أبريل 1974) تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية 1974.

4) د. التازي : رحلة ابن بطوطة ج 1 ، 28 ج 4 ص 320.



كان ابن بطوطة أول مغربي أخذت له عدة رسوم ولوحات بمختلف المدن الصينية بمناسبة زيارته لها عام 747=1346. وإذا فاتنا الحصول على تلك الصور، فإنه لا يفوتنا أن نقدم هنا رسماً من عمل ليون بينيط (Léon Benett) من القرن التاسع عشر يتخيل ابن بطوطة مع آثار مصر.
الرسم من أرشيف روجي فيولي (Roger-Viollet) بباريز، الإذن رقم 778 بتاريخ 1994/4/11.

تبادل المعلومات بين ملوك المغرب والمشرق

واستمراراً على السير في الخط الذي سار عليه السلطان أبو يعقوب يوسف وحفيده أبو ثابت عامر بن عبد الله. والسلطان أبو سعيد عثمان ... نجد السلطان أبا الحسن يرسل كذلك - بعد استرجاعه لبجاية وتلمسان عام 737=1337 وارتفاع العوائق عن ركب الحاج سفارةً كانت في الواقع جواباً على وفادة وردت لتجديد عهد المودة والصداقة من الملك الناصر محمد بن قلاوون لملك المغرب وكانت برئاسة الوزير أبي عبد الله محمد بن الجراح.

وقد كانت البعثة المغربية برئاسة الوزير أبي زيان فارس بن ميمون بن وُدْرار الذي حمل رسالة من العاهل المغربي زف فيها مشاعر الود لملك مصر والشام والحجاز[1].

وقد تضمنت الرسالة المغربية إخبار الملك الناصر بما كان قر عليه عزم الأميرة والدة السلطان أبي الحسن من أداء مناسك الحج لولا مفاجأة الأجل لها، وأنه سينوب عنها "من يقوم مقامها"[2] وبالإضافة إلى هذه الافتتاحية فإن العاهل المغربي لم يتردد في إخبار الملك الناصر بما حققه بلاد المغرب من أعمال كان على رأسها قمع حركة العاق الذي قتل والده في تلمسان... بعد أن طلبت تونس النجدة.. حيث تزامنت هذه الحركة مع استغاثة أهل الأندلس... إن العاهل المغربي يحمد الله على أن نصره على "معدن الفسوق وموطن العقوق ومقطن إضاعة الحقوق...!".

ثم يقدم له أخباراً عن تدخله لتحرير جبل طارق ونجدة الأندلس ثم عن التمرد الذي قام به أخوه في سجلماسة بإيعازٍ وتحريضٍ من صاحب تلمسان ! وتختتم الرسالة بالإعراب عن الإرتياح من عودة الأمن إلى المغرب الأوسط وتمكن الحجاج من آخذ طريقهم إلى المشرق.[3]

---

1) ترجمة وُدْرار توجد في المقدمة التي جعلنا لرحلة ابن بطوطة باعتباره الشخصية التي أنصفت ابن بطوطة في مصداقية رحلته - أنظر المجلد الأول من التحقيق الذي نشرته أكاديمية المملكة المغربية ص 78 رقم الإيداع القانوني 1997/321.

2) كانت الأميرة مريم حظية السلطان أبي سعيد الأول هي التي نابت على ما سنرى ...

3) القلقشندي : الصبح ج 8، ص 87.

وقد عاد الوزير ابن وُدْرار من مهمته صحبة سفارة مشرقية تؤكد اعتماد قادة المشرق دائما على صداقة ملوك المغرب، وكانت السفارة تتألف في جملة من تتألف منه : من الشيخين الأجلين أبي محمد عبد الله بن صالح، والحاج محمد بن أبي لمحان، وقد حملت هذه السفارة رسالةً تستفتح بعد البسملة بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعْساً لهم وأظل أعمالهم) ثم بعد الديباجة المعهودة من الألقاب الملكية والدعاء، تتضمن الرسالة أولاً تقرير ما كان أخبره به العاهل المغربي من وفاة والدته، وقمع حركة تمرد أخيه، وتدخله لاسترجاع تلمسان، وتحرير جبل طارق ... وتتخلص من هذا لإحاطة السلطان أبي الحسن علما بتحركاته هو كذلك في البلاد الشامية لصد العدوان الصليبي وتحرير قلعة إياس وخمس عشرة قلعة أخرى وما أدى إليه التدخل من فرض الاستسلام على خصوم الإسلام...[1]

الأميرة مريم في المشرق...

وقد تبعت تلك السفارة سفارة أخرى رمضان سنة 738= مارس 1338 قدمت على ملك مصر والشام كانت تتألف في جملة من تتألف منه -علاوة على الحرة مريم- من "رسوله الشيخ الخطيب البليغ أبي إسحاق إبراهيم بن الشيخ أبي زيد عبد الرحمن ابن أبي يحيى التازي".

ومن الحاجب أبي زيان عريف بن الشيخ أبي زكرياء يحيى السويدي أمير بني زغبة، وعطية بن مهلهل بن يحيى، ومن الكاتب أبي الفضل ابن أبي عبد الله بن أبي مدين والشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وقد حملت هذه السفارة مصحفاً خصصه لحرم المدينة -على نحو ما كان فعله يوسف سنة 703 بحرم مكة، لكن هذا المصحف نسخه العاهل أبو الحسن بيده وجمع الوراقين لتنميقه وتذهيبه وأحضر القراء لضبطه وتهذيبه وصنع له ظرفا من الأبنوس والعاج والصندل بفائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب ورصّع بالجوهر والياقوت واتخذت له أصونة الجلد المحكمة المرقوم أديمها بخطوط الذهب ومن فوقها أغلقة الحرير والديباج وأغشية الكتان، وقد أخرج من خزائنه الأموال التي عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء في المصحف...

1) القلقشندي : الصبح ج 8، ص 102.

وبهذه المناسبة بعث السلطان أبو الحسن برسالة إلى الملك الناصر تتضمن تأكيد العواطف التي يكنها السلطان أبو الحسن لأخيه الملك الناصر، كما تتضمن تقديم ركب الحاج لهذه السنة، وبخاصة أعضاء البعثة التي كانت تشرف على الرحلة بمن فيها من "الخاصة" والزعماء والفرسان، كما تتضمن التوصية بالوفادة خيراً حتى تؤدى واجباتها... ثم تؤكد الرسالة المرينية ورود كتابين حملهما إلى المغرب الشيخان ابن صالح وابن أبي لمحان، وآن العاهل المغربي " أمضى حكمهما وأجرى رسمهما"...

وقد تضمنت الرسالة الجوابية الناصرية للمغرب -علاوةً على تقرير الرسالة المغربية السابقة -الإخبار بما لقيته الوفادة المغربية من تكريم وتبجيل منذ حلولها على ملك مصر والشام والحجار، لقد اتخذ ملك مصر سائر التدابير اللازمة لتوفير الراحة للحجاج الواردين، وأنه كتب لسائر العمال ويشير للمصحف الفريد الذي انتسخه السلطان أبو الحسن لمسجد الحرم المدني، ويلاحظ أن هذا الجواب طيّر للمغرب فور مرور الوفد المغربي بمصر وقبل أن يعود ركب الحاج من مناسكه، الأمر الذي يدل على مزيد العناية والاهتمام، ويختتم الجواب بالإعراب عن الأماني في أن يتمكن العاهل المغربي من القيام إستقبالاً بأداء تلك المناسك.[1]

وقد تحدث الناس دهراً - على حد تعبير ابن خلدون- بالهدايا المتنوعة التي بعث بها السلطان أبو الحسن صحبة هذه السفارة التي كانت الأميرة مريم، حظية والد السلطان أبي الحسن، على رأسها ركبها : لقد احتوت الهدايا خمسمائة من عتاق الخيل المحلاة بسروج الذهب والفضة واللجم المموهة والمغشاة، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثياباً وأكسية وبرانس وعمائم وأزراً معلمة وغير معلمة ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب الصافي والملون الساذج والمنمق، ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ، المنسوبة إلى اللّمط، ومن خرّثى المغرب وما عونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت !.

وقد فصل ابن مرزوق بعض ما أجمله ابن خلدون في أمر هذه الهدية.[2]

---

1) القلقشندي : صبح الأعشى ج 7، ص 389.

2) المسند لابن مرزوق ... ص 367 - الصبح 8، 102 - الاستقصا 3، 127.

وإضافة إلى هذا زود العاهل الأميرة مريم بثلاثة آلاف وستمائة دينار ذهباً، وأعطى لقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة، ولقائد الركب أربعمائة، وأعطى للرسول المعين للهدية ألفا، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة ولجماعة الضعفاء ستمائة، وقدم للعرب برسم العطاء ثلاثة آلاف وخمسمائة، وخصص لشراء الرباع في البقاع المقدسة ستة عشر ألفا وخمسمائة ذهباً.

لقد كان المغاربة اعتادوا أن يقتنوا الأرضين والرباع بتلك الديار يحبسونها على العُباد والنساك والمجاهدين والمرابطين...

ويذكر المقريزي أن الملك الناصر أنزل لحمل الهدية، من الأسطول المغربي، ثلاثين قطارا من بغال النقل سوى الجمال، وكان من جملة الهدية إثنان وثلاثون بازا، إلى آخر اللائحة الطويلة العريضة... وقد قدرت قيمة الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار ! وقد أنزل الركب بالقرافة قرب مسجد الفتح بينما نقلت الأميرة إلى مكان آخر بمن معها حيث رتب لحاشيتها من الغنم والدجاج والسكر والحلواء والفاكهة في كل يوم، بكرة وعشية، ما يكفي بل ويزيد عن الحاجة[1]...

وقد أجاب الملك الناصر محمد بن قلاوون عاهل المغرب بهدايا رفيعة ثمينة كان فيها علاوة على ثياب الاسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، الخيْمتان الشاميتان اللتان كانتا مثار إعجاب زائد من سلطان المغرب. ويتعلق الأمر بخيمة عظيمة على تصميم قصر فخم تشتمل على بيوت للمرافد وأواوين للجلوس وأماكن للطبخ، وأبراج للإشراف على الطرقات وردهات عديدة فيها واحدة لجلوس السلطان للعرض، وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده ومئذنته، وحوائط الخيمة كلها من خرق الكتاب الموصولة بحبك الخياطة، مفصلة على الأشكال التي يريدها المتخذون لها.. أما الخيمة الشامية الثانية فهي على شكل مستدير الشكل عالية السمك، مخروطة الرأس، رحبة الفناء، وهي تظل أزيد من خمسمائة فارس[2]...

---

1) د. التازي : ألفاظ الحضارة في الوثائق العربية ذات الطابع الدولي، مجلة اللغة العربية، القاهرة، الجزء 64، مايه 1989.

2) الاستقصا 3، 130، تراجع التفصيلات في كتاب الإحاطة، المجلد 4 ص 323.

تجدد المراسلات حول القضايا السياسية المستجدة

وقد كانت الأحداث الخطيرة التي جدت بالأندلس بين ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة وبين أبي الحسن المريني ملك المغرب موضوعاً لمكاتبات سياسية بين بلاط فاس وبلاط مصر والشام.

وهكذا كتب السلطان أبو الحسن بتاريخ 26 صفر 745= يوليه 1344 في أعقاب نكسته أمام جيوش قشتالة إلى "محل ولدنا" الملك الصالح أبي الفداء إسماعيل بن السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون... يعزيه في والده الملك الناصر وينوه بما كان بينه وبين والد السلطان ويهنئه بالجلوس على كرسي الحكم، وبعد الإشارة إلى المصحفيْن الشريفين المقدمين إلى كل من المدينة ومكة [1]، يُقدم السفير الجديد الذي يحمل هذا الكتاب وهو أبو المجد ابن عبد الله ابن أبي مدْين الذي عهد إليه أيضاً بتفقد الأوقاف المغربية المحبسة على صيانة المصحفين اللذين يتلى فيهما كتاب الله عز وجل.

وبعد ذلك يبسط له ما وقع من استغاثة أهل الأندلس به وإعداده الأساطيل لقتال النصارى، ثم مفاجأة النصارى لسفنه في البحر بأساطيل قوية وإتلاف سبع وستين قطعة من الأسطول المغربي وزحف النصارى على الجزيرة الخضراء ومحاولة استرجاعها... ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال، واستطالة الحرب ونفاذ الأقوات واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة الخضراء، وما فتح الله به قبل ذلك من أخذ جبل طارق، وأنه ما زال يتأهب للجهاد بعد عودته[2]...

وقد أجاب ملك مصر والشام أبو الوليد إسماعيل على كتاب السلطان أبي الحسن برسالةٍ أخرى تحمل تاريخ 6 رمضان 745=11 يناير 1345 يشكره فيها على مواساته بفقد الوالد كما

---

1) يتأكد أن السلطان أبا الحسن اقتداء بالسلطان أبي يعقوب يوسف الذي كان أهدى مصحفا شريفا إلى حرم مكة عام 703 بخط ابن حسني -قام بانتساخ مصحفين عظيمين بعث أولهما للمدينة، وهو المصحف الذي كان بشالة وبعث ثانيهما لمكة، وإلى هذين تشير هذه الرسالة منه إلى الناصر... ثم في أعقاب هذا خصص مصحفه الثالث للمسجد الأقصى والرابع للمقام الخليلي...

2) يذكر المقري أن هذا الكتاب إنما وصل إلى مصر في النصف الأخير من شعبان من السنة 745، وهكذا تكون الرسالة ظلت منتظرة خروج الموكب الحجازي، النفح 4، 386 - الاستقصا ... 3، 146/145/144/143/142/141/ 140.

بسم الله الرحمن الرحيم



رسالة أبي الحسن بتاريخ 26 صفر 745 وجواب أبي الوليد بتاريخ 6 رمضان 745 (نسخ خاصة) عن محاضرة د. التازي في المجمع العلمي المصري 5 محرم 1421 =10 أبريل 2000 حول "العلاقات المغربية المصرية بين الأمس واليوم"

يشكره على التهنئة بالجلوس على دست الحكم ويطمّنه على المهمة التي ورد من أجلها السفير أبو المجد ثم يبدي أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ويعزيه في النّكبة التي حلت بقطع الأسطول المغربي، ويقول له : إن الحرب سجال، وإنه ما دام العاهل المغربي قد سلم فإن النصر معقود له في مرة قابلة ويبدي الملك الصالح أبو الوليد إغتباطه لاستيلاء العاهل المغربي على جبل طارق.[1]

العلاقات المغربية المشرقية بعد السلطان أبي الحسن...

وبعد السلطان أبي الحسن نرى أن السلطان أبا عنان يبعث سنة 756=1355 بالقاضي أبي القاسم محمد الغاني البرجي الغرناطي إلى ملوك مصر والشام أيام السلطان أبي المحاسن الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون[2]، وكان من ضمن المهمة تأدية رسالة نثرية شعرية للضريح النبوي على نحو ما جرت به العادة أنذاك تخبر الجناب النبوي بما يقوم به العاهل المغربي على ساحة الجهاد مما يحرمه من زيارة ضريح النبي الكريم... إضافة إلى هذا تتصل البعثة بالجهات الرسمية، وتجلب طائفةً من طرف الشرق وتحفه ومتاعه للسلطان أبي عنان الذي كان صيته ذاع في مصر والشام والحجاز والعراق.

وتحدث ابن الخطيب في نفاضة الجراب عن وصول غُراب إلى سبتة كان توجه إلى الإسكندرية أخريات أيام أبي عنان محمولاً بما اشترى من بضاعة المشرق وطيبه ...

وقد نهج السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن 767-774 نهج أسلافه فكان على اتصال بدولة المماليك وبخاصة بالسلطان الأشرف شعبان (الثاني) بن حسين بن الملك الناصر محمد ابن قلاوون الذي كاتب العاهل المغربي المذكور...

وبالرغم من أن المصادر الشرقية لم تتحدث عن موضوع هذه المكاتبة فإن من المعتقد، عندي، أنها كانت استصراخا من سلطان مصر شعبان بن حسين للعاهل المغربي عبد العزيز في أعقاب الهجوم الذي شنه على الإسكندرية ملك قبرص لوسينيان (Lusignan) عام 797=1365.

1) المقري : نفح الطيب ج 4، ص 394.

2) التعريف بابن خلدون، نشر بن تاويت 248 -ابن الخطيب : الإحاطة ج 2 ص 293، علاقات المغرب بالمشرق، دعوة الحق، عدد أبريل 1968 - الأعلام للزركلي ج 6، 51.

ويدل لي على هذا الاعتقاد ما تكشف عنه الوثائق المصرية ذاتها من وجود شخصية مغربية عسكرية على أرض مصر، تتولى رياسة دار الصناعة بالإسكندرية وتسهم بصفة شخصية وفعالة في ردع المغيرين بل وغزوهم في قبرص ذاتها وأخذها من يدهم...!

ويتعلق الأمر بالرايس إبراهيم التازي الذي يحكي عنه محمد بن قاسم النويري السكندري في مخطوطة (الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية) [1] أنه استُقبل من لدن السلطان الملك الأشرف شعبان وسأله هل ما إذا كان يستطيع فتح قبرص فأجابه الرئيس التازي : نعم بسعادة مولانا السلطان، فقال له : تفتحها بمائة غُراب (يعني بمائة مركب) سريع فقال التازي: بل بغرابين فقط !!

وكان سفره من الإسكندرية يوم الإثنين التاسع والعشرين من رجب سنة تسع وستين وسبعمائة = 20 مارس 1368 ، فلما كان يوم الأربعاء التاسع من شعبان من السنة المذكورة ورد على ميناء الإسكندرية زورق كبير بعثه الرايس إبراهيم التازي غنيمة مسبقة في حين إحتفظ هو بمن كان عليه من القراصنة المسيحيين، في الغرابين اللذين صحباه... ومع الزورق كتاب يطلب فيه التازي أن لا يفرغ المركب إلا بحضور القضاة والعدول ! وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من شعبان سنة تسع وستين وسبعمائة قدم الرايس إبراهيم التازي من جزر الفرنج إلى الاسكندرية بأسارى النصارى... والغرابان موسوقان بالغنائم.. فارتجت الاسكندرية لقدومه وماجت بأهلها ساعةً وروده فخرج أهلها منها إلى موضع منارتها... وأما التُرك القائمون بالإسكندرية لحراستها فإنهم اصطفوا بطول الساحل على ظهور خيولهم ناظرين للغرابين القادمين، وقد ارتفعت عليهما أعلام السلطان بينما كانت أعلام النصارى مكنسة في البحر عائمة يجذف برؤوسها في البحر يميناً ويساراً والمسلمون بالساحل يضجون بالتَّكبير للعلي القدير... ولم تبق مخدَّرةً إلا خرجت من خدرها ولا مصونة إلا برزت من كنّها لينظرن إلى النصارى الأسارى، وكان وصول التازي إلى الميناء ضحى نهار دعي له الصغار والكبار وزغرتت له الأحرار والجوار... إلى آخر نص النويري صاحب الإلمام...

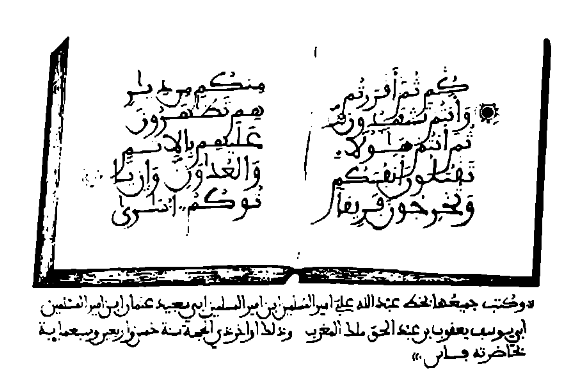
---

1) أورد الدكتور السيد عبد العزيز سالم نص الإلمام المتعلق بالرئيس التازي بكامله في كتابه المفيد الذي صدر ضمن سلسلة : المكتبة التاريخية بعنوان : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، دار المعارف، طبعة ثانية 1969، ص 578 - 600، وأفاد أن المخطوطة تحمل في دار الكتب المصرية رقم 1449...

ويظهر أن أبا فارس بعث في أعقاب هذا النصر إلى ملك مصر يهنيه برفع الضيم عن الثغر المصري، على نحو ما قام به حليفه ملك غرناطة الغني بالله محمد الخامس عندما افتتح ثغر جيان "انتقاماً لهضمة الاسكندرية" على حد تعبير الرسالة الغرناطية...

وفي سنة 793=1391 أيام السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم، وابنه الأمير أبي عامر عبد الله بن أبي العباس تمت مهاداة بينهما وبين الملك الظاهر برقوق 784-801 أول ملوك الجراكسة، وكان ذلك بواسطة الشيخ يوسف بن علي بن غانم شيخ عرب معقل من الجانب المغربي، وقد قدمه للملك برقوق العلامة المعروف ابن خلدون الذي كان آنئذ في مصر، كما تمت المهاداة أيضا بواسطة قطلوبغا [1] مملوك الظاهر برقوق من الجانب المشرقي، فكانت هدية ملك المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية والسيوف المحلاة، وخمسة وثلاثين حملاً من أقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد منتقاة من أحسن الأصناف..

وقد كان هجوم التتر على الشام، في أواخر القرن الثامن الهجري، فرصة أخرى تجلت فيها مشاعر التضامن التلقائي بين المغرب والشام، فقد تطايرت أصداء الأنباء التي خلقها ذلك الهجوم إلى السلطان أبي سعيد الثاني الذي لم يقل اهتمامه عن اهتمام أسلافه بما يجري في الساحة العربية.



«وكتب جميعها بخط عبد الله علي أمير المسلمين ابن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب وفقه الله ... سنة خمس وعشرين وسبعمائة بحاضرته فاس»

1) قطلو (Kothlou) نعت مشهور الاستعمال في آسيا، معناه مبارك ويأتي بعده المنعوت (بوغا) (Boga) مثلا ومعناه الفحل أي الفحل المبارك، يسمون به تفاؤلا حتى يكون صاحبه قوي البنية سليم الجسم، وقد تحدث ابن بطوطة عن أمير خوارزم (قطلو دومور) ويفسره بأنه: الحديد المبارك كما أورد كلمة (قوطنو أيوسين) بمعنى (مبارك قدومك) الضوء اللامع ج 6، 223-العبر7،363/148 التعريف بابن خلدون ص 339-346، الرحلة 3، ص 9.

وقد وصلت أخبار الشام إلى المغرب هذه المرة بواسطة عالم معروف مومو ق هو العلامة ابن خلدون الذي رافق الأمير الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق في منازلته لتيمورلنك بظاهر دمشق الشام سنة 796=1394.

ومن غير أن ندخل في أسباب الفتنة التي حدثت في الشام والتي أدت إلى أختلال الجيش نذكر أن القضاة والفقهاء اتفق رأيهم -بعد عودة السلطان المفاجئة لمصر- على طلب الأمان... وهكذا وجد ابن خلدون نفسه أمام تيمور الذي استقبله بوصفه قاضي المالكية بمصر وكان يرتدي فعلاً زيه المغربي على ما يقول المقري في نفحه[1]... وإظهارا لتكريمه دعاه تيمور لتناول طعام (الرشْتَة)[2] معه، وهو صحن يتقن أهل الشام إلى الآن تحضيره ....

وقد استجاب العلامة المغربي لاقتراح تيمور الذي طلب إليه تقديم المغرب فأعد تقريراً مفصلا عن بلاده وبخاصة طنجة وسبتة وفاس، كما كان دبلوماسيا عندما تقدم ببعض الهدايا لتيمور : مصحفٍ وسجادة ونسخة من بردة الإمام البوصيري التي ولع المغاربة بإنشادها، إضافة إلى أربع علب من حلاوة مصر..!

وقد استطاع بفضل هذه المؤانسات والمكايسات أن يحصل على وفاق تيمور في الإفراج عن أهل دمشق كما استطاع أن يحصل على إذن بالعودة لمصر...

ومن هنا توجه برسالة إلى عاهل المغرب أبي سعيد الثاني يخبره فيها بظروف الحادث ويعرفه بتاريخ التتر ونشأتهم، وبما دار بينه وبين سلطان التتار، ويظهر أن الرسالة كانت جوابا على كتابٍ سابق من العاهل المغربي لابن خلدون، وقد كانت مما تضمنته مذكرات ابن خلدون بقلمه.

1) النفح 2، 521.

2) يقول ابن بطوطة، وكان من المتناولين للرشتة أثناء وجوده في مدينة القرم، إنها الأطرية (نوع من الشعرية) يطبخ ويشرب باللبن، والإسم بالفارسية (Reshté) يعني خيط، ومنه آتت كلمة الشعرية والكلمة معروفة إلى الآن في عدد من البلاد الشرقية، وربما حرفها بعض الليبيين إلى (رشدة) ابن بطوطة 2، 366-480. - التازي : ابن بطوطة في الإتحاد السوڤياتي، مجلة المناهل المغربية عدد مارس 1975.

وفي أعقاب تواصّل العاهل برسالة ابن خلدون بعث بسفارة هامة في مطلع القرن التاسع لتهنئة الناصر فرج بما سنّى له من إيقاف الزحف التتري ضد الشام، وقد اختيرت لرئاسة السفارة المغربية شخصية مشرقية الأصل، على خبرة بتاريخ المنطقة وظروفها هو الشيخ أبو عبد الله محمد الجواد بن محمد الهادي بن نفيس الحُسيني العراقي الكربلائي جد الأشراف العراقيين الموجودين بالمغرب اليوم[1]...

ويستفاد من الرسالة أن المغرب قر عزمه على الاسهام الفعلي في صد العدوان التتري على بلاد الشام لو لم يتمكن حكام المشرق من التغلب عليه[2].

وقد بعث الناصر فرج بن برقوق بجوابه عن الرسالة المغربية وكان من إنشاء القلقشندي وقد تضمن علاوة على المقدمات العادية الإخبار بوصول السفير المغربي الذي كان يحمل رسالة السلطان أبي سعيد ويتخلص الجوابُ المشرقي للحديث عن الحروب ضد التتر وكيف أن السلطان الناصر فرج قصدهم بالشام وأذاقهم الأمرّين، وإنه بينما كانت المفاوضات جارية في أمر الهدنة إذ شاع أنهم أي التتر نزلوا بمصر فتحرك نحو القاهرة... وهنا وقع الاختلال في الصفوف إلى أن اتضحت الأمور وتوالت المساعي للوصول إلى حل سلمي بين الجانبين.

1) كان الشريف الحاج محمد الهادي أول قادم من أشراف العراق على المغرب صحبة الركب المغربي في مطلع أيام السلطان أبي سعيد الأول 710-731=1311-1330، وقد كان هذا القادم حيا في 15 شعبان 760 ، فيكون ابنه السفير توجه إلى مهمته وهو شيخ فعلا كما تنعته رسالة الإعتماد. راجع مخطوطة (مطلع الإشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق) للقادري، و"الدر النفيس في نسبة أبناء بني نفيس "للوليد العراقي، مخطوط بالمكتبة الملكية، السلوة 3، ص 17 – رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي ج أول ص 429 تعليق 17. تراجع ص 210..

2) القلقشندي : صبح الأعشى ج 8، ص 103.

وإلى جانب سفارات المغرب الأقصى للمشرق كنا نلاحظ أن مملكة غرناطة كانت هي الأخرى لا تتأخر في إرسال مبعوثيها إلى تلك الديار أحيانا تضامنا مع المغرب وأحياناً منافسة له، ومن هذا القبيل ما تحدث به سفير غرناطة إلى السلطان الظاهر سنة 844=1439-1340 ...

المملكة المغربية وظهور الدولة العثمانية

لعل من الطريف أن نعرف أن المملكة المغربية كانت في شخص الرحالة ابن بطوطة -أول مملكة في العالم الإسلامي تعرفت على أحد أبرز وأقدم القادة الأولين للامبراطورية العثمانية، وهكذا ففي حديثة عام 734=1334 عن زيارته إلى مدينة برصى (Burssa) وذكره للحَمَّة التي توجد بها والتي ترتفع درجة حرارتها ويستشفى بها المرضى الذين يقصدونها من أقاصي البلاد - يتخلّص بعد هذا إلى ذكر سلطانها أورخان بك ابن السلطان عثمان، وقال عنه : أنه أكبر ملوك التركمان وأن له من الحصون ما يقارب مائة حصن، وأنه مجاهد صنديد على نحو ما كان والده عثمان الذي يرجع له الفضل في فتح (برصى) من أيدي الروم ...

ولقد حاصر السلطان عثمان -يقول ابن بطوطة- مدينة يزنيك (Iznik) نحواً من عشرين سنة ومات قبل فتحها حيث استمر ولده أورخان يحاصر يزنيك إثنتى عشرة سنة حتى إفتتحها !! ويزور إبن بطوطة هذه المدينة الساحلية مباشرةً بعد (برصى) وهنا يقوم الفقيه علاء الدين بتقديم الرحالة المغربي إلى الأميرة نيلوفر زوجة السلطان أورخان الذي كان منغيبا عن البلاد، وقد نعتها ابن بطوطة بالصالحة الفاضلة، وبأنها كانت الحاكمة بين الناس أثناء مغيب زوجها، وقد أثنى على أريحيتها وألْمَعيتها...

ولم يلبث السلطان أن عاد إلى البلاد بعد أيام وهنا نجد ابن بطوطة يجتمع به ويتحدث إليه -دون شك- عن بلاد المغرب حيث نجد السلطان أورخان يقدم للرحالة صلة مادية سخية بعد أن عرف عن رحلته الطويلة ....

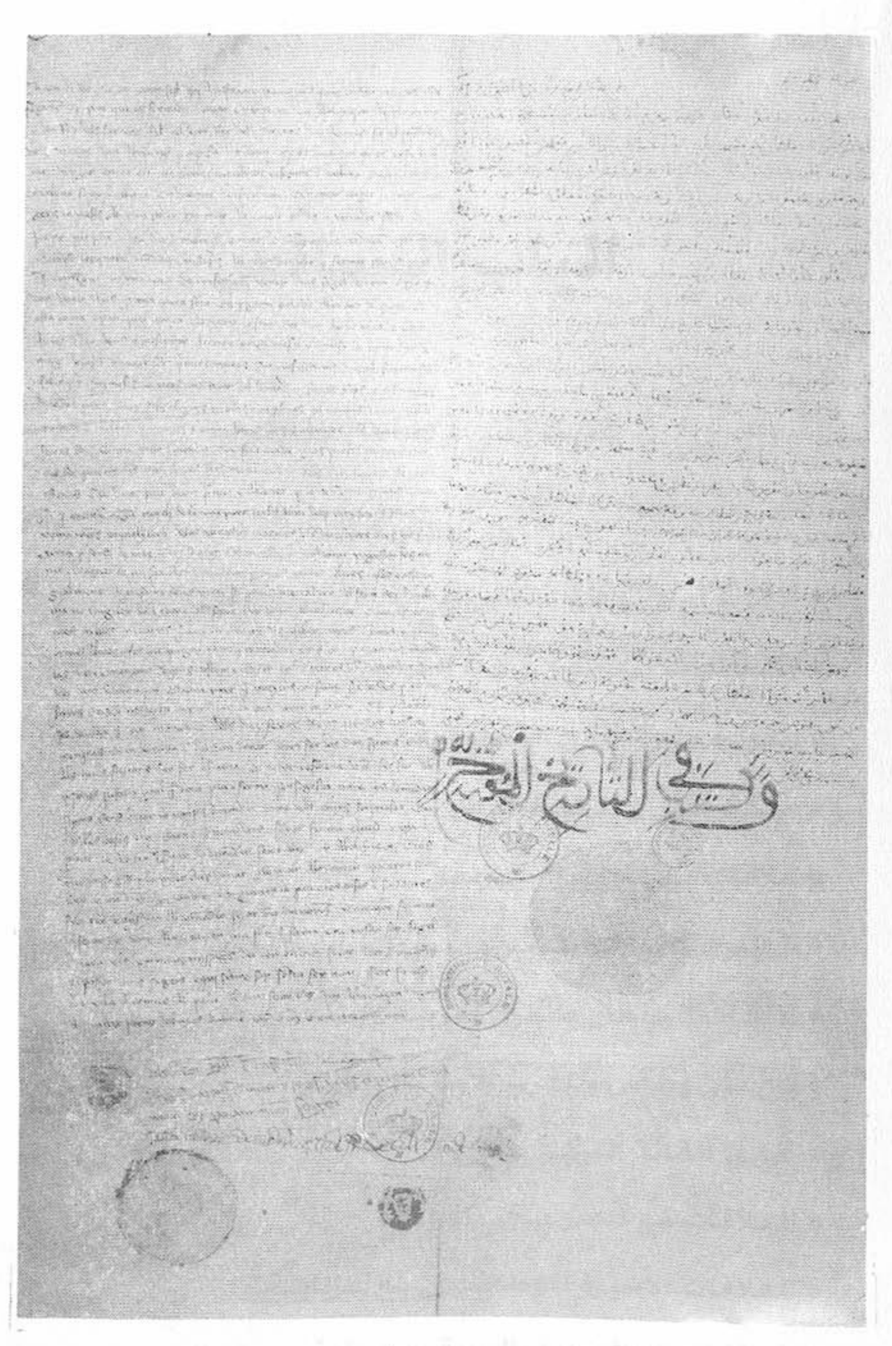
لم يكن إبن بطوطة آنئذ يدري أنه يتحدث إلى الجد الرابع للسلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح والذي ستدوّح امبراطوريته العالم بأسره !!

بعد أن قام محمد هذا بفتح القسطنطينية حرر عددا من الرسائل إلى ملوك الدول الإسلامية بخبرهم بالحدث العظيم، وكان في مقدمة هؤلاء شريف مكة الذي توصل برسالة بواسطة سلطان مصر يبشره فيها بفتح القسطنطينية[1]... وهناك -في دائرة معارف فريد وجدي- في موسم الحج ذاع وشاع أمر السلطان محمد الفاتح... ولم يكن غريباً علينا بعد هذا أن نقرأ عن سفارة للسلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني، تصل إلى العاصمة العثمانية في النصف الثاني من عام 857=1453[2].

1) سالم الرشيدي : محمد الفاتح، الطبعة الثانية بيروت، دار العلم للملايين 1969 -محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية الإدارية، مؤسسة الرسالة 1403=1983.

2) حاولت أثناء زياراتي لاسطنبول أن آجد أثرا في أرشيفات الباب العالي للسفارة المغربية، ولكن بحثي كان دون نتيجة بالرغم من التمهيد السابق والدأب اللاحق، ويظهر أن الملوك العثمانيين لم يكونوا ليحفلوا -في بداية ظهورهم- بتسجيل مثل هذه الوفادات وهذا ماتؤيده المصادر التي تحدثت عن العلاقات الفاسية(نسبة إلى فاس) العثمانية من أمثال عزيز سامح في كتابه الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية".

- كتاب تارخ الأتراك العثمانيين، ترجمة حسين لبيب 1917 ج 2، ص 10 -فريد وجدي : دائرة معارف القرن الرابع عشر، طبعة ثانية 1923 ج 2، ص 567 - الترجمان المغرب، مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 658/5.



الرسالة الهامة التي تصلح خطأ المقري في نفح الطيب وخطأ من تبعه حول قطع الأسطول المغربي وعدد العلماء الغارقين ! وهي بتاريخ 29 رجب 751=14 شتنبر 1350

الباب السادس

عهد بني وطاس بالمغرب

- المغرب أمام تواطؤ حُكّام الجزيرة الإيبيرية على أراضيه...
- الاتفاقيات المبرمة في هذا الصدد
- معركة وادي المخازن الصغرى
- مملكة فاس ومملكة مراكش
- علاقات مملكة فاس بالبرتغال
- ظهور طلائع السعديين وصدى الأتراك بالمغرب
- علاقات البرتغال بالمدن المغربية المحتلة
- بين بني وطاس والمغرب الأوسط والأدنى
- ظهور القائد التركي علّوج
- العلاقات مع مصر وباقي إفريقيا
- العلاقات الأخيرة للوطاسيين مع غرناطة
- الوطاسيون وفرنسا والبندقية وجنوة ...

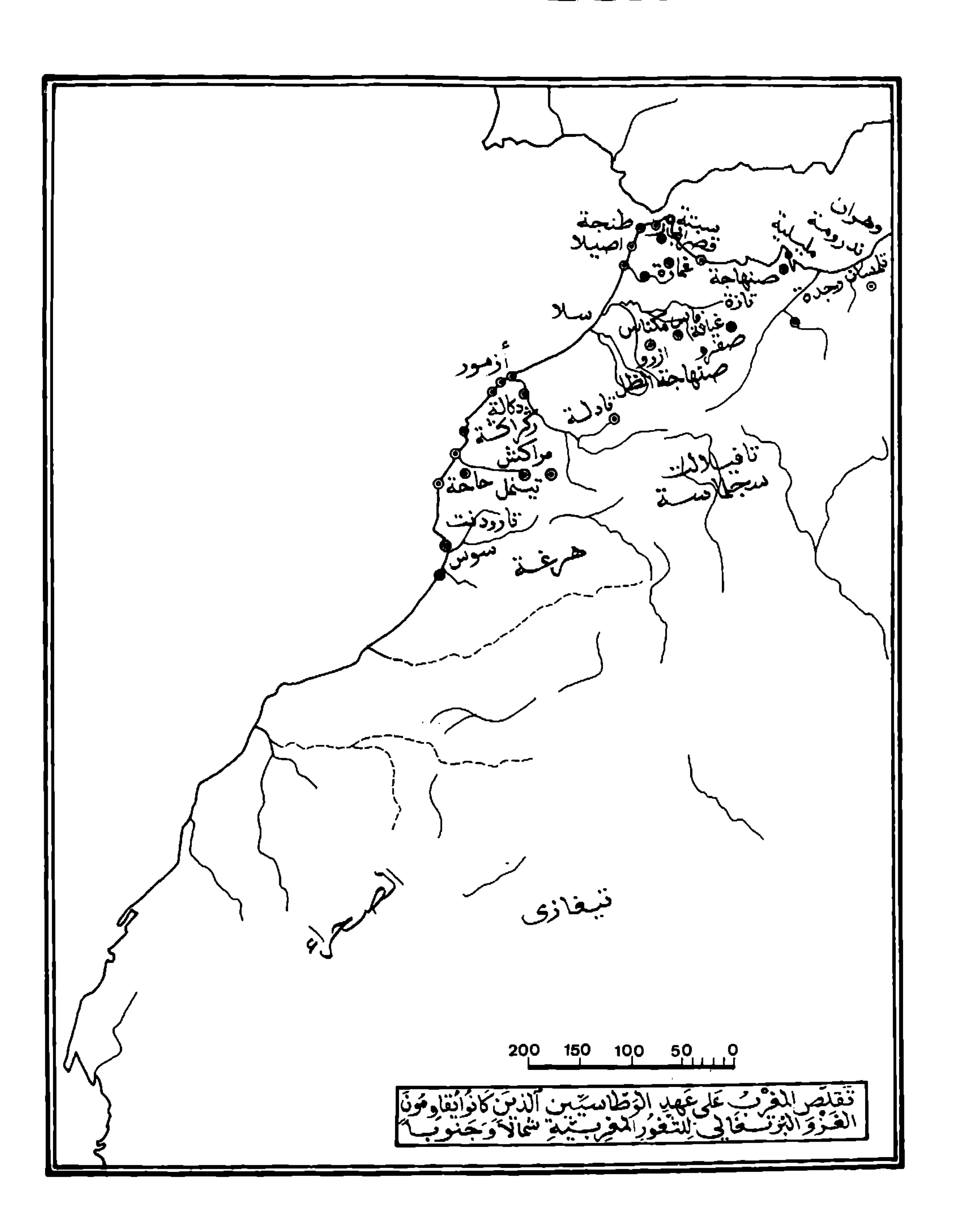
الفصل الأول

- المغرب أمام تواطؤ حكام الجزيرة الإيبيرية
- اتفاقية الكاصُوفاس 1419=884
- معاهدة طليطلة 1480
- معاهدة دي سيَاس 1494
- موقف الكرسي البابوي من تواطؤ البرتغال والإسبان
- اتفاقية إيسطو بينان 1497
- اتفاقية سِينتْرا 1509
- الرسالة التاريخية : إبييسطولا 1513
- معركة وادي المخازن الصغرى : بجزيرة المليحة 921=1515
- اختلاف القادة المغاربة : مملكة فاس ومملكة مراكش

العلاقات المغربية الإيبيرية
على عهد بني وطاس

منذ أن احتلت البرتغال سبتة عام 1415=818، اعتبرت قشتالة نفسها حرةً في إتخاذ القرارات التي تهدف للإستيلاء على الأراضي المغربية ! وهكذا فمنذ تامن يوليه 1449=17 جمادى الأولى 851، وهب ملك قشتالة خوان الثاني هبة نقدية من العملة التمينة التي كانت ما تزال تحمل إسم المرابطي (Maravedi) وهبها لدوق مدينة سيدونية للتحرك في الساحل الإفريقي... ومن هنا وجدنا الإسبان ينزلون فيما بين رأس درعة ورأس جوبي، وهي المنطقة التي حملت -على ما يقال- إسم "لامار بيكينيا..." وهناك أسسوا لهم الحصن الذي أعطوه "سانْطا كروز" الذي سيدكُّه المغاربة دكاً ويصبح أثراً بعد عين !!

ومن الجدير بالذكر أن نشير للقرار الذي اتخذه البابا نيكولا الخامس بتاريخ 8 يناير 1454 والذي يخول فيه للبرتغال حق التمسك بسبتة ونواحيها ! بل والاستيلاء على الساحل الأطلسي من رأس نُون إلى غينيا... وقد انقض البرتغال فعلا على (أنفا) عاصمة تامسنا - الدار البيضاء حاليا - سنة 874=1470 فتركوها خراباً بباباً على ما نقرأه مفصلا في كتاب (وصف إفريقيا) للحسن ابن الوزان الذي أبكاه منظرها وقد كان يعرف أن أنفا كانت قاعدة علمية على عهد بني مرين !.



خريطة المغرب على عهد الوطاسيين

وقريباً من هذا التاريخ أوقعوا بأصيلا على نحو ما فصّله كذلك ابن الوزان، وقد جد حادث عام 1479=884 جعل من ذلك "التواطؤ" بين اسبانيا والبرتغال اتفاقاً حقيقيا، فقد أبرمت معاهدة (Alcaçovas) بتاريخ 4 شتنبر من السنة المذكورة بين مملكة قشتالة ومملكة البرتغال، وتبعتها معاهدة طليطلة بتاريخ 6 مارس 1480 التي جعلت حداً للنزاع الدائم الذي كان بين المملكتين حول مشكلة وراثة العرش.

وبمقتضى هذه المعاهدة فإن لمملكة قشتالة أن تحتفظ بجزر كناريا ولكنها تتنازل لصالح البرتغال عن مملكة فاس والساحل الإفريقي الذي يقع جنوب الجزر المذكورة...![1]

وبعد أن تم بسط النفوذ البرتغالي على آسفي عام 886=1481[2]، ثم على أزمور مولاي بوشعيب عام 891=1486، أخذ البرتغال يدعي "حقوقاً" على سائر الساحل الأطلسي، وهذا ما دفع إلى الصدام من جديد بين المملكتين وخاصةً بعد سقوط غرناطة في فاتح ربيع الأول 897=2 يناير 1492.

وقد أصدر أليكساندر السادس بتاريخ 14 مايه 1494 أمراً باباويا يعترف لاسبانيا بما "تملكه" على الساحل الأطلسي، بيد أن هذا "الحق الممنوح" ظل هدفاً لمعارضة البرتغال الأمر الذي أثار تعقيدات دولية[3] أدت إلى معاهدة (Tordescilas) التي أبرمت بتاريخ 7 يونيه 494= 3 رمضان 899 والتي تعين مناطق النفوذ بين الدولتين في العالم وعلى الخصوص في المنطقة المغربية، وهكذا عينت المعاهدة المذكورة خطاً غرب الرأس الأخضر كحد فاصل بين منطقتي النفوذ، بحيث احتفظت مملكة إسبانيا بالقسم الواقع غرب هذا الخط : بينما كان حظ البرتغال شرقي الخط المذكور بما في ذلك مملكة فاس والسواحل القريبة من مملكة البرتغال باستثناء جهتين اثنتين يخضعان لاسبانيا هما : جزر كناريا والساحل الشمالي للمغرب ...!

1) S.I.H.M. S.I T.1 P. XIII, P. 203 et suivi.

2) في حديثه عن آسفي ذكر الحسن ابن الوزان أن البرتغال اغتنم فرصة انقسام الرأي في البلاد بسبب قصّة غرامية مثيرة قلبت البلاد رأسا على عقب، ليبني له حصنا على سيف البحر كان سببا في المأساة الكبرى التي عرفتها المدينة والتي أعقبتها هجرة بعض أهلها إلى مملكة فاس...

3) S.I.H.M. T.I.P. 209.

وكما نلاحظ.. فإن كل هذه الاتفاقيات وهذه التزكيات وهذه العطاءات والهبات كانت تتم في غيبة عن المعنيين بالأمر : عن الأفارقة، عن المغاربة بصفة خاصة ! وكأن الدولتين المتصالحتين على كاهل المغرب، لم يقنعا بكل ما حصل فاستصدرا أمرا أول من البابا بتاريخ 12 نونبر 1494= 12 صفر 900 يقضي بدعوة المسيحيين أينما كانوا لبذل العون المادي والمعنوي للملوك المسيحيين من أجل فتح المزيد من الأراضي المغربية ... !

ولم يلبث البابا أليكساندرو أن أصدر أمرا ثانيا بتاريخ 13 يبراير 1495= 17 جمادى الأولى 900 يبارك فيه حملة كل من الملك فيرديناند والملكة إيزابيلا لتحقيق نصر أكبر للعالم المسيحي !

وفي إطار التنافس المستعر على الأراضي المغربية نجد البرتغال في جهة مغربية أخرى من الجنوب تسامت الجزر الخالدات، تلك هي "ماسة" التي شملها بنفوذه عام 902=1497.

وفي إطار التنافس على اكتساح الأراضي المغربية شاهدت سنة 903= 1497 انقضاض بيير إسطوبينان (P.Estopinan) على مدينة مليلية وهو الضابط الملحق بقصر دوك سيدونيا...

وتم الإجهاز في نفس التاريخ 903=1497 -من إسبانيا كذلك- على مرسى كانت لها أهمية زائدة عبر الأحقاب، تقع غرب مليلية وتسامت مرسى مالقة إقليم إلبيرة (Elvira) ويتعلق الأمر بمدينة غساسة (Gaçaça) التي كانت المعبر المفضل لأصحاب المهمات السريعة والقضايا السرية، وهي التي يصفها ابن الخطيب بأنها "مرسى مطروق بكل ما يروق، ومرفأ جارية بحرية ومحط جباية تجارية ... وبعد غساسة احتلوا مشتراية [1] عام 908=1502...

ولا بد ونحن في زحمة هذا العدوان الشرس المُبرمج ! أن نتذكر وصية الملكة إيزابيلاً بتاريخ 12 أكتوبر 1504 إلى ابنتها وصهرها بأن لا ينفكا عن فتح إفريقيا والقتال ضد المسلمين..."

1) يرسم بعض المؤلفين المغاربة مشتراية على غير هذا الشكل 1. S.I.H.Portugal T, IP. 70.

وبعد مشترابة تم السطو على مرسى أمقدول (الصويرة) 911=1506 حيث شيدوا ما سموه "القلعة الملكية"... وفي نفس السنة 911=1506 أتوا على مرسى أكادير فبنوا حصن فونتي ...

ونظرا لأهمية جزيرة بادس باعتبارها أقرب ميناء إلى مدينة فاس العاصمة فقد شاهدنا عبر التاريخ صراعا عنيفاً على تملكها، وقد استحوذ عليها عام 914=1508 بيدرو دي نافارو (Pedro de Navarro).

وقد حدث أن عادت إسبانيا لخرق بنود الاتفاق الذي باركه البابا فاحتكم الطرفان : إسبانيا والبرتغال إلى المفاوضات التي إنتهت باتفاقية سينْترا (Sintra) المبرمة بتاريخ 18 شتنبر 1509=[1] جمادى الأولى 915 حيث اعترف الإسبان للبرتغال باحتلال موانئ الشاطئ باستثناء (صانطاكروز)، إلى غينيا، وبالمقابل تعترف البرتغال لاسبانيا بحق استعمارها لميناء بادس وقلعة صانطاكروز دي ماربيكينيا.

وبالرغم من أن الجيوش البرتغالية اضطرت للاندحار أمام المجاهدين الذين أخرجوها من مرسى (أمقدول) عام 1510=915، فقد رأى إيمانييل الأول ملك البرتغال أن يكتب من ليشبونة إلى سيد المسيحية البابا ليون العاشر حول الانتصارات التي حصل عليها حديثا في إفريقيا، وكان ذلك بتاريخ 30 شتنبر 1516= 29 رجب 919، عند ظهور الأشراف السعديين في جنوب المغرب.

لقد أصبحت صورة الصفحة الأولى لهذه الرسالة التاريخية (Epistola) متداولةً بين الأيدي...[2] وهكذا فبعد زمن غير طويل من إخبار إيمانييل للباباليون العاشر بالمكاسب التي حصل عليها في الهند بواسطة القوات البرتغالية، يعود اليوم ليحيطه علما بالانتصارات التي حققها في المغرب، ولم يفت إيمانييل أن يخبر البابا بأن الدوك دي براگانص (De Bragance) توجّه على رأس أسطول يتألف من خمسمائة سفينة تحمل ثمان عشرة ألف جندي اتجهت لتنزل

1) S.I.HK Eer S.T.I. P. 152 N° 5.
2) S.I.M. 1 er S.T.I. P. 434-435.

EPISTOLA

Potentissimi: ac Inuictissimi
Emanuelis Regis Portugallie
& Algarbiorum &c. De Victoriis
nuper in Affrica habitis. Ad S.
in xpo patrem & dnm nostrum
dnm Leonē. X. Pont. Max.

Epistola

بالبريجة (مدينة الجديدة) أيضا ، ومن هنا تحتل أزمور من جديد 919=1513 بعد سلسلة من المواجهات العسكرية مع السكان : "وقد هاجمت جنودنا - يقول إيمانييل- المدينة وقد استولوا على أعدائنا الذين ظلوا يقاوموننا طوال اليوم قبل أن يرحلوا عن المدينة أثناء الليل من جهة لم يشملها حصارنا ، ومن الغد دخل (الدرك) على مرأى ومسمع ممن بقي في المدينة وحضرنا القداس الذي أقيم في المسجد الأعظم من المدينة المذكورة التي عثرنا فيها على عدد من الغنائم التي كان المغاربة قد سلبوها منا[1]... ولم يسع مدينة الجديدة ولا كذلك موقع (تيط) إلا أن تقدما بالطاعة" وتختم رسالة إيمانييل للبابا بالكشف عن العزم على فتح مملكة المغرب بأسرها !!

وقد أجاب البابا ليون العاشر على رسالة الملك إيمانييل بتاريخ 18 يناير 1514 يزف إليه التهاني ويغدق عليه دعوات الرضى والغفران...

ولا شك أن هذه التشجيعات من البابا كانت بالنسبة لإسبانيا بمثابة الحافز على ضم مدن أخرى، فتقدمت بقواتها بقيادة أنطونيو دونورما (De Norma) منتهزة فرصة انتقال السلطة من يد الوطاسيين إلى الأشراف السعديين وارتباك الوضع في مثل هذه الأحوال، وهكذا احتلت المعمورة عام 920=1514 بعد جهاد مرير كان بقيادة الناصر أخي السلطان محمد الملقب البرتغالي[2] ومشاركة عدد من الأعلام كان فيهم الحسن بن محمد الوزان الفاسي سالف الذكر الشهير بليون الإفريقي... وقد كان البرتغاليون شيدوا قصبةً أطلقوا عليها" القديس جبرائيل ما وراء البحر (San Miguel de Utramar) عام 916=1510...

ومن المحزن أنه في هذا الوقت الذي كان فيه على عناصر القوى الوطنية في البلاد أن تلتئم وجدناها على العكس من ذلك تختلف في كلمتها !

1) د. التازي : أزمور مولاي بوشعيب، مجلة (المناهل) عدد 35، ربيع الثاني 1407= دجنبر 1986.
2) لقب بالبرتغالي لأنه كان أسيراً بالبرتغال مدة نشأته فتعلّم هناك لغتهم وعاداتهم وأصبح نتيجة لذلك يحمل هذا النعت...

وهكذا فقد أصبحت هناك مملكة بمراكش ومملكة بفاس، وإمارة في بادس وزعامات أخرى في جهات أخرى ولم يكن ثمت من مانع عند المستعمر أن يربط صلاته السياسية بهذا الفريق أو ذاك!

بيد أن أيام الوطاسيين مع كل ذلك أعطت دليلا على أن المثل الذي يردده المغاربة : "بعد بني مرين وبني وطاس ما بقى ناس" مثلٌ له دلالته، فإن الصراع العنيف والشريف الذي خاضه المغرب، على توزعه وتشتته، يخلد صفحة مشرقة في تاريخ النضال من أجل الدفاع عن البلاد، فقد ظل العدو يقضي لياليَه محروما من طيب المنام.

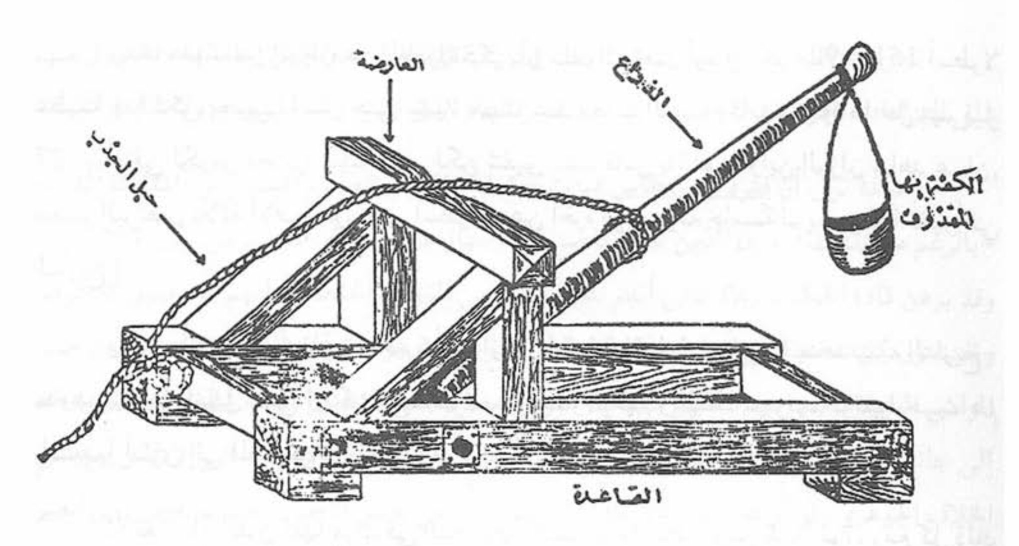
لقد ترك المحتل على مشارف كل مدينة آلاف الضحايا، وفي كل مرة كان يعتقد فيها أنه قد آن له أن يستريح، يباغت بغارةٍ ضارية تفسد عليه برنامجه ومنهاجه، لقد غرقت مئات القطع البحرية وعرفت الأزقة عراكاً بالسلاح الأبيض ظهراً لظهر وسالت أودية من الدماء علي أبواب المداشر والمنازل...

لقد أعار المغاربة على أصيلا فأفسدوا مشاريع العدو بها وعادوا فاقتحموها ولم يخرجوا منها ثانية إلا بعد أن خربوها وعادوا إليها ثالثة فأمعنوا فيها قتلا وتشريداً... إن ما مرت به أصيلا من أهوال جسيمة تفوق مساحتها الصغيرة يبرر المثل العامي الذي يقول : "أصيلا صغيرة ومحاينها كبار!!.[1]

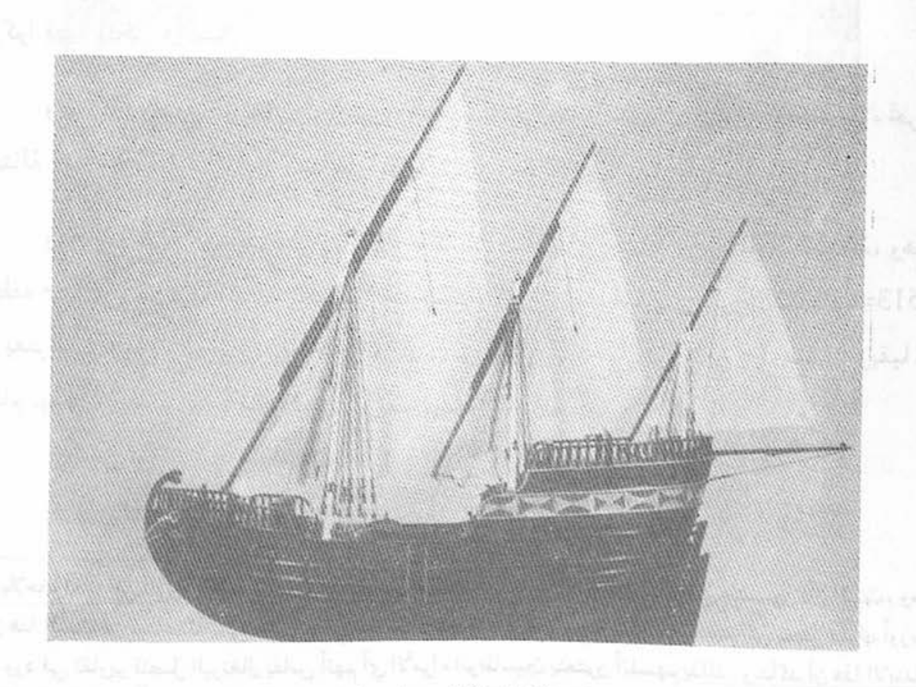
وقد قصد البرتغال إلى بناء حصن على نهر لكوس في جزيرة المليحة (La graciosa) ليأخذوا بمخنق الغرب، لكنهم فوجئوا بالحصار النهري-البحري الذي ألحق بهم هزيمة منكرة دوت أصداؤها في مختلف جهات دنيا البرتغال على ما نقرأه في (وصف إفريقيا) للحسن ابن الوزان، وبخاصةٍ في أرجوزة الكراسي حيث كان ما أسميته معركة وادي المخازن الصغرى.[2]

1) S.I.H. M.Portugal T. 3P .164 T.4 P.33.

2) د. التازي : معركة وادي المخازن الصغرى : مجلة المناهل المغربية عدد 23 ربيع الثاني 1406= دجنبر 1985.



استعمال المجاهدون المغاربة المنجنيق في معركة وادي المخازن الصغرى



نموذج من الكراڤيلاً البرتغالي (Caravela)

وعند حديث ابن الوزان عن المعمورة ذكر بأن ملك البرتغال أرسل عام 921=1515 أسطولا عظيما جدا لكي يحمي الجيش حتى يشيد حصنا عند مصب النهر، وكأنهم نسوا ما حل بهم قبل 27 سنة في لكوس بجزيرة المليحة... لكن شقيق ملك فاس باغتهم، وابن الوزان شاهد عيان، فخسر البرتغال ثلاثة آلاف رجل ودمر أسطولهم عن آخره في معركة حاسمة لم يسبق لها نظيراً في التاريخ!

وحدث ذات مرة أن نفذت ذخيرة أهل أزمور الحربية فقذفوا -على ما يتحدث به التاريخ- عدوهم بخلايا النحل التي أربكت المهاجمين وشوهت وجوههم وأطبقت عيونهم فوقفوا حيث هم واقتيدوا أسْرى إلى المعسكرات المغربية!

ثلاثة أرباع القرن كلها مرت في التحصين والتشييد والتنظيم ومع تلك القوة، ومع كل ذلك النظام، ومع كل تلك التقنيات فقد اضطروا للاجلاء عن أكادير وآسفي وأزمور ومشترابة عام 1542=947 بعد أن عانوا من أهوال المضايقات والمطاردات واضطروا عام 956= 1549-1550 أن يتركوا قصر المجاز وأصيلا...

ولقد كان وصول البرتغال إلى ماسة وحصولهم على وفاق مع بعض زعماء الإقليم وراء تحرك قشتالة 904=1499 في اتجاه الساحل المقابل للجزر الخالدات!

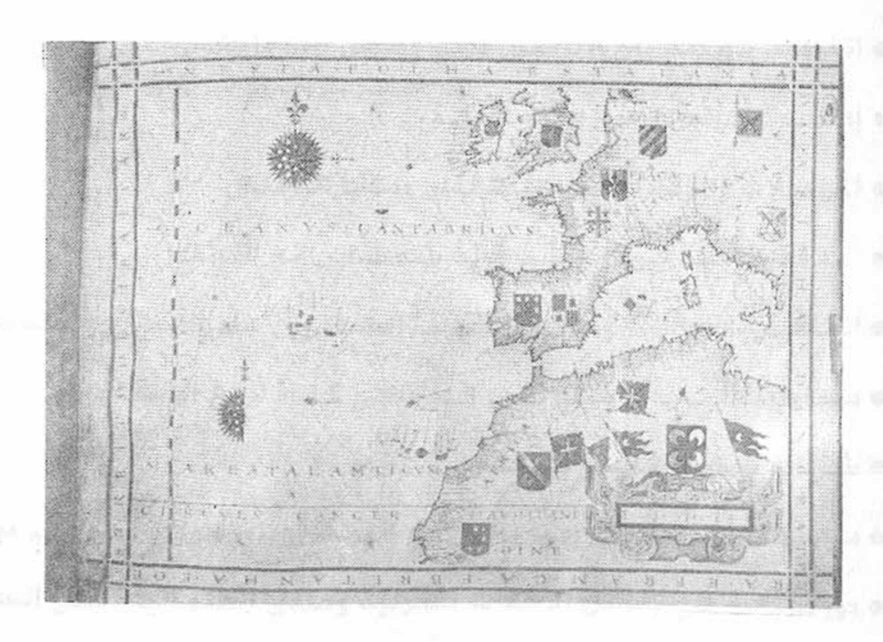
وهكذا وجدنا أنهم يتوسلون بحكام هذه الجزر لإخضاع منطقة ماسة لملوك قشتالة، وهذه المنطقة هي التي تقع فيها المدينة الكبيرة (تكاووست) التي زارها الحسن ابن الوزان عام 919=1513 أي بعد أربع عشرة سنة من ذلك التحرك القشتالي، والتي قدمها في كتابه: (وصف إفريقيا)، وأقام بها ثلاثة عشر يوما مع نائب الشريف (بها)[1].

---

1) يلاحظ نعت ابن الوزان للأمير الوطاسي بأنه شريف مع أن المعروف أن الوطاسيين لا ينتسبون لآل البيت، ومن شأن هذا النعت أن يساعدنا على ما نجده في توقيعات بعض سلاطين بني وطاس لرسائلهم إلى بعض ملوك أوربا، وقد ورد في تقارير قنصل البرتغال بفاس أنهم أي الأمراء الوطاسيين ينعتون أنفسهم بذلك. ويتأكد أن هذا الإبتداع من لدن الوطاسسيين يرجع لتاريخ ظهور الأشراف السعديين الذين كانوا أبناء عمّ للأشراف العلويين الذين سيرثون حكمهم، فهنا عمد الوطاسيون، لكي لا يقال إنهم ليسوا من قريش -لتحلية أسمائهم بما يتحلى به آل البيت!

نحو هذه المنطقة (ماسة) توجهت بعثة قشتالية للتفاوض مع بعض زعمائها والحصول منهم على التزامات نحو قشتالة حسبما يفيد التقرير الهام الذي نشره دوسونيڤال ودولا شابيل[1].

وهكذا نرى أن فترة بني وطاس تميزت -كما أسلفنا- بالصّدام المستمر بين المملكة المغربية -بالرغم من تفتتها- وبين الذين كانوا يقصدون الاجهاز على الكيان المغربي من الجزيرة الإيبيرية، وقد برهن قادة الحكم بالبلاد على أنهم بلغوا درجة من المرونة والحنكة جعلتهم يستغلون كل فرصة ويغتنمون كل سانحة من أجل تطويق الخطر وحصره حيث هو... ومع أنهم كانوا يدركون جيداً المرامي البعيدة لخصومهم لكنهم مع ذلك ظلوا حريصين على التظاهر أمامه بمظهر الند الذي يقف إلى جانب نده يفاوضه في عقود الهدنة ويتفاهم معه حول النقاط الأخرى التي لا تمس موضوع الخلاف الجوهري ولو أن هذه المرونة وذلك "التكيف" كان في بعض الأحيان يغضب بعض ذوي الغيرة الوطنية!



خريطة مغربية عن وثائق طورى دي طومبو معرض ليشبونة 1982

1) De Cenival et de la Chapelle : Possession Espanoles sur la cote occidentale d'Afrique Hep, 1935, P. 19.

الفصل الثاني

- البرتغال بين مملكة فاس ومملكة مراكش
- اتفاقية الهدنة بين البرتغال وبني وطاس 876=1471
- إفادات ابن الوزان حول هذه الفترة
- المراسلات والوفادات بين ملك فاس وملك البرتغال
- علاقة الزعيم مولاي راشد قائد شفشاون مع البرتغال
- اتفاقية 945=1538 وظهور الأشراف السعديين على المسرح السياسي
- محاولة استخدام ملك فاس الوطاسي كأداة لردع السعديين !
- شهادة نيكولا كلينار في فاس
- مراسلات أبي حسون أمير بادس مع البرتغال ودور مولاي عمر أمير دبدو
- دور مليلية في تفاعل الأحداث المغربية وصدى العثمانيين على الساحة
- نحو انتقال الحكم من بني وطاس إلى السعديين

وعلى ضوء كل ما تقدم نستعرض أولاً العلاقات مع مملكة فاس :

فلقد سمعنا منذ الأيام الأولى لظهور بني وطاس أنهم، وقد سمعوا عن الفتن التي شبت بعاصمة فاس وعن بيعة الشريف العمراني الحفيد...، قصدوا من مقر قيادتهم أصيلا، مدينة فاس... وعلى رأسهم أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي... تاركين كل أفراد أسرتهم هناك بما تملكه من مال وعتاد، وكان من بين من بقي بأصيلا الأمير محمد الشيخ وأخته... في هذه الأثناء وبالضبط عندما كان محمد الشيخ محاصرا لفاس انقض البرتغال على أصيلا فاكتسحها اكتساحا على ما نقرأه عند الحسن ابن الوزان... وحينئذ عاد محمد الشيخ إلى عين المكان وبعث بأخيه محمد الملقب (الحلو) سفيراً عنه إلى البرتغاليين لتدارك ما يمكن تداركه، حيث تم إبرام هدنة طويلة المدى بين محمد الشيخ والفونصو الخامس أوسط ربيع الأول 876 أواخر غشت 1471 وقد أفادت هذه الهدنة كلا من الطرفين، وأعطت لكل منهما نفسا لقضاء غرضه، وبالرغم من هذه الاتفاقيات وقفنا على تقارير في أرشيف ليشبونة تتحدث عن "مشروع" يهدف لتسليم تطاون للبرتغال في بداية عهد الوطاسيين! وهكذا نقرأ عن قدوم لورانسودي فركاش (L. de Vargas) على ابن راشد قائد تطوان ليسلم له الرسائل والخطابات حيث قرأ ابن راشد هذه الرسائل بمحضر بعض وجوه البلاد قبل أن يبقى رأسا لرأس مع الدبلوماسي البرتغالي[1]...

ويظهر من خلال الافادات الهامة التي قدمها إلينا الحسن ابن الوزان في كتابه : "وصف إفريقيا" أن الهدنة بين مملكة فاس والبرتغال كانت هشة في كثير من الأحيان..

وهذا ما يفسر ظروف التربص والملاحقات التي كنا نقرأ عنها... إن ملك فاس ظل يعتبر نفسه مسؤولا عن تلك المدن والمواقع التي تعرضت للغزو البرتغالي في دكالة والجنوب مثلا ولذلك فلم يخل ظرف من الظروف لا نسمع فيه عن إرسال وفادات أو احتدام اشتباكات...

لقد زار ابن الوزان صحبة أمير فاس مرسى (تفتنة) (Tefethne) على المحيط الأطلسي وكان التجار البرتغاليون يترددون عليه لبيع بضائعهم واشتراء الشمع وجلود الماعز...

---

1) Elaine Anceau et Robert Ricad : un Projet.. Hesp 1957. - د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 7، 246....

وفي حديثه عن تومكلاست (Tumeglast) أفادنا ابن الوزان أنه أقام فيها مع يحيى بن محمد أوتاعفونت الذي كان يجمع الضرائب لملك البرتغال عام 920=1514...

وفي حديثه عن الموقع الذي يحمل إسم "المدينة" قال : إن ملك فاس نقل سكانها إلي مملكته إنقاذا لهم من ظلم البرتغال...

وفي حديثه عن (الجبل الأخضر) الذي قصده ملك فاس عام 921= 1515 لنجدة أهل دكالة ضد حيف البرتغال، قدم لنا صورة طريفة وشيقة لما يكون عليه الركب الملكي في تلك الأحوال! وفي خضم هذه المواجهات نلاحظ أن هناك فجوات انشراح كانت تبدو بين الفينة والأخرى، الأمر الذي تفسره بعض الرسائل من السلطان محمد البرتغالي إلى ملك البرتغال.

وعندما أبطأ ملك البرتغال في الجواب فكر سلطان فاس في إرسال خطاب ثان حول وكان ذلك بتاريخ 28 ذي القعدة 920= 14 يناير 1515 . وقد إستأثر الناصري في كتابه الاستقصا بالإشارة إلى هذين الخطابين إعتمادا على ماورد في تاريخ منويل.[1]

وقد استأثر ج. دي سوزا (J. De Sousa) في كتابه "وثائق عربية" المطبوع في لشبونة عام 1790 بذكر رسالة رفعت كذلك من "الشريف" محمد (الوطاسي سلطان فاس إلى الفارس سباستيان دي سوزا يخبره بوصول كتابه المعبر عن الود، وأنه يخدمه على نحو ما يخدم العاهل البرتغالي، ثم يعطيه الشريف الإشارة بالتوجه إلي جهة شفشاون للإلتقاء هناك، وكانت الرسالة بتاريخ 5 صفر 924= يبراير 1518.[2]

وبعد هذا يورد الكتاب المذكور رسالة أخرى لم ترد أيضا في موسوعة (S.I.H.M) وهي مرفوعة من "بابا أحمد بن عم الشريف سلطان فاس" إلى ملك البرتغال دون جوان، وهي تحمل تاريخ 24 ربيع الآخر عام 930= 1 مارس 1524....

---

1) الاستقصا ج 4، ص 143، طبعة الدار البيضاء.

2) Docum , Arab P. 117.

وفي هذه الرسالة ينهي بابا أحمد إلى علم جوان أنه وصل إلى تافيلالت وأنه التقى مع حكامها وكبارها واستقبلوه بفرح... وأنه كان يحسب أنه سيجد السفن البرتغالية حاضرة حتى يسافر معها (لأقرب تغر لفاس)[1]

ومن المفيد أن نشير إلى رسالة رفعها العاهل الوطاسي مولاي أحمد الشريف إلى ملك البرتغال بتاريخ 24 رجب 930= 28 مايه 1524، وفيها يشكر دون خوان ابن السلطان دون منويل على حسن إستقباله لابن عمه بابا أحمد... وهذه الرسالة أيضا مما لم يرد في موسوعة دوكاستري...[2]

وهناك رسالة بتاريخ 20 رجب 931= 13 مايه 1525 من محمد "الشريف" إلى دون خوان حول مهمة بابا أحمد بو حسون الذي يتمتع عند "الشريف" بكامل التقدير والإكبار...[3]

ونجد في مقابل هذا رسالة موجهة بتاريخ 29 يناير 1526= 15 ربيع الثاني 932 إلى "كثير الإكرام وكثير الإعظام بين أمة المسلمين الشريف مولاي أحمد سلطان فاس من دون جوان سلطان البرتغال والغربين هنا وهناك، مولى غناوة وبلاد المعدنين وأطرافها، فاتح أقاليم الهند وأوطان من جهة العرب والعجم والباقي..." والرسالة تخبر سلطان فاس بأن ابن عمه بابا أحمد ومن معه وصلوا إلى ملك البرتغال وأنه قبلهم لما أنه ابن دلك الأب الكبير والنسل الشريف، وهو يرحب بهم أجل الترحيب " لأن هذا فعل الملوك مع ضيوفهم"... وأبي وباقي السلاطين الدين سبقوني في هذه السلطنة هكذا كانوا يفعلون...".

1) المصدر السابق ص 148 هذا وقد أورد دي سوزا رسالة بدون تاريخ من أحمد قبايلي عن لسان مولانا" إلى فرانسيسكو.. يعلمه بأنه قد وصلنا قائدنا مخبرا عما لقي عندكم من حسن إستقبال... والناس في هذه الدنيا تحتاج للناس، تقول الرسالة...

Dc Soussa P. 185.

2) المصدر السابق ص 144.

3) المصدر السابق ص 151.

ويشير الخطاب إلى ما تعرب عنه رسالة مولاي أحمد الشريف من رضاه على ملك البرتغال وإن هذا الأخير سلم جوابه حول ما كاتبه عنه ملك فاس، إلى يعقوب الذي سيعلمكم بذلك...

وكلٌ هذا يفسر الاخبار التي تتحدث عن إنعقاد هدنة بين السلطان أبي العباس الوطاسي وبين ملك البرتغال عام 932=1526 عندما غص الوطّاسيون بظهور الأشراف السعديين بجنوب المغرب، لقد رأى من الضروري للتفرغ لخصومه الجدد أن يطمئن على مملكته فاس من زحف البرتغاليين الدين كانوا يعقدون هدنة في نفس التاريخ مع السعديين الظاهرين بجنوب المغرب !!

وفي أثناء هذه الهدنات نلاحظ تبادل الرسائل بين الوطاسيين وبين البرتغاليين، وهكذا نعثر على رسالة من الأمير مولاي مسعود ابن الناصر بن محمد الشيخ إلى الكونت دي لينهاريس (De Linharès) بتاريخ 3 ذي الحجة 933= 17-26 شتنبر 1527 يعرب فيها مولاي مسعود عن عواطفه نحو الكونت، ويعاتبه على عدم الكتابة إليه، ويخبره بأنه أجاب عن الرسالة التي بعثها إليه جان الثالث بواسطة الحزان إبراهيم بن زاميرو، ويضيف إلى هذا أنه عندما يتوفر على خطاب من جان الثالث فإنه سيبعث إليه أحد خدامه[1]...

وفي أواخر ذي الحجة من السنة بعد هذه 934= 14 شتنبر 1528 وجدنا رسالة من مولاي أحمد إلى هذا الكونت دي لينهاريس... يؤكد له فيها عن المحبة ويخبره بأن اليهودي وصل ولكنا "ما رأينا معه جوابا منكم وحسبنا أنك ترسل لنا رسولا منكم ولكن حتى إلى هذا الوقت ما وصلنا.. ومتى يصل إلينا المرسول من إجبوة (ليشبونة) نعلمك بالصادر.!!

ثم تختفي عنا آثار المراسلات المغربية البرتغالية إلى أن نجد رسالة تنفذ من محمد بن الحسن زنبق كاتب السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي -وكان يشغل أيضا منصب باشا مدينة سلا- إلى حاكم أزمور أنطونيوليت (Antonio Leite). يخبره بأنه أبرم -بواسطة الشيخ يحيى

(1 S.I.H. M. Portug T. II. P. 412.

بن الديب الترجمان بأزمور فترة هدنة لمدة ثلاثين يوما تبتدئ من يوم خروج يحيى المذكور، كما يخبره بأن سجينا فر من محلة السلطان أبي العباس والتجأ إلى أزمور حاملا لجامين في ملك السلطان، والمطلوب من أنطونيوليت بإلحاح أن يعيد اللجامين، وقد ذكر محمد زنبق أنه يطلب إلى أنطونيو أن يعتبر هذا الرجاء شخصياً لأنه وعد السلطان بأنه يعثر على ماسرق لا محالة، مؤكدا للسلطان المذكور أنه إذا ما كان اللجامان في أزمور فإنهما يعتبران في مأمن كما لو كانا بسلا ! ويرجع تاريخ الرسالة لما قبل 6 أبريل 1530= 7 شعبان 936.[1]

وقد صدرت رسالة من ملك فاس يوم أول رمضان 936= 29 أبريل 1530 إلى جان الثالث يخبره فيها بأن خديمه يعقوب (روساليس) (J. Rosales) عاد من البرتغال، وأنه أخبره بالاستقبال الحافل الذي خصصه العاهل البرتغالي لابن عمه نجل (بابا أحمد) ولحاشيته التي صحبته إلى البرتغال، وهكذا فإن ملك فاس يشكر ملك البرتغال على بادرته وعلى ما فعله بالخديم روساليس، وأنه بواسطة هذا بعث بالأمان الذي طلب إليه لصالح ابن عمه وحاشيته، أما أولاد علي برومومو (Bromomeu) الذين طالب بهم عمه الناصر فإن ملك البرتغال أجاب بأنهم اعتنقوا المسيحية ! بيد أنه سيبعث مع روساليس بولد بولصبع والمغاربة الآخرين الذين ظلوا مسلمين...[2]

وقد تبع هذا -وفي ظروف مماثلة- عقد صلح جديد مع البرتغال عام 940=1534- في أعقاب معركة (أنماي Animai) على مقربة من مراكش بين أبي العباس الوطاسي وبين أبي العباس الأعرج السعدي...

وفي هذا الإطار نفذت رسالة أيضا بتاريخ 9 غشت 1536= 21 صفر 943 "عن إذن عبد الله إبراهيم بن علي بن راشد الشريف لطف الله تعالى به" إلى الكونت كوتينهو دي ريضونضو (Coutinho de Redondo) بأصيلا يتحدث فيها عن الهزيمة التي لحقته ولحقت أصحابه الوطاسيين على يد الشرفاء السعديين وذلك بالوقعة الشهيرة المعروفة (بوقعة أبي عقبة) من تادلة، وكانت الهزيمة عشية يوم الجمعة 8 صفر 943= 27 يويله 1536 على ما تذكره المصادر المغربية.

1) S.I.H.M. Portugal II P. 500-503. Doca.Arab.P.146.

2) المصدر الابق ص 518.

وقد نفذت رسالة أخرى من مولاي إبراهيم إلى الكونت المذكور بتاريخ 29 غشت 1537= 22 ربيع الأول 944 تعرب عن عواطفه... وقد تجدد الصلح بين أبي العباس الوطاسي وبين البرتغال المحتل لآسفي والجديدة وأزمور حيث تم تعيين الحدود بين الطرفين كي يتفرغ الوطاسيون لقتال السعديين.[1]

وقد سجل تاريخ قائد شفشاون مولاي إبراهيم بن علي بن راشد مع والي أصيلا من لدن التاج البرتغالي فترات توتر وفترات انفراج كما أسلفنا، ومما تتحدث به تلك المصادر أن مولاي إبراهيم كان حريصاً، بالرغم من إشتباكاته الحربية - بمشاركة صهره القائد أبي الحسن على المنظري قائد تطوان - ضد المستعمرين بأصيلا المجاورين لحدود إقليمه، كان حريصا على ملازمة حدود المجاملة السياسية في غير أوقات الحروب، فكان يفرج بين الفينة والأخرى عن أسراهم وكان يهادي والي أصيلا الذي كان يتأثر من نبل وشهامة مولاي إبراهيم، وقد حدث أن أرسلوا إليه بعض الأطباء إستجابة لطلبه[2].

وقد أبرمت إتفاقية جديدة للسلام بين ملك فاس وملك البرتغال في صيف عام 1538= أوائل 945 هـ، بعد أن أعطيت الصلاحيات اللازمة من طرف ملك البرتغال لقابطان أصيلا كوتينهو (Coutinho) منذ تاريخ 19 صفر 944= 28 يوليه 1537، كما أعطيت التفويضات من طرف ملك فاس لمولاي إبراهيم بن راشد قائد شفشاون بتاريخ 24 أكتوبر 1537 19 جمادى الأولى 944 لعقد هدنة لفترة إحدى عشر سنة برا وبحرا بالشروط السبعة التي تدخل في حيز التطبيق يوم 24 يونيه 1538= 26 محرم 945.

1) على المغاربة التابعين لملك فاس ومولاي إبراهيم المقيمين في الأراضي المنبسطة حول المواقع البرتغالية أن يؤدوا أتاوة سنوية تتضمن عشر خيول إلى ملك البرتغال !

---

1) S. I.H.M. Portugal TIII P. 49/50.

2) Elainee Sauceau : Ennemi Valeureux, Castelos en Africa.

التازي : العدو الشهم، المناهل 1987.

2) حرية التجارة بين المسلمين والمسيحيين باستثناء الأسلحة والمواد الحربية.

3) منع استقبال السفن المعادية لأحد الطرفين على ميناء كل من الطرفين.

4) مصادرة قطعان السائمة التي تتسرب بدون إذن في المناطق التي ليست لها.

5) إصلاح العطب والخسائر اللاحقة بكل فريق من قبل الطرف الآخر.

6) في حالة إعتداء طرف على الطرف الآخر فإنه تطبق عليه العقوبات الجسدية التي استوجبها دون الالتجاء إلى الجزاءات النقدية.

7) تفرض الغرامات عند الاقتضاء على الذين يهرّبون السلاح من كلا الطرفين إلى الجانب الآخر.[1]

وقد وردت أصداء هذه الاتفاقية البرتغالية في التقرير الذي رفعه قزمان دي هيريرا (Gusman de Herrera) والي جبل طارق إلى إسبانيا بتاريخ مايه 1538= دي الحجة 944 حيث أفاد دولته أن المغاربة الموجودين بضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير وسبتة يخضعون لحكم ملك فاس ولذا فإنه يمكن الاتجار بحرية مع هذه المراكز باستثناء السلاح، والأشياء الممنوعة... وقد شرح التقرير البند الثالث من المعاهدة على هذا النحو : وإذا وردت سفن تركية أو فرنسية أو سفن تابعة لمسيحيين ليسوا برتغالا، على موانئ برتغالية وهي تحمل أسرى أو أرقاء مغاربة للبيع فلا تشتريهم البرتغال، وبالمقابل إذا وردت تلك السفن تحمل مسيحيين برتغاليين فلا يشتريهم المغرب، ويساعد كل طرف الطرف الآخر على الاحتفاظ بالأرقاء[2]...

1) S.I.H. M. Portugal T.III P. 158.

2) المصدر السابق ص 164-165.

وبعد إتفاقية 24 يونيه 1538= 26 محرم 945 نقف على وثيقتين، أولاهما للأمير مولاي محمد أمير مكناس وولد ملك فاس وتتضمن إعطاء الأمر للوكيل البرتغالي الموجود بمعمورة بمصادرة سائر الزرع يباع لكل الدول عدا ملك البرتغال على أن يكون الأداء بالثمن المحدد...

أما الوثيقة الثانية فتتضمن إتفاقية ثنائية بين مولاي إبراهيم صاحب شفشاون وباستياوو دي فاركاش (Bastiao de Vargas) باسم ملك البرتغال على أن يؤدي مولاي إبراهيم ألفي مد من القمح وثلاثة مثقالات ونصف مثقال... وقد حررت الوثيقتان بفاس أول شعبان 946= 12 دجنبر 1539.[1]

وقد ظلت الاتصالات قائمة بين بلاط فاس وليشبونة فيما يتعلق بظهور "الشرفاء السعديين"، وهكذا فبعد أن نقف على رسالة من مولاي محمد إلى جان الثالث بتاريخ 14 شتنبر 1540= 12 جمادى الأولى 947[2] نعثر على رسالة من القائد عبد الله بن سعيد إلى جان الثالث بتاريخ شتنبر 1540 : جمادى الأولى 947 يعبر فيها عن العواطف ويخبر بفشل عسكر الشريف في إحدى المعارك حول حدود تادلة...

وبعد سنة من هذا التاريخ (6 ربيع الأول 948= 30 يونيه 1541) كتب القائد ابن سعيد أيضا إلى جان الثالث يخبره بالحالة الداخلية للبلاد[3]...

وحسب مراسلة من تطوان بتاريخ 26 يوليه 1541= 2 ربيع الثاني 948 فإن السفير فوق العادة لورانصو بيريس دي طافورا (Lourenço Pires de Tavora) ذكر لملك فاس في خطابه الأول أن ملك البرتغال مسرور من الصداقة الموجودة بين التاجين البرتغالي والمغربي، وأن العاهل البرتغالي مرتاح جداً من عقد السلام المبرم بين الدولتين بتاريخ 24 يونيه 1538= 26 محرم 945 وأنه يرغب في أن يستمر الحوار مفتوحا بين البلدين لدعم علاقات الجوار، وأنه مراعاة لأواصر

1) S.I.H. M. Portugal T. III P. 231.

2) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص 270 كذلك المجلد الأول : فرنسا - السعديين ص 167.

3) S.I.H.M. Portugal T.III P. 452.

السلام الموجودة بين الجانبين فإن ملك البرتغال رفض أن يرضخ لمطالب الشريف السعدي بيد أن هناك شكوكاً تخامر العاهل البرتغالي حول نجاحه في مقارعة "العدو المشترك" فإنه، حسب الاتفاق المبرم بين الطرفين، على السلطان بفاس أن يعلن الحرب ضد الشريف! وعلى ملك البرتغال أن يمده بإرسال الكتائب اللازمة شريطة أن يقوم ملك فاس بتموينها وتعهدها. وإن الملك جان الثالث يتوقع وصول نجدات من ملك فاس في حالة هجوم وشيك على المواقع البرتغالية من قبل الشريف السّعدي، بيد أن ملك البرتغال قلق من أن ملك فاس ما يزال مترددا في تنفيذ هذا البند من الاتفاقية! لقد احتُل حصن صانطاكروز من طرف جنود الشريف السعدي بعد الحصار الطويل وبدون ما أن يتدخل ملك فاس بصفةٍ أو بأخرى[1]... !

وقد كان من جملة جواب ملك فاس على الخطاب الأول لطافورا أن في نيته أن يعد العدة لمقاومة الشريف في شهر مايه من السنة القابلة (1542=949) وأنه يهيء ثلاثين ألف فرس وحينئذ يتوجه لحربه بمساعدة الجيوش البرتغالية[2].

ومن هنا كان خطاب تان من طافورا (Tavora) إلى ملك فاس يقول فيه : "إذا كان ملك البرتغال لم يخضع لمطالب "الشريف" فإن ذلك كان فقط بدافع الإخلاص والوفاء للالتزامات المقطوعة لملك فاس، وأن ملك البرتغال بشعر حقيقة بخيبة عندما علم أن سلطان فاس لايتمكن في هذه السنة بالذات من مهاجمة الشريف! ولذلك فإن ملك البرتغال سيبعث بسفير فوق العادة لملك فاس، علاوة على المحادثة الجارية بواسطة السفير المقيم ذي فاركاش (De Vargas). إن ملك فاس لم يتحدث عن الالتزام بتموينه للجيش البرتغالي ولذلك فإن ملك البرتغال يطالب برهائن حتى يبعث بقطع من جيشه[3]...!

وقد كان جواب ملك فاس على الخطاب الثاني لطافورا أنه أي الملك مستعد لتموين الجيش البرتغالي بيد أن الوعد كان منذ سنتين أما اليوم فإن المحصول الزراعي في المغرب كان سيئاً.. !

---

1) المصدر السابق ص 476

2) المصدر السابق ص 479

3) S.I.H.M. Portugal III P. 482.

وفيما يتعلق بالرهائن المطلوبة فإن الملك يقبل المبدأ شريطة أن يطمئن على أنه سوف لن تعقد هدنة مع الشريف السعدي لحساب ملك البرتغال...!

وإن هذه المرحلة من التاريخ هي التي تحدثت عنها رسالة المستشرق نيكولا كلينار من جامعة لوفان (بلجيكا) بتاريخ 21 غشت 1541= 28 ربيع الثاني 948. وكان يقيم بفاس لتحسين معارفه، فلقد أخبر عن وصول سفير من البرتغال لفاس يقيم منذ بعض الوقت في المعسكر على مقربة من سلطان فاس إلى آخر ما ورد في رسالته[1]... وقد كان كلينار يقصد إلى طافورا دون شك...

وقد حفظت رسالة بتاريخ 23 أكتوبر 1541= 3 رجب 948 من أمير بادس (Velez) مولاي بوحسون إلى جان الثالث يعبر عن عواطفه سواء باسمه الخاص واسم رعيته أو باسم ملك فاس ومدينتها. ويشير فيها لمقام دي مونطويا (Montoya) متصرف أصيلا عنده...[2]

وقد ورد في رسالة مؤرخة يوم 3 يناير 1542= 16 رمضان 948 كتبها سفير البرتغال المقيم باستياوو دوفاركاش إلى جان الثالث يقول فيها من جملة مايقول :

أثناء سفارة طافورا بفاس حاول ملكها أن يفاوض الشريف السعدي بواسطة أحد رجال الدين وقد أخفقت المفاوضات بسبب موقف الشريف وأخيه محمد الشيخ. وقد أحدث هذا التشدد استياء كبيرا لدى أعيان فاس ضد الشريف، وتضيف رسالة السفير البرتغالي إلى هذا تبليغ أصداء عن الأخبار المفصلة التي وصلت لفاس عن فشل الامبراطور شارلكان ملك إسبانيا في قهره للجزائر (أكتوبر 1541) وأن ذلك الفشل أحدث إرتياحا كبيرا بين أهل فاس حتى لتتحدث الاشاعات عن مصرع الامبراطور الاسباني ! ومما تعرضت له رسالة السفير المذكور أن قائد شفشاون محمد بن علي بن راشد يشيع أن البرتغاليين يستعدون لترك (القصر الصغير) قائلا إن أهل الأندلس يفكرون في احتلال المكان إذا ما تركه البرتغاليون[3]...

1) Correspondance de Nicola Clénard publiée par Alphonse Roersch, Bruxelles.
2) S.I.H.M. Portugal III P. 538.
3) S.I.H.M. T. IV P. 1-2.

ونتتبع نشاط سفير البرتغال بفاس (فاركاش).. فنعثر على رسالة أخرى منه إلى جان الثالث بتاريخ 5 يناير 1542= 18 رمضان 948 يخبر فيها ملك البرتغال بأن سفيرا ورد على فاس من حاكم ولاية المغرب الأوسط حسن آغا الذي كان له ضلع في دحر الإمبراطور شارلكان عن تلك الديار... بيد أن سفير البرتغال لم يكشف عن طبيعة مهمة المبعوث التركي[1]...

ومن الطريف أن نجد رسالة من فاس كتبها أيضا فاركاش إلى جان الثالث بتاريخ 30 مارس 1542= 3 ذي الحجة 948 يقول فيها : إ ن أخبارا وردت عن طريق الحجاج المغاربة تفيد أن البرتغاليين تحركوا أخيرا في البحر الأحمر[2]، ومن جهة أخرى فإن هذه الأخبار تنقل أن المسلمين في الإسكندرية يهيئون العدة لمنع الامبراطور شارلكان من التغلب على الجزائر...

وفي رسالة تالية من فاس بتاريخ 8 أبريل يردد صدى الأخبار الواردة على فاس من الحجاج كذلك حول انتصار البرتغاليين في طور [3] (Tor) الذي ترك أثرا سيئا في وسط المسلمين، وقد أخذ يتأكد أن ملك فاس ينوي -على العكس مما هو متوقع- محاربة البرتغال وأنه يهدف من وراء وعده لملك البرتغال كسب الوقت للاستعداد، إن كلا من الجانبين على معرفة تامة من نوايا صاحبه...!

وهكذا لم يكن غريبا أن نقرأ في رسالة من السلطان مولاي أحمد الوطاسي إلى جان الثالث والمحررة بفاس بتاريخ شتنبر 1543= جمادى الثانية 950 رؤوس الأقلام التالية التي تنتهي بفسخ المعاهدة المبرمة بينهما بتاريخ 24 يونيه 1538=26 محرم 945، لقد ذكر ملك فاس بالمفاوضات التي جرت مع جان الثالث بواسطة مولاي إبراهيم صاحب شفشاون والكونت (De Redondo)

---

1) أنظر كتاب "الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية" تأليف عزيز سسامح، ترجمة د. محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت 1409=1989، ص 158. القسم الأول.

2) لقد توجه فعلا يوم 17 أبريل 1541 اسطيفا وودي كاما ابن فاسكودي من كووا (Goa) على رأس قوة هامة مع أخيه لمهاجمة السويس... المصدر السابق ص 36 تعليق رقم 1.

3) الطور ميناء صغير لشبه جزيرة سينا كان يغشى من لدن السفن التي تذهب للسويس وقد أثار هذا الميناء انتباه البرتغاليين، الذين احتلوه وحصنوه، ويلاحظ إلى الآن آثار حصنهم - لاتري، الوثائق ص 257.

حاكم أصيلا، لقد أتبعت بمهمة يعقوب روت (Jacob Rute) في البرتغال ودامت المهمة سنتين تقريبا ولم تنته إلى أي اتفاق، ثم بعد ذلك ورد سفير على المغرب من البرتغال لورانصوبير دي طافورا، وهذه السفارة أيضا لم تكن لها نتيجة عملية... لقد ترك جان الثالث مدينة آسفي وأزمور بحجة تركيز قواته على الجديدة التي يعتبر ميناؤها صالحا للاستعمال في كل الظروف. خلال سنتين ظل ملك فاس ينتظر، دون جدوى، جوابا عن مقترحاته من جان الثالث، إن معاهدة السلام لم يستفيد منها إلا البرتغال لهذا انتقد العلماء والأعيان ملك فاس لإبرامه اتفاقية تنفع البرتغاليين أكثر مما تنفع المغاربة، وأنه نظرا لكل هذه الاعتبارات فإن ملك فاس يخبر ملك البرتغال بأنه يعتبر السلام غير موجود بين الجانبين وهو يشعره بذلك حتى لا يتهم بالخيانة[1].

وفي هذه الأثناء نجد رسالة من أبي حسون من فاس إلى الفونسو دي نوانها (N Oranha) حاكم سبتة بتاريخ 8 نونبر 1547= 25 رمضان 954 يبلغه ما وصله عن هزيمة الشريف، ثم يتحدث عن قضية الأسرى البرتغاليين بتطوان... وتتضمن الرسالة كلمة : (الله مورا لكول) أي الله وراء الجميع[2]...

ومن الرسائل التي لها علاقة بفترة انتقال الحكم من الوطاسيين إى السعديين رسالة بتاريخ 4 نونبر 1547=21 رمضان 954 من فيرديكو (Verdugo) وكاسالا (Caçalla) إلى الأمير دون فيليب (Don Philippe) تتلخص في أن أولاد الشريف السعدي أصبحوا سادة بمكناس وسلا والعرائش وتطوان وشفشاون وطنجة والقصر الكبير، وأن الشريف السعدي كان بنفسه على رأس الحركة التي اتجهت نحو فاس بقصد الإستيلاء عليها، لكنه اضطر للإنسحاب إلى مكناس أمام مقاومة سكان العاصمة، وبهذا الصدد فإن أحمد الوطاسي -الذي اقتصرت سلطته على فاس- كتب إلى ملك البرتغال يطلب مساعدته على نحو ما فعل الامبراطور شارلس كينت (Charles quint) مع ملكي تونس وتلمسان.[3]

1) S.I.H.M. Portugal IV P. 136.
2) المصدر السابق ص 239.
3) S.I.H.M. Esp. T 1 P. 123.

وتوجد رسالة بتاريخ 6 أبريل 1548=20 صفر 955 من القائد أحمد الحسن قائد تطوان - وكانت قد سقطت في يد طلائع السعديين- إلى الأمير دون فيليپ (Don Philippe) يعبر فيها عن عواطفه للأمير المذكور... والرسالة بالاسبانية وتحمل في أعلاها (الحمد لله وحده) وفي ختامها "عبد الله أحمد حسن وفقه الله" [1].

كما توجد رسالة من فاس بتاريخ 2 دجنبر 1548= أول ذي القعدة 955 من الأمير الوطاسي "مولاي محمد أحمد بن الشيخ "المعروف بمحمد القصري إلى ماكسيميليان (Maximilien) ملك بوهيميا (Bohème).

إن الأمير المغربي يذكر في رسالته إلى الامبراطور، أن إسبانيا ما انفكت تمد يد العون لملوك بني وطاس. وأنه نتيجة لذلك، لا يشك في أن ما كسيمليان سوف لا يرفض المساعدة لملك فاس المحاصرة الآن من قبل طلائع السعديين ويضيف أمير بني وطاس : إن البرتغال أعرب عن استعداداه لعون ملك فاس بيد أن الوطاسيين يرون في نجدة الامبراطور جدية أكثر... وتختم الرسالة[2] بأن الحالة الحرجة لملك فاس تقتضي الجواب العاجل على نحو ما ورد في رسالة مماثلة من أبي حسون أمير بادس إلى نفس الامبراطور في نفس التاريخ.

ويحتفظ الأرشيف برسالة أخرى من أبي حسون ملك بادس إلى شارل كينت محررة بنفس بادس بتاريخ 3 يبراير 1549 5 محرم 956 باللغة الاسبانية يعيد فيها إلى الذاكرة الرسائل العديدة التي بعث بها هو وقريبه ملك فاس أحمد الوطاسي لامبراطور إسبانيا لطلب المساعدة ضد طلائع السعديين، لقد تمكن هؤلاء السعديون -بمساعدة الاتراك الذين كان يهمهم بالدرجة الأولى تصفية النظام الوطاسي الموالي لاسبانيا، أقول تمكن السعديون من السيطرة على فاس البالي حيث دخلوها من باب الفتوح يوم الثلاثاء 28 يناير 1549= 28 ذي الحجة 955 بعد أن ضاق السكان ذرعا بأفاعيل الجوع،[3] وبعد أن غدر عدد من الذين كان يعتمد عليهم الأمير الوطاسي... وبما أن

---

1) المصدر السابق ص 126.

2) المصدر السابق، ص 129، تعليق 2.

3) عزيز سامح إيلتير، ج 1، ص 178، ترجمة محمود علي عامر 1409=1989.

العاصمة سقطت في يد الشريف فقد عاد أبو حسون إلى إمارة (بادس) حيث سيظل منتظرا نجدة شارلس كينت... ويلاحظ أنه كتب في أعلى الرسالة باللغة العربية "الله فوق الكل" وبعد التوقيع كلمة " أصلح الله حاله" مع ملاحظة خطأين في تهجي (الكل والحال)[1].

وحسب رسالة محررة بغرناطة بتاريخ 25 يبراير 1549= 27 محرم 956 فإن أبا حسون - الذي كان يهمه جدا أمر سقوط العاصمة فاس- بلغ درجة في الإلحاح للحصول على النجدة، جعلته يعرب عن إستعداداه للتنازل لاسبانيا عن مملكته بادس في مقابلة مساعدة الوطاسيين...

وتأكيدا لهذا نجد رسالة من مليلية بتاريخ 18 أبريل 1549 من حاكم مليلية دورادور (Derador) إلى ماكسيميليان وماري (النمسا)، يخبر فيها بوصول أبي حسون إلى مليلية يوم الأربعاء 17 أبريل مع قائد فاس السابق علي بن شقرون يريد الذهاب إلى ملك إسبانيا[2]...

ثم نجد رسالة من أبي حسون نفسه إلى الإمبراطور ماكسيميليان وزوجته ماري حررها في مالقة بتاريخ 2 أكتوبر 1549= 10 رمضان 956 بعد أن كان وصلها لاجئاً، وقد حملت الرسالة خاتمه، الذي كان يمهر به قراراته[3]... كما نجد من جهة أخرى رسالة قبل 13 مايه 1550= 25 ربيع الثاني من مولاي عمر أمير دبدو إلى جان الثالث يشكره على العون الذي قدمه لحليفه أبي حسون ضد السعديين الذين كانوا يعتمدون على المرتزقة من الأتراك[4]....

ويلاحظ انهيال رسائل التأييد على أبي حسون وبخاصة من قبيلة "بنو توزين" وأولاد أحمد بن ياسين الذين بعثوا إليه سفيرهم موسى بن عمر قبل 13 مايه 1550[5]...

1) S.I.H.M.Esp . T1 P. 142 / 143/151/169.
2) المصدر السابق، المجلد الأول ص 233.
3) المصدر السابق، المجلد الأول ص 363.
4) المصدر السابق، إسبانيا (الأول) ص 204، تعليق 7 حول دبدو ثم صفحة 395، أنظر ابن الوزان عن دبدو.
5) المصدر السابق ص 402.

وتخبر رسالة أخرى من مليلية بتاريخ 13 يوليه 1550= 27 جمادى الثانية صادرة عن أمير دبدو مولاي عمر إلى دوك (ميدينا سيدونيا) يخبر بوصوله إلى مليلية ويجدد عواطفه نحو الدوك، ويذكر أنه لو كان وجد المراكب جاهزة لاتجه نحو إسبانيا لمقابلة ملكها...

ويخبر بأنه اعتمد القائد عبد الله ليحمل إلى البلاط الاسباني وإلى المسؤولين في مالقة رسالة حول الموضوع.[1]

لقد كانت الرسائل من بعض الشيوخ المغاربة تستحث إسبانيا على التدخل ضد السعديين وضد الأتراك الذين يهددون مدينة فاس، ويفضلون أن تحكمهم إسبانيا على أن تسقط بين أيدي الأتراك الذين أصبحوا منذ 942= 1536 حلفاء فرنسا...!

هذا وقد بعث أمير دبدو عمر بتاريخ 22 يبراير 1551= 15 صفر 957 إلي شارلس كينت يخبره بما يفهم منه أن السعديين الذين كانوا اعتمدوا على أتراك الجزائر في تمويل ثورتهم اكتشفوا أن الأتراك يبيتون للاستيلاء على فاس في الوقت الذي كان فيه الشريف السعدي يتوق لضم تلمسان إليه[2].!

وتأتي رسالة من الأميرة ماري زوجة ماكسيمليان إلى مولاي عمر، وهو وما يزال في دبدو تأذن له في الانتقال إلى مالقة والقدوم إلى إسبانيا، ولكن بعدد محدود من حاشيته وحرمه، وكانت الرسالة بتاريخ 18 مارس 1551= 10 ربيع الأول 958.[3]

ويلاحظ أن كلا من أبي حسون أمير بادس، ومولاي عمر دبدو ظلا على اتصال فيما بينهما أملا في استعادة السلطة من يد السعديين في الوقت الذي كانت فيه تقارير الديبلوماسيين القريبين من الأحداث في جبل طارق أو تطوان تؤكد سيطرة الشريف السعدي على الموقف، بل وتردد الشائعات حول عزم السعديين على الإجهاز على الحصون البرتغالية والتقدم نحو سبتة ومليلية والعبور إلى الأندلس!!

---

1) المصدر السابق، المجلد الأول، ص 426.
2) المصدر السابق، ص 540 - عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة عامر، ص 236.
3) المصدر السابق ص 369.

وقد عرفت (مليلية) نشاطا منقطع النظير في هذه الفترة، فقد كانت أخبار المغرب تصل عبرها... وسوف نفتتح هذه الوثيقة التي تحمل تاريخ 20 أبريل 2552= 25 ربيع الثاني 959 لنقرأ فيها هذه المعلومات : خرج مبعوث من مولاي عمر أمير (ديدو) يحمل عددا من الرسائل الموجهة لأبي حسون من زميله ومن الشيوخ العرب الذين كانوا يؤازرونه، وكان من جملة المعلومات القي تحملها تلك الرسائل : أن الشريف السعدي غادر فاسا مطاردا ابن أخيه الذي يغزو درعة، وأن أميرا من بني مرين يسمى (مسعودا) ظهر بالجنوب وهو يهدد مراكش مع عدد من أنصاره ! لهذا كان على الشريف أن يترك فاسا لمساعدة مراكش... وأن مولاي عمر -وقد تناهت إليه هذه الأخبار- أرسل بابنه مولاي المنصور مبعوثا لتلمسان لطلب مساعدة الأتراك بدوره ! وقد علم أنه بتاريخ 7 أبريل 1552= 12 ربيع الثاني 959 دخلت المتوسط زوارق تركية تبلغ ثلاثة عشر بقيادة الرايس درغوت جاءت لتعزيز مولاي عمر ضد الشريف ! ومن هنا اتجهت الزوارق أيضا نحو بادس ثم مضيق جبل طارق... لقد صرح درغوت لقائد تازة، بأنه لا ينوي خدمة تركيا الكبرى بعد أن تحالفت مع الكفار.[1]

ومما له تعلق بهذه الاتصالات نذكر الرسالة التي بعث بها قائد سلا أبو الفرج ورفيقه سعيد ابن مرزوق إلى سلطان بادس أبي حسون بتاريخ 25 جمادى الثانية 950= 18 يونيه 1552، وهي تدل على التعلق الذي كان ما يزال قويا بأنصار بني وطاس...

كان قائد سلا قصد أداء فريضة الحج، ومن مكة اتجه نحو تركيا والشام ومصر، ومن هنا عاد للمغرب عبر الجزائر رفقة صالح رايس حيث لقي هناك بالجزائر سعيد بن مرزوق الذي صحبه إلى مدينة وهران[2]، حيث استقبلا معا من قبل ضون مارتين ابن الكونت الكوديت في محاولة من قائد سلا للاجتماع بأبي حسون أمير بادس وبالامبراطور شارلس كينت من أجل بذل المزيد من العون ضد ظهور السعديين.

1) المصدر السابق ص 646.

2) المصدر السابق ص 655

كما أن مما يتصل ببقايا بني وطاس رسائل أخرى من هذا القبيل تهدف إلى تقفي آثار ظهور السعديين، منها رسالة حررت في مليلية من علي العلج إلى أبي حسون ملك بادس بتاريخ ما بعد 28 مارس 1551= 20 ربيع الثاني 958 محررة بمليلية يخبره فيها بأن مولاي عمر أمير دبدو قدم إلى مليلية حاملا هدية للأمير فيليپ المقيم بمدريد يستميله بها لارسال المزيد من النجدة، ويقول العلج في رسالته : "إنه لو قدم أبو حسون لاستقبل بحرارة في مدينة فاس ويقترح عليه إذا لم يستطع أن يقدم هو أن يبعث بولده مولاي الناصر[1]...

ومن تلك الرسائل رسالة أبي حسون إلى الأمير فيليپ، بعث بها بواسطة ولده وقائده بتاريخ 15 شتنبر 1551= 14 رمضان 958 وبأعلاها على العادة شعاره : "الله فوق الكل" وفي ختامها بعد توقيعه عبارة "أصلح الله حاله"[2] ومنها توصية بتاريخ 5 أبريل 1552= 10 ربيع الثاني 959 من الأمير فيليپ للضباط المكلفين باستقبال أبي حسون أثناء سفره من مدريد، ويتأكد أن أبا حسون لما يئس من مناصرة إسبانيا لقضيته اتجه للبرتغال حيث حصل على عدد من السفن وقصد بها الساحل المغربي[3]....

ويظهر أن أبا حسون كان على درجة قصوى من الحاجة إلى المال الأمر الذي يفسره إلتجاؤه إلى أموال أحباس جامع القرويين على ما تذكره حجج أوقاف هذا الجامع مما ينير بعض الجوانب في التاريخ الدولي للمغرب.[4]

بيد أن السعديين اغتنموا فرصةً سانحة واقتحموا مدينة فاس بصفة نهائية بتاريخ 24 شوال 961= 21 شتنبر 1554 حيث لقي أبو حسون مصرعه، وهنا نرى ولد هذا الأخير مولاي الناصر يكتب من مالقة إلى خوان فازكير (Juan Vasquez) بتاريخ 31 يناير 1555 وكان قد وصلها منذ ستة أيام على نية الالتجاء إلى وهران... ورسالة الولد كرسالة الوالد تحمل في أعلاها شعار "الله فوق الكل" وفي أسفلها "أصلح الله حالة"...

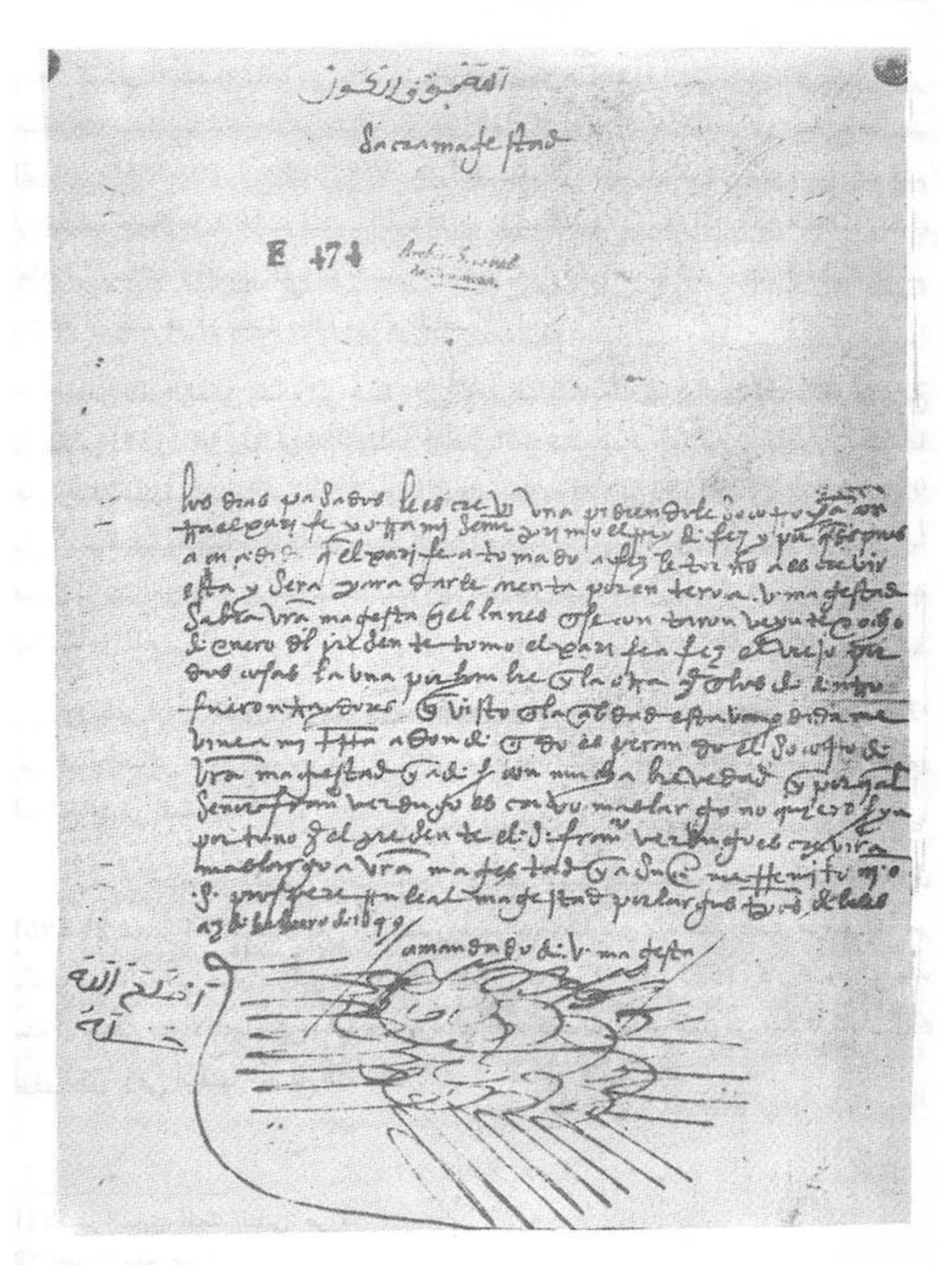
---

1) المصدر السابق، المجلد الثاني، ص 1.

2) المصدر السابق ص 7

3) كان مما احتفظت به أرشيفات إسبانيا رسالة شكر (بتاريخ 20 أكتوبر 1551) توجه بها الأمير فيليپ إلى مولاي عمر على هديته .S.I.H. M Esp. T.2 P.9.11

4) التازي : تاريخ جامعة القرويين ج 2، ص 461-477.



رسالة أبي حسون أخي محمد البرتغالي أمير بادس إلى (Charles Quint)
مكتوبة في (بادس بتاريخ 3 يبراير 1549) (بالإسبانية).
في أعلى الرسالة : (الله فوق الكلّ) وبعد التوقيع : أصلح الله حاله.

الفصل الثالث

علاقات البرتغال بالمدن المغربية المحتلة

- **مع آسفي** 886-913=1481-1508

مراسلات زعماء المدينة مع ملوك البرتغال... الذين كانوا يضربون زعماء فاس بآسفي !!

- **مع أزمور** 891-1919=1486-1513

نوع الاتصال بين الأهالي والتاج البرتغالي

- **مع البريجة (مدينة الجديدة)** 907=1502
- **مع مشتراية** 908=1502
- **بين ماسّة والبرتغال** 902=1497

علاقات البرتغال بالمدن المغربية المحتلة...

إذا كانت علاقات البرتغال بأمراء الأقاليم المغربية المستقلة على نحو ما قدمنا فإن علاقتها بالمدن المغلوبة على أمرها كانت تتسم بطابع آخر : طابع التختل والإلتواء والبراعة في تطبيق مبدإ "فرق تسد!"!

لقد كانت تلك المدن تجد نفسها أمام عدوٍ يفوقها عدةً وخبرة لكنها مع ذلك لا تذخر جهدا في الإعراب عن أحاسيسها بطريقة أو بأخرى، الأمر الذي يمكن أن نستشفه من خلال مجريات الأحداث التي نحاول أن نقدم صورة مختصرة لها...

مع آسفي 1481=886/913=1508

بدأت الاتصالات مع آسفي بالوسائل المعهودة التي يسلكها المستعمر حينما يعتمد على تصدع الصفوف الداخلية في البلاد !! وقد وجد الحسن ابن الوزان في مأساة أسفي مثلا على هذا...

وإذا ما رجعنا إلى الوثائق الأجنبية فسنجد أن بسط السيادة على آسفي كان قبل تاريخ 28 غشت 1481= 3 رجب 886 الذي هو تاريخ وفاة الفونص الخامس[1].

وهكذا فمن خلال رسالة من جان الثاني إلى قائد آسفي وسكانها بتاريخ 16 أكتوبر 1488= 10 ذي القعدة 893 نقرأ الإخبار بوصول يحيى الزيات ابن أخي القائد أحمد بن علي قائد آسفي يحمل معه رسالة اعتماد عن القائد المذكور، وقد ذكّر يحيى الزيات ملك البرتغال نيابة عن عمه بأنه هو ومدينة أسفي كان موالياً للملك الراحل ألفونص الخامس، وأنه كان توصل منه برسالة ومنذ وفاة ألفونص الخامس فإن مدينة أسفي ماضية في ولائها لملك البرتغال...

وهكذا أكد جان الثاني للقائد أحمد بن علي صفته الاقطاعية على المدينة كما أكد له اعتباره مواطناً تابعا للتاج البرتغالي وأن من يخلفه في المستقبل يجري مجراه في التبعية للبرتغال على ما هو الشأن أيضا في سكان المدينة، وقد أرسل جان الثاني للقائد أحمد بن علي بعلامةٍ للتنصيب : رايتان وطبل، وقد طلب إلى القائد أن يعاهد على هذا بأداء القسم لكي يقوم بواجباته نحو الملك وينفذ حرفيا وبحسن نية، سائر الالتزامات، كذلك على سائر الأعيان في المدينة أن يؤدوا مثل هذا اليمين، ويتبعهم في ذلك أفراد الشعب...

وبالإضافة إلى هذا يؤدي سكان آسفي كل شهر شتنبر ثلاثمائة مثقال ذهبي أو قيمتها شمعا أو أي بضاعة أخرى إضافة إلى فرسين اثنين أصيلين، ويلتزم قائد المدينة بتأمين السكن لكل الواردين من البرتغال في مهمات رسمية أو تقديم قطعة من الأرض لبناء أماكن لإقامة الواردين متى اقتضت المصلحة ذلك وبالمقابل فإن للواردين من أسفي على البرتغال أن يتمتعوا بنفس الحقوق.

(1) S.I.H.M.Portugal T. 1. P : 25 (P. de Cenival) Villes et tribus du Maroc T IIP46.
أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور دار الثقافة، الدار البيضاء 1404=1984، ص 173 وما بعدها.

كانت الرسالة بخط الترجمان محمد الرعيني وقد صدرت بكلمة "دون جون بنعمة الله" كما وقفت على أصلها في الأرشيف الوطني بلشبونة (طورّي دي طُومْبو)[1]... Torré Di Tombo.

ولم يلبث السكان أن أخذوا يتذمرون من بعض القواد المنصبّين عليهم من قبل البرتغال مطالبين بتعيين أكفاء نزهاء، وهكذا التمسوا من الملك إيمانييل الأول بتاريخ 31 غشت 1507= 22 ربيع الثاني 913 أن يسمى قائدا عليهم (يحيى أوتاعفوفت) عوض علي بن وشمان[2]...

ويتأكد أن اختلاف المواطنين فيما بينهم هو الذي أدى إلى احتلال أسفي كلية سنة 1508=913 على ما نقرأه عند ابن الوزان...

وقد وقفنا على رسالة من دون إيمانييل الأول محررة في مدينة يابرة (Evora) بتاريخ 4 مايه 1509= 14 محرم 915 يعد فيها يهود آسفي بعدم طردهم من المدينة وعدم إرغامهم على اعتناق المسيحية بالقوة... وإذا تعلقت الإرادة الملكية بطرد اليهود من أسفي فإن على البلاط البرتغالي -تقول الرسالة- أن يخبرهم بسنتين قبل من أجل الاستعداد للرحيل[3]...

وقد احتفظ الأرشيف الوطني في ليشبونة بصورة للرسالة الطويلة العريضة التي رفعها سكان المدينة إلى إيمانييل الأول بتاريخ 2 يوليه 1509= 14 ربيع الأول 915 والتي تعالج بعض مشاكلهم المزمنة[4]!!

ويظهر أن يحيى أوتاعفوفت) أمسى بمرور الزمن يحسب له الحساب... وبهذا نفسر رسالة إيمانييل إليه أي إلى يحيى بتاريخ غشت 1514= رجب 920 وكان هذا قد رفع شكوى بالضابط البرتغالي (Fernan des de Ataide Nerno) إلى إيمانييل الذي طلب إلى يحيى أوتاعفوفت الالتحاق فورا بالبرتغال لأنه أي الملك يريد أن يكون على علم تام بما يجري في آسفي، وعلى علم تام بوجهة نظر يحيى حول المدينة وحول الوضع في المغرب عموما.[5]

---

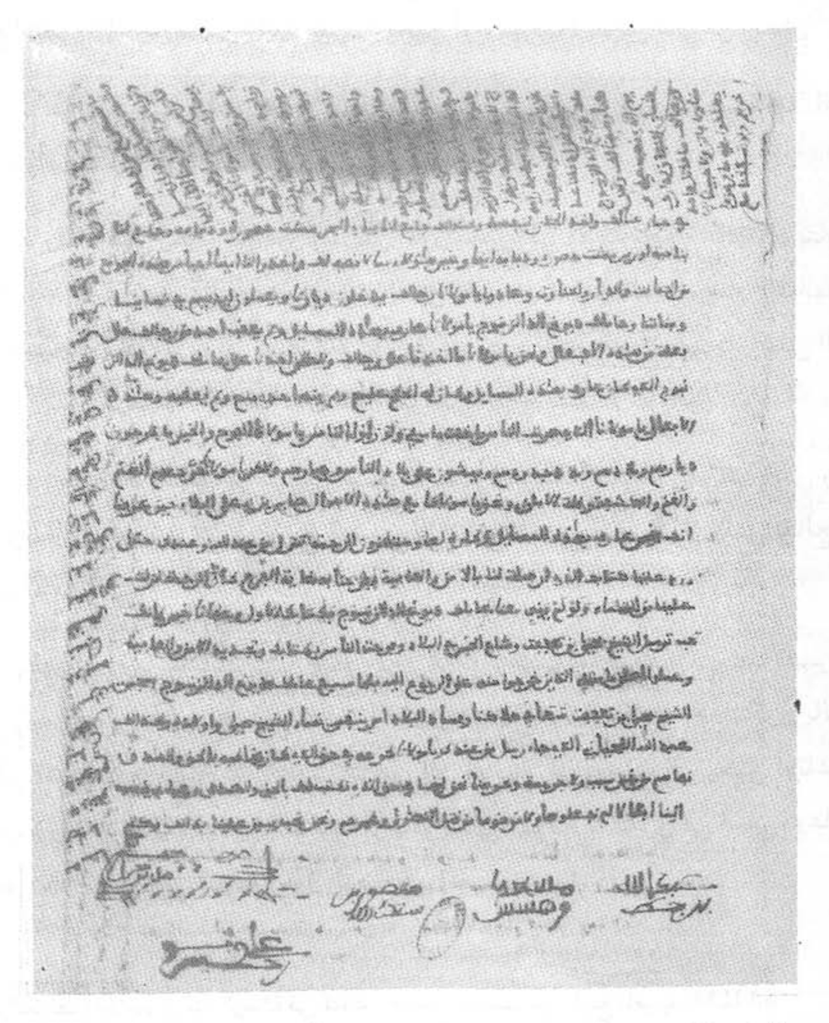
1) أورد الكونط دوكاستري هذه الرسالة في كتابه : مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب..S.I.H.M.

2) يراجع كتاب وصف إفريقيا لابن الوزان عند حديثه عن آسفي...

3) S.I.H.M. Portug TI, P.174.

4) S.I.H.M. Portug T1, P 178 J. de Sousa : Docum. Anabi p.11-24.

5) المرجع السابق ج 1، ج 2، البرتغال إضافة إلى ابن الوزان الذي اجتمع بيحيى شخصيا...



الصفحة الأخيرة من الرسالة التي وقفت عليها في الأرشيف الوطني في ليشبونة ...

ومن الأمثال المغربية التي وردت في الرسالة :

«والقط مع الفار -يا مولانا- ما يسكن في غار واحد !!»

ولم يكن البرتغال يبرم أمرا أو ينقضه دون العودة الاستشارية إلى الكنيسة فهي التي كانت تدعمه منذ البداية، وعن تعليماتها ينطلق حتى في الأشياء الصغيرة لكي يكون كل تصرفاته "مشروعة"...

وكدليل على ذلك نفتح هذه الرسالة التي كتبها إيمانييل الأول إلى سفير البرتغال بروماميگيل دا سلفا Miguel da Silva بتاريخ 11 مايه 1517= 19 ربيع الثاني 923 وهي تتضمن تعليمات كان عليه أن يتحرك على ضوئها لمقابلة الكرسي البابوي...

وهكذا فتبعا للمثل الذي كان يحتذيه جان الثاني عندما كان يقدم لبعض المغاربة الذين يخدمون مصالح البرتغال جملة من الهدايا الحربية : خودات، سيوف، رماح، زرود، دروع... بعد حصوله (أي جان) على إذن خاص من البابا ليقوم بمثل تلك المبادرات... تبعا لذلك قام إيمانييل بتكليف سفيره بأن يلتمس من قداسة البابا تجديد الأذن له بتقديم هدايا من هذا النوع للمغاربة الذين سيرون في ركاب التاج البرتغالي.. إن الغزو ضد المغاربة اتخذ طابعا غيره طابع الأمس، فإن ملك البرتغال اليوم يوجد تحت سلطته عدد من القواد يقومون بنفسهم بمحاربة المغاربة المتمردين علينا!! وهذه حالة آسفي بالنسبة ليحيى أوتاعفوفت حاكم دكالة من قبل الملك، فمنذ شهر يناير 1517= ذي الحجة 921 هزم يحيى في مرتين متواليتين أمير مراكش الذي تولى من قبل الأشراف السعديين الذين ظهروا على الساحة. كما هزم الشريف السعدي أحمد الأعرج ! من أجل هذا فينبغي أن نقدم لهذا المغربي السلاح اللازم من أجل ضمان الوجود البرتغالي، وتختم الرسالة بتأكيد طلب الملك إلى البابا أن يمنح الإذن بإعطاء يحيى أوتاعفوفت كلّ ما يتطلبه الحال وكذلك لسائر القواد أمثاله[1]...

وقد تحرج موقف يحيى أوتاعفوفت عندما طالبه ملك فاس بتسليم ولده رهينة وإلا فإنه أي ملك فاس سيزحف على دكالة ! وهنا تكاثرت الثورات على يحيى من كل جهة الأمر الذي دفع به إلى تطيير خطاب بتاريخ 1 غشت 1517= 13 رجب 923 إلى إيمانييل يطلب إليه أن يأخذ له بحقه من ملك فاس[2]...

1) المصدر السابق 2، قسم أول ص 82
2) المصدر السابق 2، قسم أول ص 95

وبهذا نفسر اتجاه الجيوش البرتغالية الجرارة نحو العاصمة فاس لمحاولة تركيع ملكها ! وكان هذا مما أرعب بعض الزعماء من أمثال عبد الرحمن بن حدو الذي توجه برسالة إلى "سلطان برتغال ودكالة وقَلِقُوت" (بالهند) إيمانييل الأول الذي كان في قتال ملك فاس طوال بضع سنوات، كتب إليه بعد يناير 1529= جمادى الأولى 935 يعلن ولاءه...[1]

لقد ظلت (فاس) شجى في حلقوم البرتغال ومن كان وراء البرتغال من رجال الدين...!!

وقد نصت رسالة مؤرخة يوم 7 أكتوبر 1534= 28 ربيع الأول 941 وجهها الأسقف ذي لاميكو إلى ملك البرتغال يوحنا الثالث يوصيه بالتخلي عن أسفي وأزمور وأكادير ليتوجه بكليته جميعها لاحتلال مدينة فاس باعتبارها المفتاح الأول للمغرب[2]...!

وفي رسالة أخرى لأحد النبلاء إلى الملك يحضه على استشارة البابا ويؤكد له أن احتلال المغرب لا يمكن أن يتم إلا بالبدء من فاس ومراكش، على ما أسلفنا كذلك[3].

وتنصح رسالة أخرى الملك أن يقلل من مصاريف البلاد للبدء باحتلال العاصمة كما أسلفنا أيضا.[4]

ولكن هل إن أسفي ومثيلاتها كانت حقا ترضى حياة التبعية للتاج ؟ إن الجواب عن هذا السؤال يمكن أن نجده في الرسالة التي رفعها مختلف سكان أسفي قاطبة إلى جان الثالث بتاريخ 9 يوليه 1541= 15 ربيع الأول 948 ضد تصرفات القابطان الذي كان يمثل البرتغال رودريكو دي كاسطرو (D. Rodrigo De Castro)، فقد ورد فيها "إن كل الهفوات يمكن تصليحها إلا هفوات العسكريين، وأنه يجب على المرء أن يعامل الرجال لا على أنهم حيوانات ! وتختم الرسالة بالتهديد بمغادرة المدينة نهائيا فرارا من الظلم اللاحق بالمواطنين من البرتغال[5]..."

1) المصدر السابق 2، قسم أول ص 232.
2) المصدر السابق (S.I.H.M) المجلد الثاني، القسم الثاني صفحة 656.
3) المصدر السابق (S.I.H.M) المجلد الثاني القسم الثاني 671
4) المصدر السابق (S.I.H.M) المجلد الثاني القسم الثاني القسم الثاني ص 680.
5) S.I.H.M المجلد الثالث ص 464.

مع أزمور 891=1486/919=1513

لقد بسطت السيادة البرتغالية على أزمور منذ عام 981=1486 بعد معارك بحرية وبرية عنيفة صورها لنا الحسن ابن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا"...

ونجد رسالة من جان الثاني إلى سكان أزمور بهذا التاريخ تتحدث عن نص الاتفاقية المبرمة عام 1486 بين جان وبين سكان أزمور.

وقد احتفظ بنص الاتفاقية المذكورة على ثلاثة أشكال مختلفة :

أولا : الرسائل المؤرخة في 3 يوليه 1486= 1 رجب 891 وبمقتضاها يتعهد جان الثاني بحمايتهم، واعتبارهم من رعاياه.

ثانيا : تعديل الاتفاقية من طرف سكان أزمور في شكل رسالة موجهة إلى جان الثاني يحددون فيها شروط الوفاق بتاريخ 16 غشت 486 = 15 شعبان 891.[1]

ثالثا : تجديد من قبل إيمانييل الأول في إسطريموز (ESTREMOZ) بتاريخ 12 يناير 1497= 8 جمادى الأولى 902 لعدد من الرسائل المصادق عليها من قبل جان الثاني للازموريين، وهذه الرسائل تعيد تأكيد نصوص الرسائل المحررة في 3 يوليه 1486= 1 رجب 891.

ويتأكد أن البرتغال أصبح بعد هذه الاتفاقيات يمارس سلطته كاملة على أزمور، وقد تجلى ذلك في الوكلاء الذين كانوا يردون من ليشبونة إلى المدينة بصفتهم حكاما عامين...

وقد وقفنا على بعض الرسائل التي رفعها أعيان "الشرقية" مثلا إلى إيمانييل الأول حوالي دجنبر 1502= جمادى الثانية 908 وفيها يقدمون شكواهم بوكيل العاهل البرتغالي باعتبار أن تصرفاته قد تهدد مصلحة الامبراطورية البرتغالية وهم يطالبون باستبداله بشخص آخر...!

---

1) هذه التعديلات محفوظة في :

Archives de la Torre de Tompo, Gaveta 2. Maço 1 N°7 Villes et Tribous du Maroc T.II P.46

S.I.H.M. Portug T.1.P.9.

ويوجد نص الرسالة بالعربية بتوقيع سالم بن عمر[1]... لكن هذه الشكايات كانت تقابل من طرف التاج في أكثر الأحيان بالإهمال التام...

وقد حدث هذه الأثناء أن جهز إيمانييل أسطولا عظيما للانتقام من أهل أزمور كان بقيادة ج. دي ميندس (Jeao de Mendes) فسببت العواصف ضياع بعض السفن من الأسطول واستولى المغاربة على ما فيها وأجهزوا على بعض البرتغاليين، وهنا اشتدت نقمة البرتغال، فاتجه بعض القادة في أزمور -حقنا لدماء المواطنين- إلى طلب العفو من الملكة دونيا مارية، فعفا عنهم الملك وبعث لهم برسالة حررها ترجمان ديوانه عبد الله الرعيني "في حضرة أجبوة (الشبونة) بتاريخ 22 أبريل 1504 ذي القعدة 910...

بيد أن هذا الحوار بالرغم من حيفه ونفاقه لم يدم فقد تكالب البرتغال وكثرت مطامعه ولذلك نراه يشنُّ هجومه العسكري بادئ الأمر سنة 1508=914....

وتعبيرا عن الغضب الذي كان يساور أهل المنطقة أخذوا يدافعون عن بلادهم بكل ما يقع تحت يدهم حتى بتوفير خلايا النحل وقذفها كسلاح على المهاجمين على ما أسلفنا !

ونرى من الفائدة أن نشير إلى الدور الذي قام به الأمير الوطاسي مولاي زيان ابن محمد الحلو أخي محمد الشيخ ونائبه بمكناس وقائده على الشاوية وحاكم أزمور ...

كانت له صلات مع إيمانييل الأول الذي اجتمع به في لشبونة، وكان من اتفاقيته التجارية مع البرتغال تسليم عشرة آلاف شابلة على ما يؤكده الكونط دوكاستري في مقدمة موسوعته.

لكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين الجهتين... وهكذا وجدنا أن أولاد زيان يوخذون إلى البرتغال ! الأمر الذي تكشف عنه رسالةُ علي ابن سعيد الهنائي الذي كان يتولى شؤون الأمير مولاي زيان الوطاسي وهي بتاريخ أول شعبان 915= 14 نونبر 1509 وقد بعثها إلى إيمانييل...

---

1) المصدر السابق، المجلد الأول ص 83.

ARCH.NATI de la Torre de Tombo S.I.H.M.T1 P.95-69 Joao de Sousa : Docum Arab p. 6-10.

وتتلخص رسالة الهنائي إلى التماس إرجاع "أولاد زيان" لأنه، أي زيان، عندنا وعند المسلمين بمقام عظيم، إن سيدنا زيان يستحق العذر، **إن الملوك للكبار نصرة وللصغار رحمة**...[1]

وقد جند البرتغال نفسه مرة ثانية عام 1513=918-919 وكان أسطوله هذه المرة يبلغ خمسمائة قطعة بقيادة دوك دوبراكانس (Duc de Bragance) الذي زحف من الجديدة إلى أزمور بجيش قوامه ثمانية عشرة ألف جندي !

وهنا أصبحت المدينة تعيش تحت حكم عسكري أسوأ وألعن ودخلت البلاد في سلسلة جديدة من المتاعب والمصاعب...

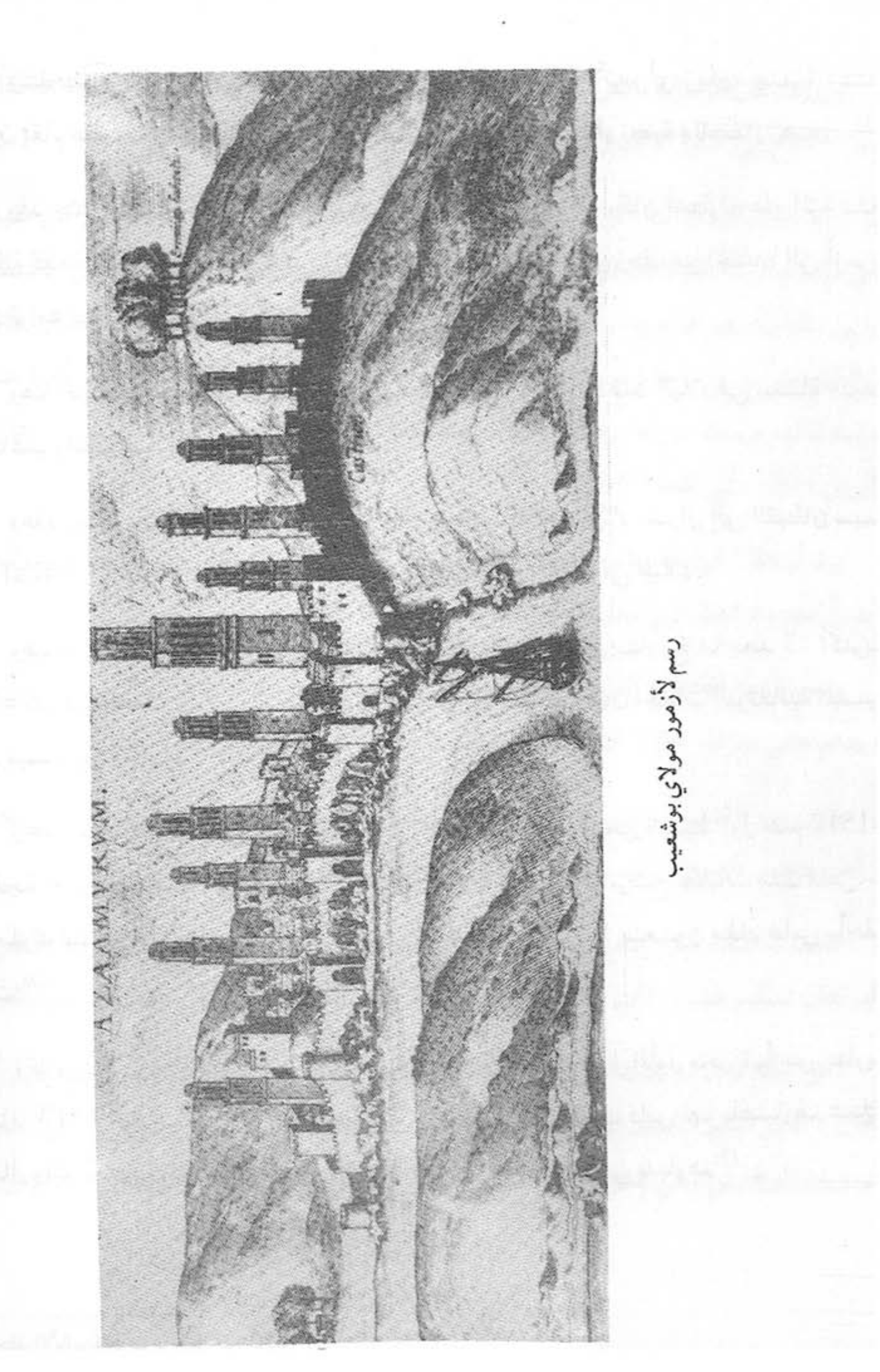
وهذه رسالة بعيد 29 غشت 1516= 30 رجب 922 من أولاد عمران إلى القبطان سيما كاريه (Sima Carrèa) حاكم أزمور تعبر عن بعض مظاهر الحياة في البلاد.

وهناك رسالة أخرى من شيوخ (الشرقية) إلى إيمانييل الأول بتاريخ ما بعد 3 أكتوبر 1516= 28 ذي القعدة 921. وقد قام بدور الوسيط بين شيوخهم وبين الجهات البرتغالية المسمى سيدي ميمون بن أمجوط[2].

ونجد رسالة من المسمى حمو أمركس إلى القابطان كاريه (محررة بتيط أول عام 1517= ذي الحجة 921 يخبر فيها القابطان المذكور بأن الشاوية رفضت أن ترضخ لطلبات ملك فاس... وكان ملوك فاس -على ماأسلفت- ضد زعماء دكالة الذين كانوا ينعتون ملك فاس بأحقر النعوت![2]

وقد ورد في رسالة من يحيى الديب -وهو يهودي- إلى إيمانييل الأول محررة بأزمور بتاريخ 25 يناير 1517 يعرب فيها عن تخوف دكالة وأزمور من غزو ملك فاس لهم باعتبارهم عملاء للبرتغال وأنه يحثهم على تقديم العون للاجهاز على الوجود البرتغالي بديارهم[3]

1) المجلد الأول، مغرب برتغال ص 250.
2) المصدر السابق المجلد الثاني، القسم الأول ص 41.
3) المصدر السابق، المجلد الثاني، القسم الأول ص 50.



رسم لأزمور مولاي بوشعيب

وقد ورد في رسالة أخرى من سكان أزمور إلى جان الثالث في ربيع 1529 رفع عقيرتهم بالشكوى من معاملة حاكم أسفي لهم علاوة على ما يلقونه من مضايقة أهل سلا التابعين لملك فاس، ومضايقة ملك مراكش كذلك... والرسالة تهدد بأن سكان أزمور سيعتبرون أنفسهم في حل من التزاماتهم مع ملك البرتغال إذا لم ينصفهم من الحكام الذين يبعثهم لأزمور[1]!

مع البريجة 907=1502

أما عن الجديدة أو (البريجة) فإننا نجد آثار الاحتلال البرتغالي فيها من ثاني دجنبر 1502= 22 جمادى الثانية 907 عندما رفع المواطن الجديدي بوسبع وسالم بن عمر إلى إيمانييل الأول رسالة تتضمن شكايات ضد المفوض البرتغالي رُوي جيل (Rui Gil) وكيل الامبراطور في مدينة الجديدة، وكان يتصرف ضد ما تقتضيه المصلحة...[2]

وقد كانت مثل هذه المواقف من المغاربة تعتبر لدى التاج البرتغالي غير لائقة ! فحسبهم أي المغاربة أن يقبلوا من نصب عليهم دون تتبع ولا نقد ولا تعقيب !!

ولهذا لا نستغرب الصدام بين الطرفين... ولا نستغرب تجهيز دوك دوبراكانص (Duc de Bragance) على رأس أسطول يتألف من خمسمائة باخرة تحمل ثمانية عشرة ألف جندي لاقتحام مدينة الجديدة.... ليأخذوا طريقهم فيما بعد نحو أزمور على نحو ما جاء في الرسالة الهامة التي رفعها إيمانييل إلى البابا ليون العاشر من لشبونة بتاريخ 30 شتنبر 1513= 11 ربيع الأول 940.[3]

---

1) المصدر السابق، المجلد الثاني، القسم الأول ص 59.

2) المصدر السابق، المجلد الثاني، القسم الثاني ص 462.

3) De Sousa. Docu. Arab P: 30 - S.I.H.M. Portugal T 1 P 74.

مع مشتراية 908=1502

وقد احتفظت الوثائق برسالة من أشياخ مشتراية أو مشَترايَة (Mechenzaya)[1] إلى إيمانييل الأول بتاريخ 3 جمادى الأولى 908= 4 نونبر 1502 وذلك بعد أن وصلهم يحيى الزيات طالبا إليهم أن يخضعوا لسلطته إذا هم أرادوا ضمان حياتهم من قبل ملك البرتغال.

لقد كان للدسائس الاستعمارية الأجنبية أثرها على توزع شيوخ القبائل وتناحرهم واستعانتهم في التالي بملك البرتغال حتى ضد مملكة فاس ومملكة مراكش !!

بين ماسة والبرتغال 1497=902

ولم تقتصر أطماع البرتغال على المواقع الشمالية ولكنهم نزلوا نحو الجنوب المغربي حيث الموانئ التي تسامت جزر كناريا والتي تشمل المنطقة الممتدة من أكادير إلي واد نون...

وهكذا سلطوا سلاحهم المعتاد : التفرقة بين الناس، واستغلال العناصر الضعيفة وإغراؤها أحيانا وإرهابها حينا آخر لحملها على الرضوخ والاستسلام...

ونشير هنا إلى الرسالة التي بعثها إيمانييل الأول إلى سكان ماسة وهي محررة في إسطريموز (Estremoz) بتاريخ 11 يناير 1497= 6 جمادى الأولى 902...[2]

لكن قادة ماسة لم يلبثوا أن اصطدموا بالمفوض البرتغالي وتضايقوا من مناصرته للرعايا البرتغاليين المقيمين في ماسة والذين تطاولوا على المواطنين الأصليين.

---

1) هي في الأصل (مشتزاية) وقد عربت إلى مشتراية... ومن هناك كتب اللفظ بالوجهين عند طائفة من المؤلفين. أنظر ابن عسكر في دوحة الناشر، وابن القاضي في لفظ الفرائد.. وكذلك ما كتبه أبو القاسم الزياني وصاحب ابتهاج القلوب... وكتبه على الصيغتين صاحب السلوة، 2، 78 ... وجاء في سجل الضرائب البرتغالي كالتالي: "مسنجاية" (Mycenjayas)...

S.I.H.M. Portugal T1 p. 70 Not 1.

2) S.I.H.M. Portugal. T 1 P : 13-32

وهكذا بعثوا برسالة محررة بماسة إلى إيمانييل الأول بتاريخ 28 ربيع الأول 916= 6 يوليه 1510 على إثر خلاف شب بينهم وبين المفوض... وأرسلوا باعزيز لدى الامبراطور البرتغالي وحملوه مهمة إرجاع العَلَم ورسالة البيعة ومفاتيح المفوضية للتاج البرتغالي، فإن أهل ماسة لايقبلون حمايته..! فإذا كان يرغب في الاحتفاظ بهم فلينصفهم وليحمهم من أعدائهم الذين يتطاولون عليهم في بلادهم وأنهم سيتوجهون إلى جهة أقوى، تضمن احترامهم ولو كانت تلك الجهة يهودية!![1]

لقد تمخضت علاقات البرتغال بالمدن المحتلة عن عدد من المآسي لا يمكن أن تقارن بالفوائد القليلة والقليلة جدا مما كان بعض المواطنين يستفيدون منه أحيانا...

وفي حديث ابن الوزان عن نمط الحياة الاجتماعية عند المغاربة أشار لمجاعة 918=1513 التي تسببت في هجرة طائفة من أهل دكالة إلى البرتغال، إلى جانب الأعداد الهائلة من الأسرى الذين كانوا ينقلون إلى المدن البرتغالية !! هذا أيضا إلى ما كان يسببه الاضطهاد والظلم من تحول قبائل بأجمعها إلى أمكنة أخرى من المغرب وترك مدنها الأصلية ومحاصيلها الزراعية عرضة للخراب والدمار...

ومن جهة أخرى ففي حديثة عن بعض المدن (تدنست، ماسة، تيط أنفا)، كشف ابن الوزّان عن الدكاكين التي تتجر في الأقمشة والبضائع المستوردة في مقابلة شراء الشمع والعنبر والجلد، كما كشف عن إثر ذلك الاختلاط علي السلوك الاجتماعي للسكان في تيط وأنفا...

(1) S.I.H.M. Portugal T 1 P : 233-4 de Sousa. Docum Arabi p.23-41.

جانب من رسالة أهل ماسة كما وقفت عليه في الأرشيف البرتغالي ضمن مواد معرض خزانة لشبونة الوطنية

الفصل الرابع

- بين بني وطاس وحكام المشرق
- مُخطط قشتالة للقضاء نهائياً على الوجود العَربي بالأندلس وعملها على تشتيت الكلمة بين المغارب الثلاثة !
- ظهور القائد التركي عروج
- محاولة توحيد الكلمة لمواجهة أطماع إسبانيا
- أرجوزة الكُرّاسي كمصدر لتاريخ هذه الفترة...
- علاقات الوطاسيين مع باقي ممالك إفريقيا...

العلاقات بين المملكة المغربية وبين المغرب الأوسط والمغرب الأدنى على عهد الوطاسيين

كانت الاستراتيجية المتبعة من لدن قشتالة لنسف الوجود الإسلامي بالأندلس تعتمد دائما على مخطط يرتكز على إثارة الشنئان بين مملكة فاس ومملكة تلمسان ومملكة تونس حتى تشتغل المغارب بعضهما بعضا عن توجيه النجدات الضرورية لمسلمي الأندلس على ما قلناه ورددناه...

وقد أدى إستنزاف قوى الأطراف إلى ضعف بلغ إلى حد أطمع إسبانيا في النزول على باقي السواحل الإفريقية !

ومع ذلك فبالرغم من انشغال مملكة فاس برد العدوان المحيط بها شمالا وجنوبا من طرف دولتين قويتين : البرتغال وإسبانيا، وبالرغم من تدهور الحالة الداخلية في البلاد، فإنها أي مملكة فاس دأبت على مد يد العون لجارتها تلمسان وبخاصة عندما داهم الإسبان السواحل الجزائرية، فهنا تناسى المغرب متاعبه ليحاول التنفيس عن إخوانه.

وهكذا ففي الوقت الذي أخذ فيه القائد التركي المعروف عروج يعد العدة للاستجابة لاستصراخ أهل بجاية لم يفكر إلا في جهتين إثنتين لمساعدته، وكان عبقريا في ذلك التفكير : أولا ربط الاتصال بالدولة العثمانية، ثانية إبرام إتفاقية مع المملكة المغربية، وهكذا سجل التاريخ

أول حلف من نوعه بين أمير المجاهدين في المغرب الأوسط وبين أمير المومنين في المغرب الأقصى، وكان الحلف يهدف لدعم الحملة ضد الإسبان من أجل تحرير بجاية... ومن ثمت توحيد الخطة للاجهاز على الوجود الأجنبي، ومن هنا قرر السلطان أبو عبد الله محمد الوطاسي المدعو البرتغالي أن يبعث بقطعة من أسطوله عام (920=1514) للاتجاه إلى الإيالتين الجزائر وتونس في مهمة إبلاغ النجدة ونظراً لما كان يخافه العاهل المغربي من تعرض القراصنة لاسطوله فقد أرسل إلى ملك البرتغال برسالة يطلب إليه فيها أن يتقدم بالوصاة لأصحابه حتى لا يتعرضوا للأسطول المغربي... ولما لاحظ إبطاء الجواب كرر إليه الكتابة ثانية حول الموضوع...

وقد أشار صاحب الاستقصا إلى هذين الخطابين اعتمادا على ما ورد في تاريخ البرتغال وقد وقفت في ليشبونة على صورتي الرسالتين الموجهتين للعاهل البرتغالي حول قطعتي الأسطول المغربي اللتين كانتا تحملان العدة للأمير عروج وأخيه خير الدين من أجل تحرير بجاية... وصدّ المستعمر عن السواحل المغربية[1]...

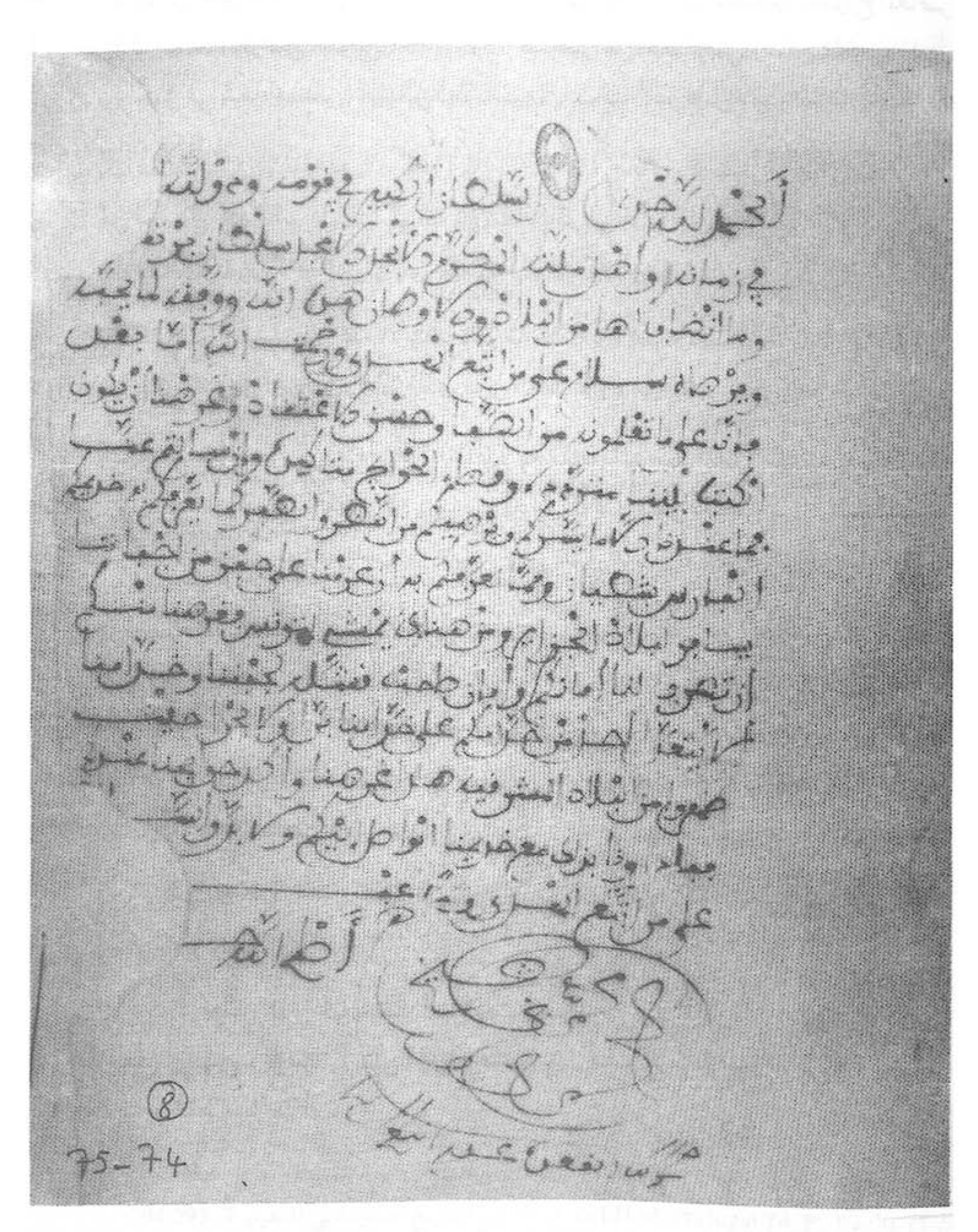
ويتعلق الأمر بالخطاب الذي بعثه السلطان محمد البرتغالي للملك إيمانييل (Emmanuel) بتاريخ 28 ذي القعدة 14= يناير 1515 يطلب إليه أن يوصي رجاله بالبحر المتوسط، بأن لا يتعرضوا لمركبين تابعين للوطاسيين كان السلطان محمد البرتغالي قد عزم على إرسالهما إلى الجزائر وتونس لمعرفة جلية الأمر عن المعارك الدائرة في المنطقة...

ولم تكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي نجد فيها أثرا للتعاون بين العاهل المغربي والقائد عروج، فقد قرأنا أيضا عن إتفاقية أخرى تحدث عنها المؤرخون الإسبان، التزم سلطان فاس بمقتضاها أن يكون على رأس جيشه لإنجاد عروج، لكنه اتصل بنبإ مصرع عروج في الطريق[2].

---

1) الناصري : الاستقصا، طبعة الدار البيضاء، 1954، ج 4، ص 143 عزيز سامح إيلتير : الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت 1409=1984 ص 83 توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا الجزائر الميلي : تاريخ الجزائر ج 3، ص 48/47.

2) مبارك بن محمد الهلالي الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، وقد كمل التأليف ابنه الدكتور محمد ابراهيم، ج 3، ص 48/47، مكتبة النهضة، الجزائر 1964.



خطاب يحمل تاريخ 28 ذي القعدة 920=14 يناير 1515 من ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي إلى إيمانييل الأول (EMMANUEL I)

ولا بد أن نشير لما ورد في "عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل" للمؤرخ المعاصر أبي عبد الله محمد الكراسي المتوفى 964=1557 فقد عبر عن اهتمام بني وطاس بما يجري لدى بني زيان وأجمل في شعره مضمون (رسائل دبلوماسية) بعث بها أمير فاس لأمير تلمسان... ابتدأ تلك الأبيات هكذا :

من لم يُروّع كافراً في داره * يُروّعه الكافر في قراره !!
شاهده ما كان في تلمسان * إذْ كانوا أعطوا مالهم بوهران

لقد كان المؤرخ يشير في هذه الأبيات إلى ما حدث بين أمراء تلمسان من صراع أدى إلى نزول الإسبانيين بالساحل الجزائري، الأمر الذي مكن القائد عروج من الظهور على الساحة الجزائرية.

وتنقل بعض المصادر أن عروج أبرم إتفاقية مع ملك فاس ضد تدخل إسبانيا في قضايا تلمسان، وأن العاهل المغربي بالفعل كان ينجده، وقد مر بنا قبل قليل الحديث عن المراكب المغربية التي طلب العاهل المغربي من البرتغال أن تحميها حتى تصل للجزائر وتونس..

ويشير الناظم بعد هذا إلى الموقف المشرف الذي وقفه السلطان أبو العباس الوطاسي من أميرٍ زياني ظهر بتلمسان : أحمد بن عبد الله فإنه لما علم رغبته في الجهاد -من طريق السفارة التي بعثها للوطاسيين بفاس -أمده بالمال والسلاح وقال له : "بلدي بلدك وأنا أبوك وإبني الناصر أخوك "وبفضل هذه المساعدة تمكن من التغلب على أخيه محمد بن عبد الله الذي استعان بالاسبانيين وأدخلهم إلى عاصمة أجداده تلمسان!!

ويعتقد أن "السفارة" المشار إليها هي التي تحدث عنها تقرير رفعة السفير البرتغالي المقيم بفاس إلى حكومته في هذا التاريخ.

لقد ورد أن حسن الذي خلف خير الدين بعث برسول إلى ملك فاس أبي العباس الوطاسي في أعقاب فشل الهجوم الإسباني على الجزائر حسبما تدل عليه الرسالة المؤرخة يوم 18 رمضان 948= 5 يناير 1542.[1]

1) S.I.H.M. Portugal T. 4P.4.

وهكذا نرى أن التضامن المغربي مع المجاهدين في الجزائر ليس افتراضا : لا يوجد ما يؤكد أو ينفيه كما قيل ! ولكنه حقيقة سجلتها الأراجيز والأهازيج، كما سجلتها الوثائق الدبلوماسية المحفوظة في المصادر المغربية الإسبانية والبرتغالية والتركية على السواء.

ومن المهم أن نسجل -ونحن نتحدث عن ظروف إرسال هذه السفارة إلى مملكة المغرب -أن الست الحرة حاكمة تطوان وزوجة السلطان أحمد الوطاسي أعطت موافقتها لمراكب أتراك الجزائر بالدخول إلى ميناء مدينة تطوان والتزود منه حسبما تدل عليه رسالة سياسية مؤرخة يوم 27 جمادى الأولى 949= 8 شتنبر 1542 موجهة إلى جان الثالث.[1]

العلاقات مع تونس

لقد أحدث اجتياح الإسبان لتونس 941=1534 واستباحتهم البلاد ثلاثة أيام كاملة أثراً سيئا على سائر المسلمين، الأمر الذي تقره القصيدة السّينية التي صدرت عن الإمام الأستاذ أبي الحسن علي المطغري (تـ 951=1544) خطيب جامعة القرويين والتي يخاطب فيها زميلا له من علماء تونس ويتحرق على احتلالها على ذلك العهد، ويقول في مطلعها :

شأنك الغيث إذا الغيث همى * حضرة الأنس البديع المؤنس[2]

ولا بد أن نذكر بهذه المناسبة أحد العلماء الوطنيين الأعلام ممن وقعوا في الأسر الإسباني بعد احتلال جامع الزيتونة، فملكه قُسٌ منهم درس عليه كتاب المفصل للزمخشري ثم جاء إلى مدينة فاس فافتداه أميرها الوطاسي حيث أمسى من مشايخ جامعة القرويين، ونعني به العلامة أبا الفضل محمد خروف التونسي الذي يعتز به سجل الثقافة المغربية على الدوام وقد توفي سنة 966=1559.

1) S.I.H.M. Portugal T4, P : 89-90. -د. التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب 7، 293-294.

2) الجذوة، ص 302/40 - نيل الابتهاج : ص 22- ابن أبي الضياف : جزء 2، ص 13 - تاريخ القرويين: ج2، ص 509.

العلاقات مع مصر

ومع أن الوثائق التي تتعلق بصلة المغرب بمصر على العهد الوطاسي شحيحة نظرا من جهة لكون مصر كانت تعيش بدورها مع أخبار المد العثماني ونهاية السلطنة المملوكية سنة 1517=922 على مايرويه ابن الوزان،[1] ونظراً من جهة أخرى لكوننا نواجه غزوا خارجيا محكما وحالة داخلية قلقة، لكن هناك وثائق -مع ذلك دالة على أن الصلات لم تنقطع...

وهكذا سنسجل قيام أول الولاة العثمانيين خير بك بواجبه عندما تعرض التجار المغاربة للعدوان الذي دبره قنصل الكاطلان بمساعدة الرَّوادسة والذي أدى إلى قطع الطريق على التجار المذكورين الذين كانوا يقصدون بلاد المغرب من ثغر الاسكندرية بعد أن اتفقوا مع ثلاثة مراكب للكاطلان وذلك حسبما تدل عليه وثيقة هامة تحمل 925=1519م[2] أعني في بداية الاستيلاء العثماني على بلاد مصر...

ومن جهة أخرى فإن التاريخ الفكري يسجل الاستفتاء الذي وجهه الإمام التاجوري إلى علماء مصر والحجاز حول محاريب مدينة فاس وخاصة منها محراب جامع القرويين...

ذلك الاستفتاء الذي هز طائفة من الفقهاء بالمشرق فكتبوا بتوقيعاتهم على الجواب، وكان فيهم عدد من الميقاتيين وطائفة من الفقهاء... الأمر الذي جعل الإمام التاجوري يحرر رسالة إلى أمير فاس أبي العباس الوطاسي حول الموضوع الذي جعل العاهل المغربي يدعو علماء الحضرة لسماعه وإبداء الرأي فيه[3]...

وإذا ما تجاوزنا مصر إلى الشرق الأقصى فسنجد أن إسلام أهل جزيرة جاوة تم أثناء هذه الفترة على يد طائفةٍ من رجالات المغرب حسبما هو منقوش على شواهد القبور التي تعرف إلى الآن بين عامة الجاويين بقبور المغاربة في مدينة ينتام بأقصى الجزيرة الغربية وعلى بعد مائة كيلوميتر من جاكارطا.[4]

---

1) الحسن الوزان : وصف إفريقيا، ترجمة ح. حميدة، ص 597.

2) Arapski dokumentiu Dravnom Archvu u Dubrvniku Saajeva. 1960 2-P. 142.

3) د. التازي : جامع القرويين ج 3 ص 658 طبعة ثانية 2000 دار نشر المعرفة . الرباط- المغرب.

4) د. التازي : خطاب الترحيب بعضو جديد في أكاديمية المملكة المغربية السيد محمد الكتاني 19 نونبر 1992.

علاقات المملكة المغربية بباقي ممالك إفريقية الغربية

على نحو ما كان مع أسلافهم بني مرين فإن بني وطاس، بالرغم من قصر فترة حكمهم، وبالرغم مما تميزت به أيامهم من اضطرابات فإنهم مع ذلك ظلوا على صلة بباقي ملوك إفريقيا الذين ما انفكوا يعتبرون المغرب قدوة لهم في الاسلام... حيث نجد المريدين المغاربة يتطوعون ويقطعون الفيافي لحماية العقيدة الإسلامية هناك... ولم يكن غريبا أن نجد سفارة من المملكة المغربية لدى مملكة سنغاي وفي تنبكتو بالذات في بداية القرن العاشر الهجري وبالتحديد في خريف 11-917=1510 حيث مثلت أمام الأسكية[1] محمد توري الكبير (1493=1528) رأس أسرة الأسكيين. لقد أرسل السفارة المذكورة ملك فاس محمد الوطاسي الملقب بالبرتغالي (1505=1524) وكانت برئاسة أحد أعمام الحسن بن محمد الوزان الذي اصطحب معه ابن أخيه الحسن المذكور وهو ما يزال في مقتبل العمر...

ونحن لاندري شيئا عن تفاصيل هذه السفارة، ولكن الذي نعرفه أنها قصدت مملكة أسكية عبر تغازى، وأنها حملت معها هدايا فاخرة ورفيعة حسبما تنبئ عنه إفادات ابن الوزان عند حديثه عن هذه السفارة[2]

ولا ننسى أثر هذه الزيارة على معارف الحسن ابن الوزان الذي وجدناه يعود إلى المنطقة في زيارة لاحقة قام بها فيما بعد، أواخر سنة 1512 وبداية 1513.

هنا وبهذه المناسبة الثانية زار الحسن مملكة مالي التي لم يكن من الممكن أن يقوم بزيارتها في المرة السابقة ...

---

1) يضبط المؤرخون المغاربة سكية بضم السين وتسكين الكاف بينما يقول بعض الباحثين أنها أسكيا ومعناها الدولة، الإفراني : نزهة الحادي ص 90/98 -هيسبريس 1923، ص 436.

2) Jean Lèon l'Africain : Description de l'Afrique, Traduite de l'italian par A.Epaulard 1956. P :136. Mme Madina LY : Empire du Mali, Bulletin de l'ifan T.38 Série B N°2, 1976 P: 246.

د. عبد الهادي التازي : المغرب في خدمة التقارب العربي الإفريقي أعمال مؤتمر الخرطوم حول العلاقات بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 131/94 تونس 1985.

من السفراء الأفارقة لدى المغرب حسب إفادة ابن الوزان ....

"... وأتذكر مرة أن هذا الأمير... أرسل لملك فاس هدية قيمة مؤلفة من خمسين رقيقا أسود ، ومثل هذا العدد من الزنجيات وعشرة خصيان، وإثنا عشر من الهجن، وزرافة وعشر نعامات، وستة عشر سنورا من التي تنتج الزباد ، ورطلا من المسك الممتاز ورطلا من الزباد ورطلا من العنبر الرمادي وستمائة من جلود الحيوان المعروف بـ "اللمط" وتصنع منها تروس خفيفة...

وبعد أن يأتي ابن الوزان بأسعار هذه الهدايا يقول : إنه كان في عدادها أشياء أخرى لم أذكر عددها مثل التمور السكرية ونوع من فلفل أثيوبيا...

وأضاف هذه العبارات : وقد كنت حاضرا حينما قدمت لملك المغرب هذه الهدايا الرائعة، وكان الذي قدمها زنجي قصير وسمين، وكان أعجميا حقيقيا في لغته وتصرفاته، وكان يحمل خطابا من سيده خاطه في ثنية من ردائه، وللبرهنة على الاحترام الذي يكنه لسيده طلب من الملك شخصيا أن يقوم بفتق الخياطة لأنه لم يكن يود أن تلمس يده هذا الكتاب الذي أقسم بألا يمسه ! وقد ضحك الملك كثيرا من سلوك هذا الرجل. وقام أحد كتابه بفتق خياطة الثنية التي تضم الرسالة، وقد كانت هذه الرسالة مدبجة بصورة مشوشة وغامضة، حسب أسلوب قدامى الخطباء، وزاد الطين بلة الكلمة التي ألقاها السفير بصوت جوهري، ولم يتمالك الملك وجلساؤه أنفسهم من الضحك، ولكنهم أخفوا وجوههم بأيديهم أو بجانب من أطراف ثيابهم !! وقد عامل الملك هذا الرسول بأكبر رعاية في أثناء الأيام التي قضاها في ضيافته وأنزله عند إمام الجامع الكبير، وأنفق عليه وعلى الأربعة والعشرين إلى أن أعاده إلى بلده..."

علاقات الوطاسيين بالباب العالي

بالرغم من أن الاتصالات مع الجزائر وبخاصة بالقائد المجاهد عروج كانت تعني الاتصال بأسطامبول، إلا أن هناك فترات من التاريخ سجلنا فيها الاتصال المباشر بالقسطنطينية.

لقد فتح التواطؤ الاستعماري على اكتساح بلاد المغرب من طرابلس إلى أقصى نقطة على ساحل الأطلسي، فتح عيون القادة المغاربة على الخطر المحدق بهم وجعلهم يصيخون بأسماعهم إلى مراكز القوة في العالم الإسلامي عساها تنجدهم، وتعمل على تنسيق العمل معهم لتطويق المد الاستعماري.

وبهذا نفسر وجود شخصية مغربية هامة بتاريخ رجب 921= صيف 1515 على مقربة من السلطان سليم الأول، ويتعلق الأمر بالحسن ابن الوزان، وقد صادف ذلك فترة الصراع الدائر بين الجيوش البرتغالية والجند المغربي على أبواب ثغر المعمورة...

ومع أننا لا نعرف شيئا إلى الآن عن التقاء المبعوث المغربي بالسلطان إلا أننا نعرف أن ابن الوزان أشار لرؤية سليم بمدينة (رشيد) في مصر بتاريخ جمادى الأولى 923= يونيه 1517، حيث كان الخليفة العثماني مقيما آنذاك... وأعتقد أن هذا الصمت من السفير كان عن عمد اقتضته ظروفه...

ولا بد أن نذكر هنا ما طلبه العثمانيون إلى الوطاسيين، وبالتدقيق ما شرطه الرئيس صالح باشا على أبي حسون وهو يقدم له العون لاقتحام العاصمة فاس...

لقد طلب إليه أن يدعو للعثمانيين على منبر جامع القرويين بفاس وعلى سائر مساجد المملكة المغربية، كتعبير عن الولاء والطاعة !! إضافة كذلك إلى طلب نقش رسم السلطان العثماني على السكة الوطاسية على مايؤخذ من كلام الزياني في تأليفه "الترجمان المعرب"[1]...

لكن الأتراك لم يلبثوا أن اصطدموا بمعارضة شرسة من علماء فاس وزعمائها الذين تدمروا من إرهاق الجيش التركي لأوقاف جامع القرويين الأمر الذين اضطرهم لمغادرة فاس بعد بضعة شهور!!

---

1) ورد في النص المذكور "أن بني مربن" والقصد إلى أواخرهم الوطاسيين كانوا يدعون للعثمانيين على المنابر ويكتبون إسمهم على السكة... عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة د. محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت 1409=1989، ص 184 وما بعدها...

الفصل الخامس

بنو وطاس والأندلس وباقي الدول الأروبية

- **سفارة الأمير الوطاسي محمد الشيخ لدى الملك فيرديناند**
- **مالقة في نفسها الأخير وعجز إمارات المغرب وحتى حاكم مصر عن تقديم العون**
- **زحف قشتالة على مملكة غرناطة** 896=1491...
- **التجاء أمير غرناطة إلى غساسة في طريقه إلى فاس !**
- **نكث الاسبان لتعهداتهم**
- **مشاكل اللاجئين**
- **الوطاسيون وفرنسا والبندقية... وإنجلترا وجنوة والفلامنك**

المحاولات الأخيرة لإنقاذ الأندلس
مشاكل اللاجئين تزيد في عبء الوطاسيين

ما انفك المغرب يتتبع عن كثب تعثرات الأندلس وهي تعيش أيامها العصيبة الكئيبة، وما انفك يحاول أن يستجيب لأناتها ويواسي جراحها بالرغم مما كان يتكبده هو من غارات وما يتحمله من عواصف لقاء تلك العواطف...!

وقد شعر حكام غرناطة بالمصير الخطير الذي يهددهم بمجرد التحالف الذي أبرم بين قشتالة وأراغون، وهكذا نجد أميرها سعد بن اسماعيل يبعث سفيره الشيخ محمد ابن الفقيه يطلب المساعدة العاجلة من السلطان الظاهر خوش قدم (Khushqadam).[1]

ثم نجد حكام غرناطة يبعثون سنة 882=1477 سفيرهم إلى استانبول يحمل رسالة طلب النجدة من مسلمي الأندلس إلى السلطان محمد الفاتح.[2]

---

1) كان خوش قدم مملوكا لناصر الدين وإليه نسبته، واشتراه منه المؤيد فأعتق واستخدمه... وقد ثار المماليك على المؤيد ونادوا بسلطنة خوش، قدم عام 865=1461 الذي استمر سلطانا إلى أن توفي عام 872=1467.

2) Aziz Samih : Simali Afrikada Turkler Isstanbul 1934 P: 64

وهذا القسم لم يترجم مع الأسف من طرف الذين ترجموا كتاب عزيز سامح د. نبيل عبد الحي رضوان : جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس 1408=1988، مكتبة الطالب الجامعي، مكة، ص 126.

وبين هذا وذاك شاهدنا المزيد من الحصون والمواقع تسقط في قبضة قشتالة... كما سجلنا سفارة من الأمير الوطاسي محمد الشيخ لدى الملك فيرديناند عام 1485=890 حول ما كان يتعرض له رعايا المغرب من مضايقات كرد فعل على مساعدة الأمراء المسلمين بالأندلس !

وقد اتجهت الجهود للاجهاز على مالقة لاحكام قطع كل وسيلة ممكنة لوصول المدد من المغرب للأندلس، ورأى الأمير الزغل عم الأمير أبي عبد الله -إنقاذاً للأندلس- أن يبعث سفراء إلى أمراء المغرب وإلى سلطان مصر قايت باي والي القسطنطينية العظمى، ولقد كان من بين هؤلاء السفراء القاضي أبو عبد الله محمد بن الأزرق الذي قصد تلمسان إثر التسعين وثمانمائة بعد أن تعذر عليه الاتصال بمملكة فاس نظرا لظروفها العصيبة، ولكنه لم يجد في تلمسان أيضا ما يرضي رغبته، فقد كانت البلاد منشغلة أيضا بمشاكلها فاتجه إلى مصر لدى الملك المذكور قايت باي يطلب المساعدة العسكرية "فكان كمن يطلب بيض الأنوق أو الأبيض العقوق" على حد قول صاحب نفح الطيب![1]

ومع أن المصادر تخذلنا حول مدى استجابة مصر للاستصراخ... لكنها أي مصر، قامت بمسعى طيب ذلك أن السلطان قايت باي "أسكندر الزمان" وجه سفارة إلى البابا وملوك النصرانية تتألف من رهيبين من رعاياه وحملهما رسائل إلى البابا وهو يومئذ إنّوصان الثامن، وإلى ملك نابولي فيرديناند الأول، وإلى فيرديناند وإيزابيلا ملكي قشتالة وأراغون... وقد تضمنت تلك الرسائل عتاب سلطان مصر لملوك النصارى على ما ينزل بأبناء ملته المسلمين في مملكة غرناطة.. في حين أن الرعايا المسيحيين في مصر وبيت المقدس يتمتعون بكامل الحرية والحماية، ولهذا فهو يطلب إلى الملكين الكاثوليكيين الكف عن الاعتداء، والرحيل عن الأراضي الإسلامية المحتلة، ويطلب إلى البابا وإلى ملك نابولي أن يستعملا نفوذهما لدى ملكي قشتالة وأراغون... وإلا فإنه أي ملك مصر سوف يضطر لمقابلة العدوان بالمثل وأن يسلك مع رعايا البابا من النصارى ما يسلكه

1) ج 2 ص 702 - د. التازي : بدائع السلوك في طبائع الملوك لابن الأزرق، دعوة الحق، غشت 1974، مجلة العرب، الرياض مارس 1975.

أولئك في الأندلس مع المسلمين بل "ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة" على حد رواية ابن إياس في تاريخ مصر[1]...

وانتهت المناوشات إلى زحف الجيوش الإسبانية يوم 12 جمادى الثانية عام 896=23 أبريل 1491 على غرناطة لإحكام الحصار على العاصمة الإسلامية !

وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة وافق عليها الملكان، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر نونبر 1491=21 محرم 987 وكانت تتضمن سبعة وستين شرطا على ما هو معروف...

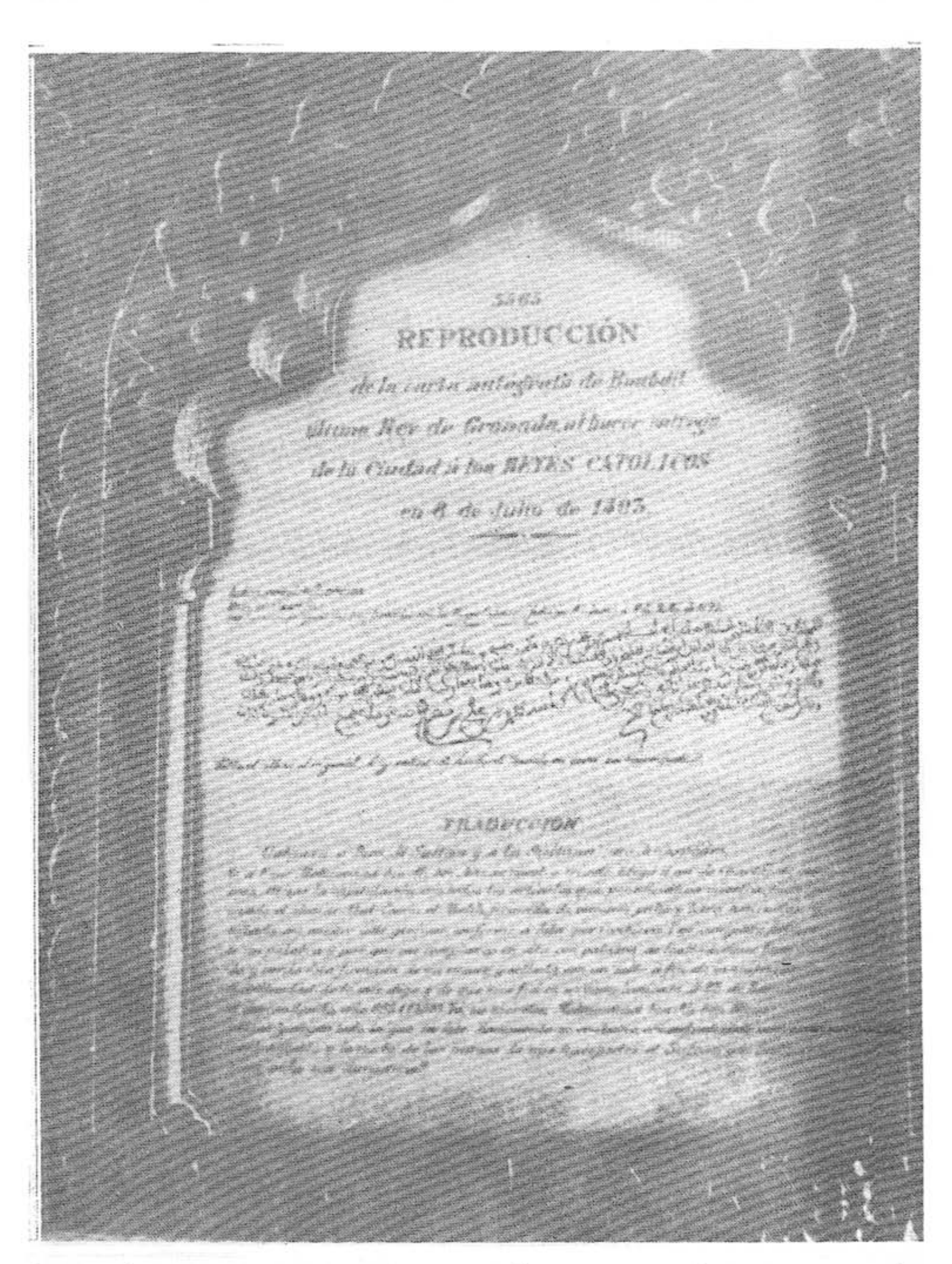
... وهكذا فلم يحن يوم 20 دجنبر 1491= 17 صفر 897 حتى أرسل السلطان أبو عبد الله بوزيره يوسف بن كماشة إلى فيرديناند مع مئات من الوجوه والأعيان كرهائن حسبما تنص عليه الاتفاقية... وتم الاتفاق على تسليم العاصمة يوم ثاني يناير 1492=2 ربيع الأول 897!

وقد قدم أبو عبد الله مفاتيح الحمراء إلى فيرديناند وهو يتلعثم بهذه الكلمات : "هكذا قضى الله !" وسارا معاً إلى حيث كانت الملكة إيزابيلا فسلم وأعلن الولاء ! وهنا اختفى الحديث عن غرناطة ... !!

وقد ضاق أبو عبد الله ذرعا بمعيشته الذليلة الأمر الذي جعله يصفي أموره ليلتحق سنة 1493=898 من ثغر ألمرية بمرسى غساسة (Gaçaça) ملتجئا إلى سلطان فاس أبي عبد الله محمد الشيخ ملك بني وطاس مقدما بين يديه رسالته الشهيرة المعنونة : "الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى الإمام سلطان فاس" والتي دافع فيها عن موقفه قبل أن يستسلم، ويقول في مطلعها مخاطبا ملك فاس :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	*	رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن	*	جار الزمان عليه جور منتقم !
كنا ملوكا، لنا في أرضنا دول	*	نمنا بها تحت أفنان من النعم...[2]

1) ابن إياس : بدائع الزهور ج 2، ص 246.
2) المقري : أزهار الرياض، الأول، ص 72-102-108.
الاستقصا ج 4، ص 125.



REPRODUCCIÓN

de la carta autógrafa de Boabdil

último Rey de Granada, al hacer entrega

de la Ciudad á los REYES CATOLICOS

en 8 de Julio de 1493

TRADUCCION

تأكيد استسلام السلطان أبي عبد الله الصغير أمام قوات الملوك الكاثوليك، وقد كتب هذا التأكيد بذات يده في تاريخ 23 رمضان 898=8 يوليه 1493 عندما أعطى وفاقه لمغادرة أراضي الأندلس

إلى أن يعطف على مديح ملوك فاس والإشادة بعلاقتهم القديمة مع ملوك ابن الأحمر :

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهـم * من عصمة الله مايربى على العصـم
أنسى الخلائف في حلم وفي شرف * وفي سخاء وفي علـم وفي فهـم

ويلي هذه الميمية الطويلة قطعة من نثر بديع لم يفته فيها أن يذكر أن صاحب قشتالة عرض عليه المقام في عدد من الأمكنة خيَّره فيها لكنَّه "لم ير-وهو من سلالة بني الأحمر- مجاورة بني الأصفر"!! وأنه كذلك تلقى دعوات من المشرق للإقامة فيه ولكنه آثو الجواز إلى المغرب... ولم يرتض سوى الإنضواء إلى ذلك الجناب [1] !!

فهل احترمت قشتالة وأراغون عهودها إزاء المسلمين المتبقين في الأندلس ؟ لم تمر بضعة أعوام حتى تكشفت النوايا على حقيقتها ! وهكذا أغلقت المساجد وحظرت إقامة الشعائر وانتهكت الحرمات وضربت بالاتفاقيات عرض الحائط !!

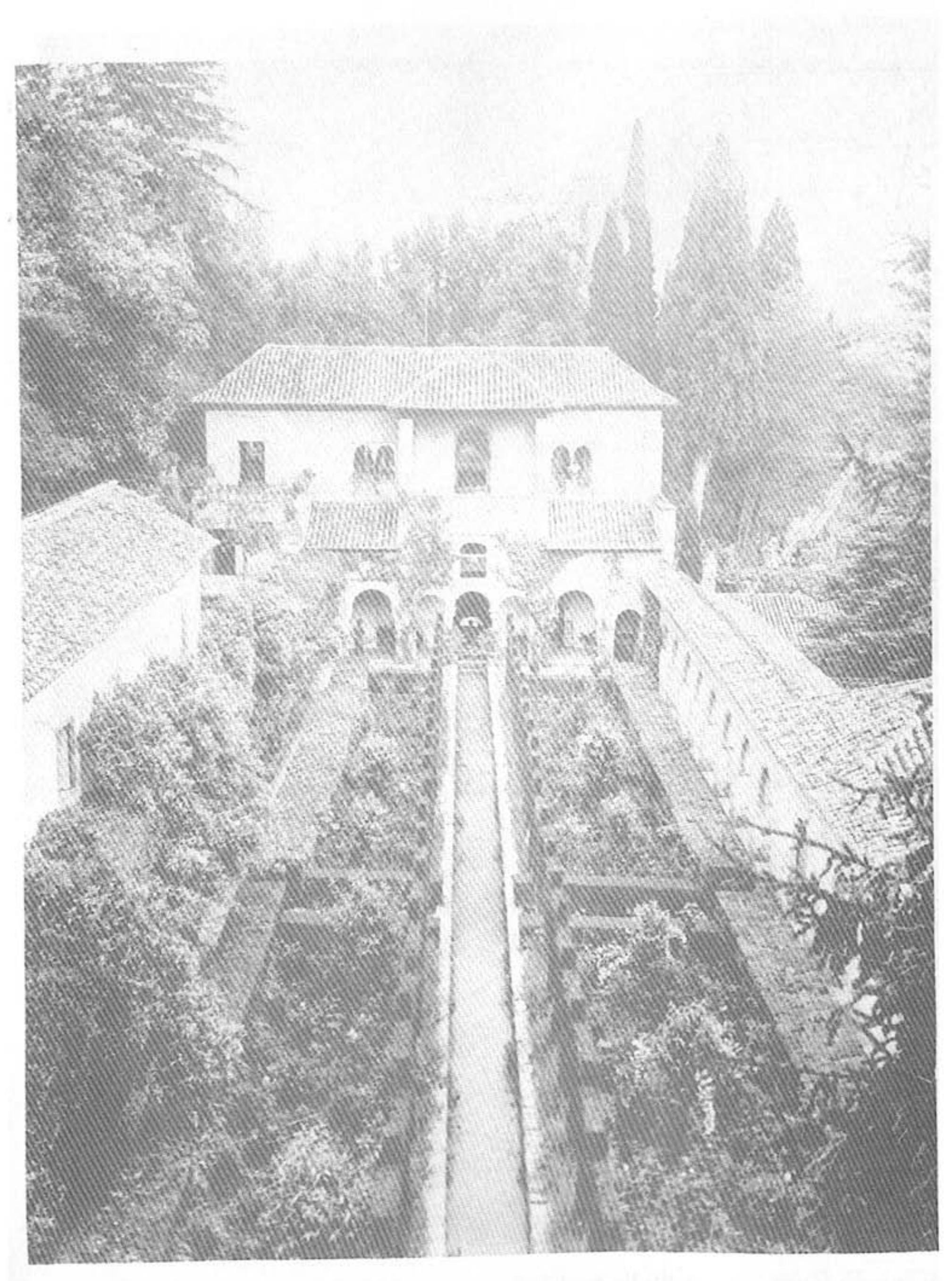
وقد حفظ التاريخ نموذجاً من الرسائل المحزنة التي كانت -بالرغم من كل ذلك القمع- تنفذ من المضطهدين في الأندلس إلى كل من القسطنطينية والمملكة المغربية.

وقد كان من ذلك قصيدة تائية مسهبة رفعت إلى السلطان أبي يزيد خان العثماني (الثاني) تـ 1512=918) وهي تكشف عن تدخل سابق من العثمانيين وقد أورد نصها المقَّري في أزهار الرياض [2] ويبتدئ شعرها هكذا :

سلام كريمٌ دائمٌ متجددُ * أخص به مولاي خير خليفة...

وقد ذكر الأستاذ حسين لبيب في كتابه (تاريخ الأتراك العثمانيين) أن كمال رايس وهو من مشاهير القادة الأتراك أيام السلطان بايزيد الثاني (تـ 1512=918) أرسل غوثا لمسلمي غرناطة

1) عاش أبو عبد الله بقية حياته يجتر ذكريات ملكه إلى أن أدركته منيته بفاس عام 940=1534 تاركا له ذرية.
2) أزهار الرياض ج 1، ص 108



جانب من قصر الحمراء بغرناطة

الذين بعثوا لسلطان البحرين والبرين... فلما لم يسمع لكمال رايس نداء أرسل أسطولا لإغاثتهم بيد أن الشمس كانت على أطراف النخيل[1]...!

وأخيرا فإنه بالرغم من كل تلك الظروف اليائسة فإن المسلمين بالأندلس ظلوا على أمل أنهم قد يُنقذون وهذا ما تفصح عنه مكاتبهم من جديد للسلطان سليمان القانوني بتاريخ أوائل شعبان 948=19-29 نونبر 1541 يطلبون منه العون[2].

العلاقات بين المغرب وفرنسا على عهد الوطاسيين

بالرغم من المشاكل التي صاحبت حكم بني وطاس سواء منها الخارجية أو الداخلية.. فإن التاريخ يسجل محاولاتهم من أجل الظهور أمام بقية الدول الأوربية بمظهر الدولة القوية التي في متناولها أن تستمر في طريق أسلافها لأداء مهمتها في حظيرة المجموعة الدولية...

وهكذا فإذا كانت إسبانيا والبرتغال قد تجاوزتا الحد في استغلال الظروف الصعبة للوطاسيين، فإن فرنسا ما تزال تجد في مملكة فاس قادة تبعث إليهم بسفرائها وهداياها خاطبة بذلك ودهم...

وبهذا نفسر بعثة فرانسو الأول ملك فرنسا إلى بلاط فاس في أعقاب التقرير الذي حرره التاجر الفرنسي إيمون دومولون (Aymon de Molon) الذي ورد على المغرب فيما بين سنة 937-938=1531-1532 أيام السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي، ذلك التقرير الذي تحدث عن ثروة البلاد وإمكانيتها الزاخرة.[3]

لقد عهد فرانسوا بمهمة حمل الرسالة الملكية إلى الكولونيل بيير دو بيطون (Pierre de Piton) الذي ورد للمغرب بواسطة مركب فرنسي ملكي يحمل إسم سان بيير (Saint Pierre) وكان يرافقه خمسة أشخاص من بينهم دومولون السابق الذكر...

---

1) أزهار الرياض ج 1، ص 73/72/1 –تاريخ الأتراك العثمانيين 3 ص 39 – الرسالة المصرية عدد 6 مارس 1935 وعدد 8 يوليه 1935.

2) نشرت صورة هذه الرسالة في مجلة الأصالة الجزائرية عدد يناير 1975.

3) Le S.I.H.M., 1er Série Saadienne France, TI p. 8-9 - Charles Penz : Les Rois de France et le Maroc 1945, P.16.

وقد نزل السفير مدينة فاس مصحوبا بالهدايا المقدمة إلى السلطان حيث مثل أمامه معربا عن رغبة ملك فرنسا في أن يمنح المغرب تسهيلات إلى السفن الفرنسية التي ترسى بالموانئ المغربية.

وقد عاد السفير إلى فرنسا يحمل معه إضافة إلى هدايا ملك المغرب -جوابه الذي كان مشجعا حيث إنه يمنح المراكب الفرنسية حرية الملاحة في سواحل ولايته...

وقد أثبتت مجموعة دوكاستري لائحة الهدايا الفاخرة والمتنوعة التي قدمت من طرف ملك فرنسا إلي ملك المغرب بواسطة السفير الكولونيل دوبيطون (Pierre De Piton).[1]

ونرى من المفيد أن ندكّره أن بهذه الرسالة التي بعث بها السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ البرتغالي إلى فرانسوا الأول وهي تحمل تاريخ 21 محرم 940=13 غشت 1533 وفيها يخبر العاهل المغربي ملك فرنسا بأنه توصل بالرسالة التي بعث بها إليه وأنه يمنح السفن الفرنسية حرية الملاحة والتجارة على السواحل المغربية[2]...

ويلاحظ المؤرخون أن هذه أول سفارة فرنسية أرسلت إلى فاس عاصمة المملكة المغربية.

وبالرغم من أن موسوعة دوكاستري لم تتحدث عما تبع هذه السفارة من صلات فإننا نجد في بعض المؤلفات المعاصرة لأيام السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي ما يؤكد عن وجود سفير فرنسي آخر بعاصمة المملكة...

ويتعلق الأمر برسالة بعث بها نيكولا كلينار (Nicolas Clénard) سالف الذكر الذي كان يدرس بفاس، بعثها إلى صديقه جان بوتي (J. Petit) بتاريخ 21 غشت 1541 يتحدث فيها عن المبعوث الفرنسي هونور (Honorat) الذي يظهر أن (كلينار) كان يفكر في الاعتماد عليه من أجل تحرير بعض الأسرى.[3]

---

1) المصدر السابق S.I.H.M ص 7/6/5.

2) Archives des affaire, Maroc correspondance politique Tif 7 copie de la Fin du XVI siècle.

3) Correspondance de Nicolas Clénard, Publiée Par Alphonse Roersch, Bruxelle, Palais des Academies R. Le Tourneau. Hesp, 1934 P: 45-63.

تاريخ جامعة القرويين للدكتور التازي : ج 2، ص 418/417.

الحمد لله وحده سلطان [illegible] محمد [illegible] [illegible] المكي
المجاهد ضابط البلاد [illegible] كلها وشيخ هذه البلاد الذي [illegible]
والحرمة الله من الذي [illegible] رحمة ربه والمتوكل عليه في جميع اموره
كان الله له واصلح قوله وعمله اما بعد [illegible]
كتبنا لكم من [illegible] بامر الله ونحن [illegible] بوصول [illegible]
منا [illegible] لعند تاريخ العام الماضي عام اثني عشر وتسعماية وعملنا
معهم من الخير الذي قد [illegible] عليه [illegible] ابدا جاو وتاتي هذه
السنة الثانية وقد [illegible] [illegible] القبطان [illegible]
قد [illegible] بكتابه [illegible] عند [illegible] هذه البلاد [illegible] وهو رجل
[illegible] مع النصارى والمسلمين [illegible]
[illegible] بيننا وبينكم [illegible] كما [illegible] [illegible] منكم
وقد [illegible] ان [illegible] جاءوا
لعند [illegible] الشتاء وباعوا واشتروا [illegible]
متاع المسلمين [illegible]
فلاجل [illegible] الله [illegible] لعند [illegible]
المسلمين يبيعوا معهم ويشتروا كيف يحبوا ان شاء الله حتى [illegible]
تجار [illegible] بعون الله وما يكون لكم من حوايج
عندنا تقضيها لكم بعون الله [illegible] لكم مع القبطان
[illegible] اميرا كان عندنا [illegible] لكم كرامة [illegible]
فاعلموا ذلك وهذا ما وجب به اعلامكم والسلام
بتاريخ التاسع عشر من شهر رمضان المعظم عام ثلاثة عشر
وتسعماية [illegible]

الاتفاقية؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

العلاقات مع جمهورية البندقية

وقد تضمن أرشيف ڤينيسيا أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بعض الوثائق الجديرة بإثارة الانتباه لها، وهكذا سجلت سنوات 1504=1520 وجود سفن من بلاد المغرب في البندقية.

وفيما بين القرن الخامس عشر والسادس عشر وجدنا كذلك جردا بأسماء ضباط السفن التي ترددت على بلاد المغرب...

وبتاريخ 23 أبريل 1506=29 ذي القعدة 911 وقفنا على شهادة أمان تمنح من فيردينان الكاثوليكي، ملك أراغون لصالح مراكب البندقية من أجل أن تقوم بعمليات تجارية في بلاد المغرب...

ويتحدث تاريخ ما بين 11-14 يناير وتاريخ 12 يونيه من عام 1508=8-11 رمضان -12 913 صفر 914 عن مهمة عهد بها مجلس الدوقية لقابطان المراكب التابعة لبلاد المغرب...[1]

وهناك إشارة في كتاب "وصف إفريقيا" الذي ألفه الحسن بن الوزان للعلاقات التجارية بين البندقية وبين مدينة سلا، علاوة على صلاتها بميناء غساسة وبادس.

وقد وقفتُ في أرشيف الدولة بفينيسيا على نصوص بعض الوثائق التي تؤيد تلك المعلومات وخاصة منها المتصلة بإمارة بادس التابعة لمملكة فاس.

ويتعلق الأمر بالرسالة التي بعثها والي بادس أبو علي منصور إلى حاكم البندقية ليوناردو لوريدان بتاريخ 19 رمضان 913=22 يناير 1508.

ومن الطريف أن نجد في صدر المفردات المستعملة عندئذ من التي صمدت إلى العصر العلوي الأول (1082=1671) كلمة "الضيف" التي كان يقصد بها الملك أو السلطان باعتبار أنه أجدر بالتكريم والاعتبار والطاعة...

---

1) Demas Latrie : Documen

واحتاجوا الى النزول الى البر فانهم يؤمنون في انفسهم وفي
اموالهم بعون الله :: العقد السابع ان تجار البنادقة يبيعوا
سلعهم في مدينة بادس اسعدها الله [illegible] ويشتروا وعلى
انهم اذا باعوا شيئا للمسلمين بمائة دينار فعليهم
[illegible] المسلمين المشتري حتى يخلوه الى المشتري بغرم
على مشتراه عشرا غير ربع وذلك تسعة ذهب ونصف
من كل مائة فان اشترى النصارى التابع في المشتري فانه يغرم

السابع

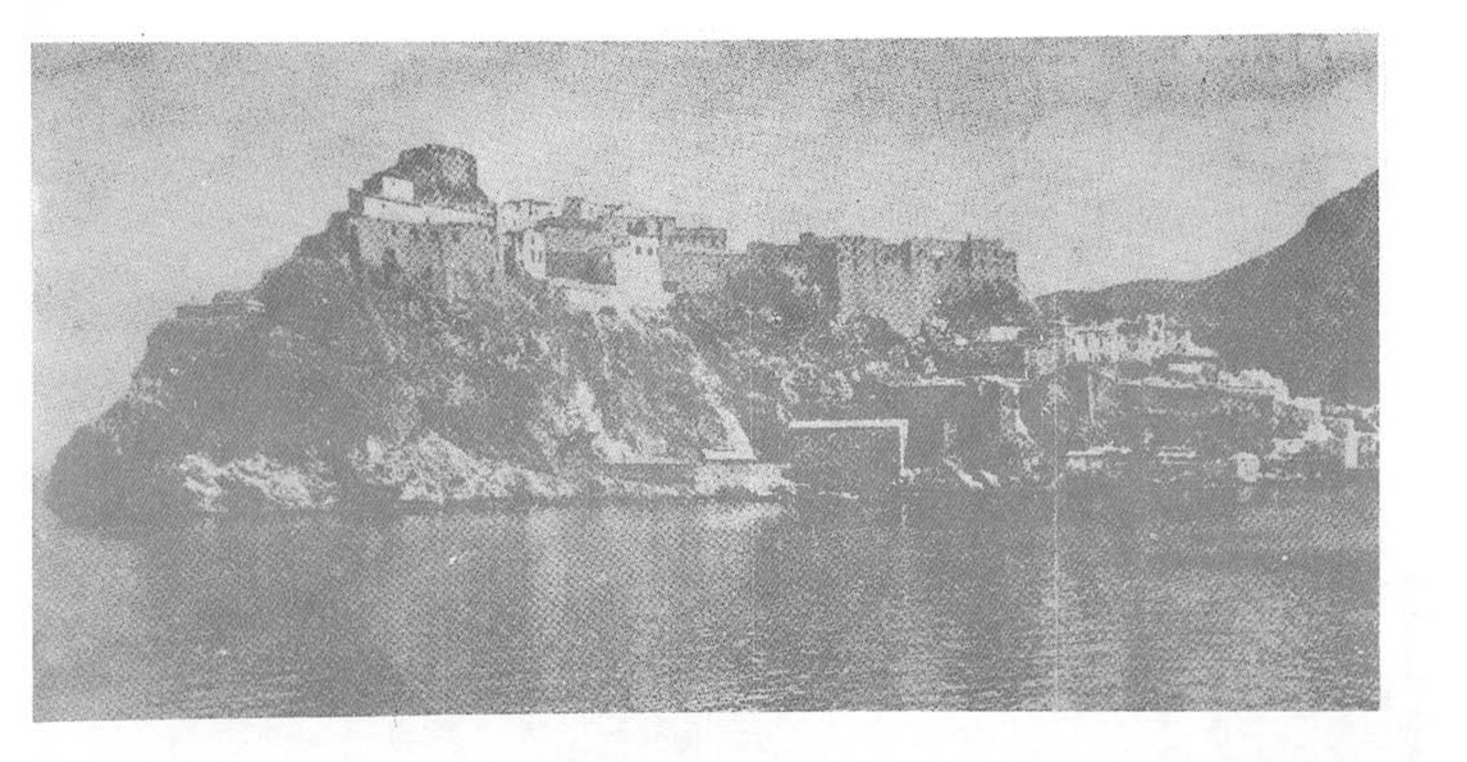
ثمانية ونصفا من كل مائة ان شاء الله :: العقد السابع
ان جميع ما يشترونه من القمح والدقيق والخبز وغير ذلك من
الفواكه والخضر فانهم في عون ذلك لجلهم ابدا بغير مغرم

الثامن

يلزمهم على ما ذكر بعون الله :: العقد الثامن ان العشور الذي
في طريق القبطان اذا بيع سلعة بما تنوي ذهب التي تجب عليه
ضربها خمسة عشر دينار ذهبا فانه يجوز ولا يغرم منها قليلا
ولا كثيرا ان شاء الله :: وكذلك ان يبيعوا كل طرف بدينة وهو دينار
في كل طرف فانه يجوز له من غير ما الذي يبيع به سلعته
شقة دنانير ونصف دينار ولا يزاد عليها ولا ينقص بعون الله

العقد التاسع اذا هرب الى الطرائد اسير نصراني من بادس
وحملها فانهم بيتي لونه لصاحبه وان حملوه معهم
ويحمى جوه في ارض النصارى ويطلقوه فانهم اذا جاء
لغيرها اخر يحبس فيه واحد منهم ان شاء الله ::
على جميع ما ذكر من المعاقدة والشروط تواجهوا عامير
ابو علي منصور اعزه الله ايامه مع القبطان الحسيب
ليونردو مانن البندقي اكرمه الله وكتب جميع ما جرى
بينهما محمد بن احمد الزنبري وفقه الله يوم السبت التاسع
عشر من شهر رمضان المعظم عام ثلاثة عشر وتسعمائة
وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر شتمبر العجمي الذي من عام
الف وخمسمائة وثمانية اعوام :: هـ

اتفاقية باديس - عن أرشيف البندقية



رسم جزيرة بادس

وتتضمن الاتفاقية النص على الطرفين المتعاقدين، وتحتوي على عشرة فصول، ينص الفصل الأول على أن أمد الاتفاقية غير محدود، كما ينص الفصل الثاني والثالث على تبادل الحماية بين الطرفين، وينص البند الرابع -وهذا مهم- على احترام المسؤولية الشخصية بحيث لا يؤخذ أحد بجريرة آخر ! وينص الفصل السادس على تبادل المساعدة في حالة ما إذا تعرض أسطول أحد الطرفين للمضايقة، وينص البند السابع والثامن على الحقوق الواجب أداؤها في الواردات والصادرات وينص التاسع والعاشر على احترام القانون الداخلي للإمارة فيما يتصل بالأسرى... وقد حرر الاتفاق يوم السبت 19 رمضان 913=22 يناير 1508، وبتاريخ 22 مايه 1518=12 جمادى الأولى 924 وجدنا رسالة من برلمان ڤينيزيا إلى فرانسوا كورنارو (F. Cornaro) سفير الجمهورية لدى شارلس كينت (Ch. Quint) في موضوع تجارة البنادقة على سواحل بلاد المغرب...

علاقات الجهات الأوربية الأخرى بالمغرب : انجلترا -جنوة-البرتغال

لابد أن يلاحظ المرء وهو يعيش مع الحسن بن الوزان في كتابه عن "وصف إفريقيا" أسماء عدد من الممالك والدول الأوربية التي كانت تربطها بالمغرب علاقات، وهكذا فعلاوة علي البندقية سالفة الذكر لم يفته أن يذكر أن أهل جنوة كانوا يقصدون بني زكّار لشراء الشمع وجلود الثيران التي كان أهل الجبل يؤثرون بها الجنويين والبرتغاليين، وقد كان الجنويون يقصدون أيضا مدينة سلا ليعقدوا معها صفقات هامة... ونجد هنا حديث طيبا عن جنوة والجنويين الأمر الذي يفسر وجود أسر إلى الآن بالمغرب تنتسب أصلا لجنوة!!

ومن المهم أن نعرف أن ميناء سلا كان مقصدا كذلك للأنجليز وللفلامنكيين (سكان الأراضي الواطئة : هولاندا) الذين كانوا يمارسون بها التجارة في مختلف البضائع التي اشتهروا بها[1]...

1) الحسن ابن الوزان : وصف إفريقيا، مادة : سلا-ومادة بني زكّار...

الفهرس

الباب الرابع : عهد الموحدين

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

علاقة المغرب بالأندلس بعد وقعة العقاب

الفصل الرابع

الفصل الخامس

العلاقات بين المملكة المغربية وبين : فرنسا-جنوة-صقلية-البندقية

الفصل السادس

الفصل السابع

الباب الخامس : عصر الدولة المرينية

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

علاقات المملكة المغربية بالجزيرة الإيبيرية

الفصل الرابع

مع مملكة غرناطة

الفصل الخامس

الفصل السادس

المغرب ودول جنوة، البندقية، فلورانسا، بيزة، صقلية، الكرسي البابوي، انجلترا، فرنسا وميورقة

الفصل السابع

الباب السادس : عهد بني وطاس بالمغرب

الفصل الأول

الفصل الثالث

علاقات البرتغال بالمدن المغربية المحتلة

الفصل الرابع

العلاقات بين المملكة المغربية وبين المغرب الأوسط والمغرب الأدنى

الفصل الخامس



د. عبد الهادي التازي

- ولد بمدينة فاس يوم الأربعاء 8 شوال 1339-15 يونيه 1921.
- أسهم منذ صغره في الحركة الوطنية فتعرض للنفي والاعتقال.
- تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بفاس، ونال شهادة العالمية من جامعة فاس (القَرويين) بدرجة متفوق جداً (1366-1947) وعين أستاذا بها ابتداءا من 1948/5/1.
- بروقي فرنسي معهد الدراسات العليا المغربية الرباط (1953).
- انتقل من فاس للرباط بعد استرجاع استقلال المغرب للإشراف على القسم الثقافي بوزارة التربية الوطنية (أكتوبر 1957).
- طمح إلى الإنتساب لجامعة محمد الخامس (العصرية) فنال بها دبلوم الدراسات العليا بميزة حسن جدا (28 يبراير 1963). (أول شهادة دبلوم تمنحها الجامعة المذكورة في حياتها)
- شهادة في الانجليزية من معهد اللغات، بغداد (1966).
- أحرز على دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة الاسكندرية بمرتبة الشرف الأولى سنة 1971.
- نشر منذ صباه (رمضان 1354 دجنبر 1935) عدة مقالات (تفوق 700) عنوان، وترجم عن الفرنسية والانجليزية عددا من الدراسات والمقالات...
- ألف عشرات الكتب (انظر لائحة التآليف)
- مارس الأستاذية والمحاضرة في طائفة من المعاهد والمدارس العليا والكليات بمختلف الجهات، داخل المغرب وخارجه، حول الموضوعات ذات الصلة بتآليفه.
- عين مديرا للمعهد الجامعي للبحث العلمي عام 1974 إلى 1994
- اسهم في تأطير العدد الكبير من طلبة الجامعات المغربية وغيرها.

- عين سفيرا للمملكة المغربية 1963/5/13 لدى الجمهورية العراقية ثم لدى ليبيا (4 يونيو 1967) ثم لدى بغداد مرة ثانية (20 شتنبر 1968) حيث عهد إليه بالسفارة لدى الامارات العربية المتحدة مارس 1971 ثم عين سفيرا لدى الجمهورية الإيرانية الإسلامية (28 أبريل 1979)، ثم عين مكلفاً بمهمة بالديوان الملكي...
- شارك في عشرات المؤتمرات واللقاءات الدولية (ثقافية واجتماعية وسياسية) : منها مؤتمرات للقمة...
- الرئيس المؤسس لنادي الدبلوماسيين المغاربة 1990.
- رئيس المؤتمر العالمي السادس للأسماء الجغرافية (نيويورك)ابتداء من 1992.
- له إلى اليوم 1100 رحلة جوية ...في أكثر من 260 مهمة...
- عضو المجمع العلمي العراقي منذ (1966) ومجمع اللغة العربية بالقاهرة (1976) والمعهد العربي الأرجنتيني (1978) والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ومجمع اللغة العربية (الأردن) مارس 1980 وعضو اللجنة التأسيسية لأكاديمية المملكة المغربية ثم عضو بالأكاديمية (أبريل 1980)، عضو بمجمع اللغة العربية بدمشق 1986، عضو المجلس الاستشاري الدولي لمؤسسة التراث الإسلامي (لندن 1991) عضو المجمع العلمي المصري 1996.
- عضو في عدد آخر من الجمعيات والمؤسسات والمنتديات الإقليمية والدولية.
- وسام العرش (المغرب 1963) من درجة ضابط -الحمالة الكبرى للاستقلال (ليبيا (1968)، وسام الرافدين (العراق 1972) قلادة الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة (المغرب 1976) - الميدالية الذهبية لأكاديمية المملكة نونبر 1982.

لائحة التآليف المطبوعة

1. تفسير سورة النور (1365-1946) مطبعة فضالة-المحمدية، 1405-1984.
2. آداب لأمية العرب، المطبعة الوطنية - الرباط 1953.
3. أحد عشر قرنا في جامعة القَرويين (بالعربية والفرنسية والانجليزية) مطبعة فضالة - 1960.
4. أعراس فاس، مطبعة فضالة - المحمدية 1961.
5. تحقيق (تاريخ المنِّ بالإمامة على المستضعفين ...) لابن صاحب الصَّلاة حول تاريخ الأندلس والمغرب على عهد الموحدين، طبعات، بيروت 1964، بغداد 1979، بيروت 1989.
6. جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، مطبعة فضالة - المحمدية 1967.
7. تاريخ العلاقات المغربية الأمريكية (بالإنجليزية) مطبعة فضالة - المحمدية 1967.
8. لو أبصرتُ ثلاثة أيام، (ترجمة عن الإنجليزية) للكاتبة الأمريكية كيلير هيلين أدامز 1990-1970، دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض (السعودية).
9. جامع القَرويين المسجد الجامعة بمدينة فاس (ثلاث مجلدات) طبعة أولى بيروت 1972 - طبعة ثانية الرباط 2000.
10. ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة - المحمدية 1976.
11. قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا، مطبعة فضالة - المحمدية 1976.
12. في ظلال العقيدة، دار الثقافة، الدار البيضاء 1977-1397.
13. صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان، مطبعة فضالة - المحمدية 1977.
14. التعليم في الدول العربية (مطبعة اليونسكو) (باريز) في ثلاث لغات 1977.
15. رسائل مخْزَنية (القسم الأول) مطبعة أكدال - الرباط 1979.
16. العلاقات المغربية الإيرانية، مطبعة أكدال - الرباط 1979.
17. القنْص بالصَّقْر بين المشرق والمغرب، المطبعة العصرية - الرباط 1980.
18. الحماية الفرنسية بدْءها - نهايتها، مطبعة الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1980.
19. أوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة - المحمدية 1981.

20. تحقيق (النصوص الظاهرة في إجلاء اليهود الفاجرة لابن أبي الرجال، نشر جامعة صنعاء 1980.

21. العلاقات التاريخية بين المغرب وعُمان، مطبعة سلطنة عمان، مسقط 1981.

22. دفاعاً عن الوحدة الترابية للمملكة المغربية، صاحب السمو الملكي ولي العهد سيدي محمد في أول مهمة سياسية بإفريقيا، طبعة أولى، مطبعة أكدال - الرباط 1982، طبعة ثانية، دار نشر المعرفة، الرباط 1999.

23. الرموز السرية في المراسلات المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1983.

24. تحقيق كتاب الفريد في تقييد الشريد لأبي القاسم الفجيجي، حول القنْص بالصُقْر، مطبعة النجاح، البيضاء 1983.

25. إيران بين الأمس واليوم، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1984.

26. الموجز في تاريخ العلاقات الدُّوَلية للمملكة المغربية (بالعربية والفرنسية والإنجليزية) مطبعة المعارف، الرباط 1985-1405.

27. المغراوي وفكره التربوي، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض (السعودية) 1986.

28. التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، في اثني عشر مجلداً، مطبعة فضالة، المحمدية 1986-1406.

29. التاريخ الديبلوماسي للمغرب بالأشرطة المرسومة بالاشتراك مع بعض الأساتذة من فاس. رقم الإيداع القانوني 635.90.

30. المرأة في تاريخ الغرب الإسلامي، نشر الفنَك بالدار البيضاء 1992=1413 بمساهمة مؤسسة فريدريش إيبيرت.

31. تحقيق المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، لابن زيدان، مطبعة إيديال، الدار البيضاء 1993.

32. ابن ماجد والبرتغال، مطبعة رأس الخيمة الوطنية 1996.

33. تحقيق رحلة ابن بطوطة في خمس مجلدات، نشر أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1997-1417.

34. القدس والخليل في الرحلات المغربية، نشْر منظمة الإيسيسكو - الرباط 1997-1413.

35. طه حسين بالمغرب، نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة 2000-1420.

36 تحقيق كتاب الطرثوت في خبر البرغوت، للسيوطي نشر مجمع اللغة العربية دمشق 2000.

37 الطب النبوي بين المشرق والمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2000-1420.

38 الوسيط في تاريخ العلاقات الدُّوَلية للمغرب في ثلاث مجلدات، دار نشر المعرفة، الرباط 2001-1402.

39 التحليق إلى البيت العتيق رحلة حجازية 1378 = 1959، طبع دارة الملك عبد العزيز- الرياض 2001-1402.

تآليف جاهزة للطبع

40 ملاحق التاريخ الدبلوماسي للمغرب (ثلاث مجلدات).

41 تحقيق (جَنَى الأزهار من روض الدواوين المعطار) لمؤلفٍ مجهول حول تطويق حركة الرق في المغرب ، بداية القرن الثامن عشر.

42 تحقيق (البذْر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر) رحلة سفارية لابن عثمان المكناسي أواخر القرن الثامن عشر.

43 مُعرَّباتي عن الفرنسية والانجليزية.

44 المعجم الجغرافي الموجز للمغرب.

45 لباب التوقيت في دروس عشر

46 مذكّراتي...